د. نبيل راغب

أبناء الرعد

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

أبنـاء الرعـد

(١)

شتاء هذا العام ينبئ بأحداث جسام . السحب حبلى بأمطار رمادية لكنها لا تهطل لتروى هذه الصحراء العطشى الشاسعة الملتفة حول المعتقل . وقصف الرعد يتردد صداه الموحش عند خط الأفق حيث تنطبق زرقة السماء الداكنة على صفرة الصحراء المتجهمة . ومع ذلك تظل الأمطار متعلقة بالسحب ، قطرات غيث تأبى أن تشفى غليل الشفاه المتشققة وأخاديد الألسنة الجافة .

لم يكن سعد العنترى يتصور — وهو ابن العز والجاه — أن تمر به أيام مثل تلك التى يمر بها الآن ! أسير معتقل فى مكان ما بالصحراء ، لا يعرف متى وكيف سيخرج منه ؟! هذا لو كتبت له النجاة ! وزملاء المعتقل ضائعون مثله برغم اختلاف انتماءاتهم السياسية والفكرية والأيديولوجية . أما هو فلم يكن له أى انتماء سياسى سوى لأسرته وماضيها المجيد الذى أنهته الثورة بجرة قلم فتكالبت المصائب على الأسرة لتسقط من قمة المجتمع المترف إلى هاوية بلا قرار برغم محاولاتها المستميتة للتعلق ببعض الفروع الهزيلة الواهية النابتة فى سفوح الهاوية !

التحف الكون بعباءة رمادية داكنة فلم يعرف قاطنو المعتقل أن ساعة الغروب قد حلت إلا عندما دقت الساعة الصدئة المعلقة على الجدار ذى الطلاء الجيرى المتآكل ، الساعة السادسة مساء . فقد كانت الشمس مختفية طوال اليوم الذى بدا مغربا لا يريد أن ينتهى إلى شروق . سرت قشعريرة فى الأبدان الهزيلة بعد أن صدرت أوامر قائد المعتقل بعدم استخدام الدفايات لأن طاقة المولد الكهربى الجديد لا تحتمله ! تراقصت المصابيح الكهربية الذابلة المتدلية بأسلاكها من السقف الأسمنتى المسلح مع هبات الرياح المتسللة من انفراجات النوافذ الخشبية ذات الألواح الزجاجية المتدثرة بأبخرة الأنفاس القابعة خلفها فى انتظار المجهول عبر الصحراء المترامية الأطراف والتى لا يحدها سوى خط الأفق الذى كلت العيون من النظر إليه وتأمله دون جدوى .

جلس سعد العنترى متدثرا بمعطفه الصوفى الجديد الذى أحضرته له زوجته فى زيارتها الأخيرة له ، والذى استمتع به كأنه أحضان زوجته التى يكاد الحنين يقتله طلبا لدفئها . ترك شعيرات ذقنه تنبت ، وخصلات شعره تتدلى بصفرتها الداكنة على جبينه دون أن يعبأ بتنسيقها بأصابعه . فقد ركز كل همه فى أصابع قدميه التى أوشكت على التجمد برغم الجورب الصوفى الثقيل . حاول الهروب من هذا الإحساس الممض بمحاولة الحديث إلى زميله مجاهد عطية الذى يعتبر أحسن مستمع إلى هموم الزملاء الذين يريدون الكلام إلى مالا نهاية دون الاستماع حتى إلى أنفسهم . أما مجاهد عطية فهو نادر الكلام باستثناء تعليقاته الحادة العابرة . ولذلك فهو عملة نادرة وسط هذا الفيضان من الكلمات والذكريات والخواطر والأحلام المبتورة والأمواج المتلاطمة والتيارات المتعارضة .

كان يجلس كعادته صامتا متأملا ، يحك لحيته السوداء الكثة بأظافره من حين لآخر ، وقد تناثر الزملاء والرفاق فى الأركان ما بين نائم أو قارئ أو شارد أو لاعب للشطرنج أو الورق . لم يكن سعد العنترى يستريح كثيرا للحديث مع مجاهد الذى يعتبر نفسه قمة التقدمية التى اعتقل من أجلها فى حين ينظر إليه — دون أن يصرح برأيه فيه — على أنه قاع الرجعية . لكن كان فى نفس سعد شىء من مجاهد ، يدفعه دائما إلى تفريغ الشحنة التى ينوء بها صدره عله يعرف أن المسألة مسألة أقدار ومصائر وليست مجرد اختيارات وإرادات كما ينادى دائما كلما جلس وسط مجموعة من رفاق المعتقل كما يسميهم . ولعله يقتنع لو قص عليه كل التفاصيل . فالتجربة العملية هى الفيصل وليست الشعارات الهائمة من طيات الفراغ أو الأفكار الحائمة حول الرءوس .

انتهز سعد فرصة اقترابه من مجاهد الجالس فى صمت عميق وقد أخفى صلعته المستديرة اللامعة تحت عمامة صوفية فى حين وضع يديه فى جيبى سترته السميكة الخشنة ، والتفت حول عنقه كوفية حمراء قانية . سلط سعد وميض عينيه الأخضر على لحية مجاهد الكثة :

— اليوم يتم على اعتقالنا تسعة أشهر بالتمام والكمال — ولا أحد يدرى متى يتم

الإفراج عنا ؟!

تململ مجاهد فى جلسته وكأنه لا ينوى الرد لكنه قال :

ــ إذا كنا لا نعلم أين نحن على خريطة مصر .. فهل يمكن أن نعلم متى وكيف يتم الإفراج عنا !!

اعتاد سعد هذا الرد الذى سمعه عشرات المرات لكنه ــ كبقية الزملاء ــ لم يكن يسأم ترديد نفس التساؤل ، إذ أن كلمة « الإفراج » فى حد ذاتها تداعب الأسماع كنسمة هواء منعشة عليلة فى كهف مظلم خانق . أسرع لمواصلة فتح باب الحوار على مصراعيه قبل أن يغلقه الصمت السارى :

ــ لم أفعل شيئا فى حياتى يوجب العقاب .. ومع ذلك فإن المصائب تنهال علينا منذ أن قامت الثورة .. وكل جريمتنا أننا ولدنا فى أسرة ميسورة الحال ؟!

لم يشأ سعد أن يقول « أسرة أرستقراطية أو ثرية » فقد أصبح واعيا بالكلمات التى تثير حساسيات معينة فى نفس مجاهد الذى يبدو أن شهيته قد فتحت للجدل الذى يعشقه :

ــ توزيع الثروة ليس له علاقة بالأقدار والمصائر .. وإنما هو صراع دائم بين قوى الاستغلال التى تسعى إلى قهر الكادحين المحتاجين حتى لا يرفعوا رءوسهم ويطالبوا بنصيبهم .. وبين القوى العاملة التى تكافح من أجل الحفاظ على فائض قيمة إنتاجها لأجل مستقبل الأجيال بدلا من أن تنهبه قوى الاستغلال الرأسمالى والقهر الإقطاعى دون أن تكون قد بذلت فيه حبة عرق واحدة !

قرر سعد أن يخوض الجدل بكل قوته برغم إدراكه العميق لثقافة مجاهد الشاملة العميقة التى تتلاشى أمامها كل المعلومات المتناثرة التى حصل عليها من حياته العملية :

ــ أنا لم أنهب أحداً .. فكل ما فعلته أننى اشتغلت بالتجارة .. وقد أحل الله البيع والشراء .. كل هذا كان فى وضح النهار وعلى عينك يا تاجر .. فلماذا يلقى بى فى المعتقل ؟!

ــ علمت من الرفاق أنك كنت من تجار الشنطة ولك محل كبير بشارع

الشوارع !

— كان الأمر مجرد نكاية ! .. ارتكبت غلطة عمرى بعدم الرضوخ لمسئول كبير .. فهبت العاصفة علينا لتقتلعنا جميعا من جذورنا !

— وهل تجارة الشنطة أصلا عمل مشروع ؟!

— كنا نحضر للمحرومين السلع والأشياء التى ظلوا يحلمون بها خمسة عشر عاما دون جدوى ! فهل أصبح إسعاد الناس جريمة ؟!

التفت خطوط الامتعاض حول عينى مجاهد السوداوين وشفتيه الداكنتين المطبقتين . أخرج علبة السجائر والكبريت من جيبه ليشعل واحدة ويطلق نفسا صافيا طويلا مع إجابته الناضحة بالاشمئزاز :

— إذا هبط الحوار بيننا إلى هذا المستوى .. فلا داعى لاستمراره !

ثم ترك الصمت ليطبق على أنفاس سعد الذى قاومه بكلمات ملحة :

— لم أكن راضيا بالطبع عن تجارة الشنطة هذه .. ولكن ما العمل والثورة المباركة لم تترك لى خيارا آخر كى أعيش ؟!

— أنت لست الأرستقراطى أو البورجوازى الوحيد الذى وضعته الثورة فى حجمه الطبيعى !

آه من هذا المغرور الذى يطلق الأحكام يمنة ويسرة!

كتم سعد الغيظ والحنق فى داخله سعيدا بنجاحه فى فتح مغاليق نفسه بعيدا عن التحفظ المفتعل . سأله وابتسامة شاحبة تفترش وجهه :

— أراك متحمسا للثورة دون مبرر !.. ألم يلق رجالها بك فى هذا المعتقل لمجرد أنك تختلف معهم فى الرأى ؟!

سحب مجاهد نفسا عميقا ثم أطلقه تاركا الرماد يتساقط على الأرضية الحجرية وهو يحك لحيته فيما يشبه التردد ، ونظرات سعد تنضح بالسعادة وهو يوشك على الشعور بالندية . لكن سرعان ما أردف مجاهد قائلا :

— الثورة فى نظرنا وضع أفضل من العهد الملكى البائد .. لكنها لا تزال قاصرة عن الوفاء بما نكافح من أجله .

لا يعلم هذا المغرور أو أنه يتجاهل أن أباه العامل البائس فى ذلك العهد الملكى البائد لم يكن ليحلم بتلميع حذاء أبيه الذى كان يحمل لقب البك عن أب كان يحمل لقب الباشا ، لكنها تقلبات القدر التى لا مفر منها ! علق سعد ونبرة الفخر تتراقص على قمم ألفاظه :

— نحن أسرة وطنية بمعنى الكلمة .. كان عمى الكبير من أقطاب الوفد .. وقاد مظاهرة كبيرة فى ثورة ١٩ معرضا صدره لرصاص الإنجليز !!

تدفق الحماس فى كلمات مجاهد على غير عادته :

— كانت حركة بورجوازية دون محتوى عقائدى أو حتى فكرى سوى « الاستقلال التام أو الموت الزؤام » !

— كانت ثورة شعبية حقيقية فى مواجهة الإمبراطورية التى كانت تحكم العالم .. أما ثورة يوليو فهى مجرد انقلاب عسكرى قامت به حفنة من الضباط بهدف الحصول على نفس امتيازات الطبقات الأرستقراطية القديمة !

تردد وقع أقدام ثقيلة على الأرضية الحجرية فالتفت سعد ومجاهد تجاه مصدرها حيث سار أحد حراس المعتقل وهو يتفقد أحوال العنبر . التزم سعد الصمت حتى كاد أن يكتم أنفاسه . ابتسم مجاهد لأول مرة متسائلا :

— لماذا صمت ؟! لقد أصبح الجدل ممتعا !!

ظل سعد على صمته حتى غادر الحارس العنبر فقال هامسا ونظراته لا تزال معلقة بباب العنبر :

— كفى ما جرى لى ؟!

— ما جرى لك جرى للآلاف من أمثالك !

— أنت لا تعلم تفاصيل ما جرى لى ولأسرتى !

— إذا كنت تريد تشويقى فأنا على استعداد للإنصات !

ابتسم سعد لحصوله على هذا الترخيص المغرى وشرع فى سرد قصته والظلام يطبق على زجاج النوافذ الخشبية التى تجاهد لصد دوامات الريح التى علا حفيفها فى الخارج وسط فراغ الصحراء :

ـــ ولدت لأب أرستقراطى ثرى .. أسمانى سعدا لحبه العميق لسعد زغلول باشا .. فقد كان عضوا فى حزب الوفد مع أخيه الكبير .. كان أبى صاحب مكتب للاستيراد والتصدير.. له فروع فى الإسكندرية وبورسعيد والسويس .. وكان لديه عمال وموظفون على استعداد لافتدائه بأرواحهم .. فلم يكن يتأخر عن مساعدة أحدهم .. ونظر لأننى كنت ابنه البكر فقد كنت مدللا من الجميع .. خاصة من عم خلف السائق الخاص لأبى الذى زاملنى ابنه فى المدرسة عاما بعد عام .. وكان يرتدى كل ما أستغنى عنه من ملابس وأحذية وخلافه .. ثم قامت الثورة ..

لم يملك مجاهد سوى أن يقاطعه :

ـــ طبقتكم تشعر دائما بأنها تمن على الكادحين الذين لولاهم لما قامت لها قائمة !

لم يشأ سعد أن يخرج من طوفان خواطره وكلماته :

ـــ أرجوك .. أنا لا أحلل ولا أعلق وإنما أقص عليك ما جرى بالفعل ربما التمست لى بعض العذر !

ألقى مجاهد بعقب السيجارة على الأرض ووطأه بحذائه المترب :

ـــ تفضل !

ـــ شكرا .. المهم أن عمى الكبير فقد حوالى خمسمائة فدان عند تطبيق قانون تحديد الملكية .. وضاع من أبى أكثر من مائتين من أخصب فدادين المنوفية .. لكنه اجتاز الأزمة لأنه كان يعتمد أساسا على مكتب الاستيراد والتصدير الذى كان يحتل دورا كاملا فى عمارة إيموبيليا .. وبرغم القيود التى كانت تفرض تباعا على الاستيراد بصفة خاصة .. فإن الأمور سارت على ما يرام .. ونجح أبى فى أن يتعامل مع الدول الاشتراكية خاصة بعد صفقة الأسلحة مع تشيكوسلوفاكيا .. ووقع العدوان الثلاثى على سيناء وبورسعيد .. فتدفقت حمية الوطنية فينا جميعا وتبرع أبى للمجهود الحربى بصفقة محركات سيارات وألف طن من حديد التسليح كانت قد وصلت إلى مخازنه فى الإسكندرية قبل العدوان مباشرة .. وانقشع العدوان وعادت

— لم يكن الأمر هكذا على وجه التحديد .. لكن الذى زاد الطين بلة أن الناظر والمدرسين كانوا ينحازون لمجدى الطوبجى .. خاصة وأن بعضهم كان يطلب من أبيه أداء بعض الخدمات الشخصية لدى السلطات المعنية و لم يكن يتأخر عن تلبيتها ..

— على كل حال .. فهذه مشاغبات تقليدية بين أبناء المدرسة الواحدة !

— ليت الأمر اقتصر على هذا النوع من المشاغبات .. ففى صيف عام ١٩٦١ وقعت الطامة الكبرى .

— تقصد قرارات يوليو الاشتراكية ؟!

— فعلا .. ومع احترامى لرأيك فيها .. كانت الضربة القاضية لأبى ولى ولأسرتى .. فقد أمم عبد الناصر ضمن ما أمم مكتب أبى .. وحتى تكتمل الكارثة عين أبو مجدى الطوبجى مديرا عاما للمكتب وتحت إمرته أبى الذى كان عليه أن يعمل نائبا له أو يلقى فى الشارع !!

حك مجاهد لحيته بأظافره فيما يشبه الحيرة المتسائلة :

— أتريد أن تقنعنى أن القدر كان لك ولأبيك بالمرصاد فنسج لكما هذه الشبكة المحكمة التى لا فكاك لكما منها ؟!

اقترب سعد بمقعده الخشبى حتى كادت ركبته أن تلتصق بركبة مجاهد وقد خفض صوته عندما لمح الحارس نفسه واقفا عند الباب معطيا ظهره لهما :

— أنت لا تؤمن بالقدر .. أعرف هذا .. لكننى لا أتجادل معك الآن حوله .. وإنما أقص عليك ما جرى بالفعل .. إذ أن أبى لم يجد مناصا من الرضوخ وتسليم أمره لله .. فالاستقالة كانت رفاهية لا يقدر عليها .. ليس لأنه كان مفلسا فقد كان العائد من أطيانه وعقاراته يكفينا ويفيض .. لكن الاستقالة لم تكن تعنى سوى أنه يعادى حكومة الثورة .. وهو عداء لا يعلم مداه ولا عواقبه سوى الله .. فقبل أن يكون نائبا لمدير مكتبه الذى فقده فى طرفة عين .

أطفأ مجاهد ما تبقى من السيجارة بنعل حذائه :

— ما جرى لأبيك جرى لكثيرين غيره !

— لكن ما جرى لى لم يجر ولن يجرى لأحد من بعدى !

المياه إلى مجاريها .. لكن الحال لم تعد كما كانت .. فقد خرج كثير من الضباط الأحرار إلى الحياة المدنية ودنيا الأعمال الحرة .. وكان الاستيراد والتصدير المجال المفضل لهم .. ومن خلال علاقاتهم ونفوذهم فى السلطة استأثروا بكل الأذونات والتصاريح .. واضطر أبى إلى غلق فرعى بورسعيد والسويس .. فلم يعد قادرا على مصاريفهما .. ولم يتبق لديه سوى مكتب القاهرة وفرع الإسكندرية ..

صمت سعد لحظات يلتقط فيها أنفاسه اللاهثة تحت وطأة الذكريات الملتهبة ، واعتدل فى جلسته ليواصل سرده المبهور لمجاهد الذى احترم صمته فصمت هو بدوره فى انتظار كلماته :

ــ عندئذ دخل مجدى الطوبجى حياتى .. ومنذ ذلك الحين أصبحنا كالفرسان الثلاثة : أنا سعد العنترى ومجدى الطوبجى وصلاح خلف !

أشعل مجاهد سيجارة أخرى وقد امتزج الابتسام فى عينيه بالإثارة والتساؤل :

ــ ومن هما مجدى الطوبجى وصلاح خلف ؟! فأنا لا أعرف سوى الفارس الأول !

استراح سعد للدعابة التى تخطت الحواجز بينهما :

ــ صلاح خلف هو ابن السائق الخاص لأبى .. ومجدى الطوبجى هو جارى فى الفصل وابن حسين الطوبجى الذى كان واحدا من الضباط الأحرار !

ضحك مجاهد لأول مرة متسائلا فى دهشة :

ــ وكيف تتجاور الثورية مع الرجعية ؟!

ــ اختلط الحابل بالنابل .. وكان مجدى هذا دائم الاحتكاك بى برغم محاولاتى المستميتة لتجنبه بقدر الإمكان ..

أطلق مجاهد خطا طويلا من الدخان الشفاف من فمه أعقبه بخطين من أنفه :

ــ وماذا كان موقف ابن السائق ؟!

ــ كان يحاول دائما إصلاح العلاقات بيننا .. لكن عندما يفشل كان يضطر إلى الانحياز إلى صفى ..

ــ طبعا .. إلى صف ابن ولى نعمته !

— كيف ؟!

— انتهى صيف ١٩٦١ الحزين لكن الكابوس لم ينقشع .. عدت إلى المدرسة مع بداية العام وقد انتقلت إلى السنة النهائية فى المرحلة الثانوية وكلى أمل فى الحفاظ على تفوق حتى ألتحق بكلية الهندسة التى كنت أحلم بها .. وكان أبى سعيدا بتفوق وطموحى .. وداعيا لى أن أعوض بالعلم خسائر الإصلاح الزراعى والتأميم .. لكننى منذ أول يوم فى العام الدراسى شعرت بل تأكدت أنه لن يمر على خير .. كنت أجلس فى أول درج لقصر قامتى وخلفى مباشرة مجدى الطوبجى وصلاح خلف !

تمطى مجاهد فى مقعده واضعا يديه فى جيبيه طلبا للدفء :

— وهل ظل صلاح خلف على انحيازه إليك ؟! أم أن الأمور لم تعد سيرتها الأولى ؟!

— كانت سيارة المكتب قد سحبت من أبى ليركبها حسين الطوبجى وبذلك أصبح عم خلف سائقه الخاص .. أما أبى فقد استخدم فى تنقلاته سيارته الخاصة التى كان يقودها بنفسه .. وكان صلاح حريصا على رضاء مجدى خوفا على أبيه من الرفت والتشرد .. وفى الوقت نفسه أصبح متحفظا ومحايدا تجاهى .. كنت أشعر أن قلبه معى وعلىّ .. لكن سلوكه الفعلى كان يميل إلى الابتعاد والتجاهل كلما احتك بى مجدى الطوبجى سادرا فى غيه !! وعندما صارحته بضيقى أجابنى بأنه لا يملك فى الحياة سوى سلاح العلم .. ولن تقوم له قائمة إذا فقده .. وقد نصحه أبوه بأن من تسول له نفسه أن يتصدى لقطار الثورة لن يلوم إلا نفسه .. بل إنه لن يجد الوقت حتى يلوم نفسه .. فسوف يصرعه القطار ويمزقه إربا فى لحظات خاطفة !!

اهتزت المصابيح الكهربية الذابلة المدلاة من أسلاكها المغطاة بالذباب النائم حولها على أثر هبات الرياح عبر انفراجات النوافذ الخشبية غير المحكمة ، ثم سطع البرق فى خطوط متكسرة على صفحة السماء المظلمة ، فأضاءت فى لحظات خاطفة وتكشفت سفوح الكثبان الرملية وقممها المترامية خلف زجاج النوافذ ، وبعض أشجار الصبار المتطلعة إلى آفاق مجهولة . ثم دوى هزيم الرعد كقصف المدافع

المضادة للطائرات التى كانت تغير على القاهرة من ساعة إلى أخرى فى أيام العدوان الثلاثى والتى لا يزال سعد العنترى يتذكرها منذ صباه الباكر بل ويتذكر سعادة أبيه وتشغيه فى عبد الناصر الذى ظن فى نفسه القدرة على تحدى بريطانيا وفرنسا .. لكن العدوان انتهى وانسحبت دوله وعاد عبد الناصر إلى جبروته وبطشه بعد أن طالت قامته فى نظر أعدائه قبل أنصاره .

تبادل البرق والرعد، الوميض والهزيم حتى توقفا، فتوقف سعد ومجاهد عن النظر عبر غبش الزجاج المغطى ببخار الأنفاس ، وعلق مجاهد وهو يشعل سيجارة جديدة :

ـــ غريب أمر هذا الشتاء .. منذ بدايته نلمح البرق ونسمع قصف الرعد لكن نادرا ما تهطل أمطار !

انكمش سعد داخل معطفه الذى ذكره بدفء زوجته شويكار التى يقتله الحنين إليها وينتظر زيارتها القادمة على أحر من جمر برغم الصقيع الذى يسرى فى عظامه والذى يحاول نسيانه بفيضان كلماته المتدفقة فى أسماع مجاهد :

ـــ المهم أن المحنة كشفت لى عن المعدن الحقيقى للبشر من حولى .. حتى صديقى الذى طالما ارتدى ملابسى وأحذيتى وأطعمته أمى من طعامنا .. تخلى عنى بمجرد أن أدار لنا الزمن ظهره .. بل إن الأيام بعد ذلك كشفت لى تربصه بى .. وتأكدت أنه هو الذى ألقى بى فى هذا المعتقل حتى يشفى حقده وغليله منى أنا الذى لم ير منى ومن أسرتى سوى كل فضل وخير . فقد أصبح خادم السادة الجدد !

ومضت عينا مجاهد السوداوان مع خطوط البرق المتكسرة :

ـــ كيف ؟!

ـــ شىء شرحه يطول ! لكن قبل أن أصل إلى هذه النقطة أريد أن أحكى لك كيف تفنن مجدى الطوبجى فى إذلالى .. والتحرش بى .. فكثيرا ما دفعنى فى حصة الألعاب لأسقط على وجهى .. أو يضع قدمه فى طريق قدمى دون أن أتنبه إليه فأتعثر فيها بين ضحكاته وضحكات الموتورين من أمثاله .. والأستاذ أو المشرف

يتظاهر بالصمم ويدعى العمى !! أو يعلن فى الفسحة أمام العشرات من الزملاء أننى لص وأبى لص .. وأسرتى كلها لصوص سرقوا مال الشعب وامتصوا دماءه .. وقد قامت الثورة خصيصا للتخلص من أمثالنا وإبادتهم عن بكرة أبيهم .. ومع ذلك كنت بدورى أتظاهر بالصمم وأدعى العمى وأكتم فى نفسى الجريحة حتى يمر العام على خير .. لكن وقع منه ما لا يمكن السكوت عليه .. وليذهب كل ما حرصت عليه إلى الجحيم حتى لو كان مستقبلى نفسه .. إذ أنه أصر على الوصول بى إلى لحظة الانفجار الذى لا يبقى ولا يذر .. برغم وصايا أبى اليومية بتجنبه والابتعاد عنه والتحكم فى أعصابى إذا اضطررت إلى مواجهته .. فقد قررت أن أعاتبه فى أعقاب إحدى المرات التى تحرش فيها بى حتى لا يتمادى .. لكنه استمرأ ضعفى وخنوعى فخورا بقامته الرياضية الطويلة وعضلاته المفتولة ، وهو يقول متوعدا إياى بقبضته وسط التلاميذ فى فسحة الغداء :

ــ أمثالك لا يحق لهم أن يعيشوا .. فمكانهم الجحور والشقوق مع الفئران والحشرات !

عندئذ توقف عقلى عن التفكير ونطق لسانى :

ــ لو تربى أمثالك فى بيئة نظيفة لما نطقوا بهذه السخائم !

فما كان منه إلا أن بصق فى وجهى أمام الجميع . وكانت القشة التى قصمت ظهر البعير إذ تحولت إلى طاقة متفجرة عمياء وإذ بقدمى ترتفع فى ركلة خاطفة فى أسفل بطنه سقط على أثرها وهو يتلوى فى تراب الفناء المبتل . بهت الملتفون حولنا وهرع الآخرون عند سماعهم بصرخات مجدى ولعناته التى صبها على أم رأسى لكن أحدا لم يحاول التدخل خوفا منه لسطوة أبيه وخوفا منى لأننى كنت كالأسد الجريح ، فى حين انطلق بعضهم لاستدعاء المشرف المسئول عن هذا الركن من الفناء. تحامل مجدى على نفسه وهو ينهض ويرغى ويزبد ويلعن موجها قبضة يده الضخمة إلى وجهى لكننى تجنبتها فى لمح البصر لأنطحه برأسى فى بطنه كثور هائج فى حلبة مصارعة ويسقط هذه المرة على ظهره . فار الدم ساخنا فى رأسى ، واحمرت الدنيا فى عينى ، وغامت المرئيات ، و لم أدر بنفسى إلا وأنا أغطى جسمه الممدد على الأرض بالركلات لدرجة أن حذاء قدمى اليمنى طار فى الهواء . وإذ بالصفعات

واللكمات تنهال على وجهى وصدرى وظهرى لألمح المشرف وأستاذ الألعاب ورائد الجوالة وضابط التدريب العسكرى وقد حاصرونى من كل جانب ثم أمسك أستاذ الألعاب بذراعى كشرطى يقبض على مجرم واقتادنى إلى غرفة الناظر حيث أوقفنى على بابها الذى دخل منه فى حين قدم المشرف ورائد الجوالة وضابط التدريب العسكرى ووسطهم مجدى الطوبجى مستندا إلى أذرعهم ، ملطخا بالرمال والأوحال ، والدماء تنزف من أنفه ، والكدمات المتورمة تقبع على فكه الأيمن وتحتل أسفل عينه اليسرى . تبادلنا شرر النظرات برغم جفنه المتورم ورأسه شبه المتدلى حتى دخل الغرفة الفخمة الواسعة وحوله البطانة ثم طرقت أذنى كلمات وأوامر وتعليمات متداخلة لم أميزها للطنين الذى سدهما . بدأت أفيق لنفسى لتغمرنى هواجس وخواطر مرعبة تمزج الندم بالخوف بالمرارة بالرعب من العقاب الذى سينزل بى ، ومن الضربة القادمة التى ستنهال على رأس أبى الذى لم يعد فى حياته متسعا لضربات جديدة .. لكن عذرى أننى لم أكن فى وعيى عندما جرفنى إعصار الثورة . لكن هل سيصدقنى أحد ؟! لقد وقعت الواقعة ونفذ سهم القدر .. و لم يبق سوى أن أواجه كل ما سيحيق بى !

سعل مجاهد من حشرجة فى صدره فضم ساقيه طلبا للدفء وهو يسأل سعد الذى صمت للحظات ليلتقط أنفاسه المبهورة :

— وأين كان صلاح خلف فى تلك اللحظات ؟

— ذاب كفص ملح .. و لم أكن أفكر فيه فى تلك اللحظات .. فلم يكن قضيتى .. ولا حتى مجدى الطوبجى .. وإنما كان مستقبلى هو القضية .. فقد خرج مجدى من حجرة الناظر مستندا إلى ذراع ضابط التدريب العسكرى الذى حدجنى بنظرات خلتها نظرات عشماوى للمحكوم عليه بالإعدام قبل تنفيذ الحكم .. ويبدو أنه اصطحبه إلى بيته فى حين خرج مشرف الفناء من الغرفة كى يشير إلىّ بنظرات ساخرة مريرة للدخول .. دخلت على قدمين لا تقويان على حملى وسرت إلى مكتب الناظر كمن يرزح تحت وطأة كابوس لا يستطيع أن يصحو منه . كان تفكيرى قد شل تماما وأنا أنظر إلى الناظر الذى يتحدث فى التليفون . ومع ذلك قال لى عقلى المشلول إنه يتحدث إلى أبى مجدى :

— أكرر أسفى يافندم .. وكما قلت لسيادتكم فنحن لم نترك ابنكم لحظة واحدة فى مواجهة هذا البلطجى الصايع .. وأسرع المشرف ومدرس الألعاب وضابط التدريب العسكرى بالقبض عليه .. وها هو أمامى الآن .. وسأتخذ معه كل الإجراءات الصارمة الكفيلة ببتره من جسم المجتمع كله !

كان الناظر وهو يتحدث يرمقنى من أم رأسى حتى أخمص قدمى بنظرات كادت أن تلقينى أرضا لولا استماتتى فى الصمود .. ناهيك عن نظرات الجالسين كأنهم يشاهدون مخلوقا غريبا هبط عليهم من كوكب آخر . أما صوت حسين الطوبجى فقد كان عاليا على الطرف الآخر كأنه يصدر أوامره .. لكننى لم أتبين منها كلمة واحدة حتى قال الناظر :

— مع السلامة يا فندم .. ونحن تحت أمركم فى أية لحظة .. مع السلامة .

ووضع السماعة فانتفض جسدى المتهالك بمس كهربى وصوته يجلجل فى أذنى :

— ماذا فعلت يا مجرم ؟!

فتحت فمى ليخرج صوتى من أغوار سحيقة :

— أصل الحكاية ...

قاطعنى بكلمات كطلقات الرصاص المدوية فى فراغ الحجرة الساكنة :

— لم أحضرك هنا لأستمع إلى شهادتك أو دفاعك عن نفسك .. فالحكاية واضحة كالشمس .. اذهب إلى بيتكم ولا تعد إلى المدرسة حتى يفصل المسئولون فى أمرك ..

التوى لسانى كما لو كان قد سد حلقى :

— أصل الحكاية ...

— لا أصل ولا فصل .. نفذ ما أمرتك به .. فنحن هنا لنربى ونعلم أجيال الثورة المباركة .. أما البلطجية والفتوات فليس لهم مكان بيننا ..

— أصل الحكاية ...

— تفضل .. لا أريد أن أرى وجهك ...

نهض مشرف الفناء يمسك بذراعى ويقودنى كمن يزحزح تحت كابوس جعل

الدنيا صفراء فى عينيه عندما خرج من بوابة المدرسة التى لفظته إلى الشارع . لم أعرف هل أذهب إلى البيت ؟! توالت عشرات الأسئلة الكئيبة على رأسى كدقات مطارق من حديد ! كيف ستستقبلنى أمى عندما ترانى ؟! كيف سينزل الخبر على أبى ؟! وهل سيحتمله ؟! بدون إجابات أو تفكير فى البحث عنها سارت قدماى على غير هدى ، والمرئيات حولى مهزوزة ، باهتة ، شاحبة ؛ والأصوات والأبواق صادرة من عالم متباعد كلما اقتربت منه ! ظللت أتخبط بين طيات الضياع التى لم تنجح فرملة سيارة خلفى وسباب قائدها فى انتشالى منها !

صمت سعد ليلتقط أنفاسه فألقى مجاهد ببقايا السيجارة التى كان قد نسيها بين أصابعه تحت نعل حذائه وهو لا يخفى اندهاشه :

ـــ عجيب أمرك !! إنك تقص الأحداث كما لو كانت قد حدثت بالأمس وليس منذ ست سنوات !!

ومضت عينا سعد ببريق فى ضوء المصباح الذابل المهتز :

ـــ إنها محفورة داخلى كالوشم المحمى بنار الحديد .. ولن تبرد إلا إذا أخذت بثأرى من الذين داسونى بنعالهم .. وفى مقدمتهم مجدى الطوبجى ..

ـــ وكيف تأخذ بثأرك وأنت نزيل معتقل لا تعرف متى وكيف ستخرج منه ؟! ولا أعتقد أن مجدى الطوبجى وأمثاله سيكونون ذات يوم تحت رحمة واحد من أمثالك !!

ـــ صحيح أن مجدى الطوبجى الآن أحد نجوم السلك الدبلوماسى فى وزارة الخارجية .. وصحيح أن أباه يعتبر —

ثم همس سعد وهو ينظر حوله فى توجس :

ـــ من شلة المشير عبد الحكيم عامر الذى يعد الحاكم الفعلى لمصر .. لكن من يدرى ؟! لا شىء يظل على حاله .. خصوصا فى هذا البلد !!

ـــ أنت تعلق مستقبلك بأحلام قد لا تتحقق برغم وعيك العميق بموازين القوى الآن فى البلد !!

ـــ حتى إذا لم تتحقق هذه الأحلام فإننى لا أستطيع أن أعيش بدونها يوما

واحدا .. فأنا لا أنسى يوم عدت من المدرسة طريدا .. ودون أن أفتح فمى بكلمة شهقت أمى ولطمت صدرها بمجرد رؤيتى .. ثم انهيار أبى الذى جاء إلى البيت هو الآخر لاهثا بعد أن أبلغوه تليفونيا بطرد ابنه لأجل غير مسمى .. وانهال علىّ بالأسئلة المستعرة محاولا التحكم فى يده حتى لا تنهال علىّ بالصفعات ، بل إن الدموع تجمعت فى عينيه عندما أجهشت بالبكاء المر . كان مؤمنا فى قرارة نفسه أننى مظلوم وأن رواسب الكبت الطويل قد انفجرت أخيرا .. فترك البيت ليسرع إلى بيت حسين الطوبجى كى يقبل يده لو اقتضى الأمر ! سمحوا له بالدخول حيث جلس فى الصالون المذهب الفاخر الذى ازدان بصورة كبيرة للمشير عبد الحكيم عامر على الجدار الأوسط فى حين كان حسين الطوبجى يتحدث تليفونيا فى غرفة المكتب المجاورة :

ـــ شاكر فضلك يا سيادة الوزير .. الموضوع لا يصل إلى مستوى الجناية .. يكفينى الرفت عقابا له ...... هذا صحيح .. أفضل أن يبتر العضو الفاسد من أن يدب الفساد فى الجسم كله .. شكرا .. شكرا .. مع السلامة !!

كاد أبى أن يسمع دقات قلبه الضعيف فى سكون الغرفة الفسيحة وحسين الطوبجى يضع السماعة ، ويتقدم بوقع خطواته العسكرية صوب الصالون ليقابل أبى بدهشة غير مرحبة . ومع ذلك كان أبى على استعداد كى يصل إلى آخر مدى لذل الإنسان إنقاذا لمستقبل ابنه . انتفض واقفا :

ـــ جئت لأطمئن على مجدى .. كيف حاله الآن ؟!

جلس الطوبجى دون أن يمد يده بالسلام :

ـــ زاره الطبيب .. وضمد جراحه وطهرها .. وأعطاه مسكنا !

جلس أبى على حافة المقعد الضخم :

ـــ الحمد لله أن الأمر لم يتطلب الذهاب إلى المستشفى !

ـــ وهل كنت تتوقع أن يفعل ابنك بابنى أسوأ مما فعل ؟!

ـــ أستغفر الله .. سعد مخطئ من رأسه إلى رجليه .. ويستحق أى عقاب ترغب سيادتك فى أن ينزل به .. لكن أستحلفك بالله كأب ألا تعاقبه فى مستقبله

.. فلم يتبق له سواه !!

ـــ وهل مستقبل ابنك أهم من حياة ابنى ؟! لقد كان على وشك أن يقتله !

أمسك أبى نفسه عن البكاء الذى لم يعرفه منذ الصبا :

ـــ القضاء على مستقبل ابنى أبشع من قتله !

نهض الطوبجى وكأنه ينهى المقابلة :

ـــ تكلمنى كما لو كنت مسئولا عما فعله ابنك .. الموضوع الآن برمته أمام وزير التربية والتعليم ليتخذ فيه القرار القانونى والتربوى المناسب .. فالثورة لا يمكن أن تسمح بالفوضى والهمجية التى اشتهر بها العهد البائد !!

كان أبى قد وقف بدوره فانهار منحنيا على يد الطوبجى محاولا تقبيلها لكنه أسرع بسحبها منه غير منصت لكلماته المتهدجة :

ـــ أنا فى عرضك .. ارحم ضعفى .. فأنت أب مثلى !

تقدم الطوبجى نحو باب الغرفة :

ـــ لو كنت حريصا على تربية ابنك لوفرت على نفسك هذا الموقف المهين !

ثم سار إلى باب الفيلا وفى أعقابه هرول أبى ، فإذ بالطوبجى يفتح له الباب :

ـــ مع السلامة .. مع السلامة !

فخرج أبى وهو يدق كفا بكف فى استغاثة لم يسمعها أحد :

ـــ حسبنا الله ونعم الوكيل .. حسبنا الله ونعم الوكيل !

وفى صباح اليوم التالى حفلت صفحة الحوادث فى الصحف الثلاث بالحادث وكأنه محاولة اغتيال سعد زغلول ! بل إن إحدى الصحف حققت سبقا صحفيا ، ونشرت صورتى مع التحقيق الصحفى ، وألمحت إلى أن فلول الرجعية لا تزال تلعب بذيلها ، وقد آن الأوان لقطعه . وهكذا أصبحت مشهورا بين يوم وليلة مثل سفاح كرموز ! وأدرك أبى أن سلخ الشاة سيتم قبل ذبحها إذ أنه هرع إلى كل الوساطات الممكنة ليستنجد بها ، لكن القرار صدر بطردى طردا نهائيا ! ودار أبى وتردد على كل المدارس الخاصة بعد أن سدت فى وجهى كل المدارس الأميرية ، لكن شهرتى كانت قد سبقتنى إليها وأصبحت أشهر من نار على علم ولم أتجاوز السابعة

عشرة من عمرى !

أشعل مجاهد سيجارة جديدة ناظرا إلى سعد فى بعض من الريبة والشك :

— لكننى لم أسمع عنك من قبل ؟!

— أقصد ناراً على علم فى الأوساط التعليمية .. فكل مدرسة خاصة ذهب إليها أبى فى محاولة مستميتة لإلحاق بها كان الناظر ينتفض خوفا وريبة بمجرد سماع اسمى ويطلب من أبى الحصول على إذن أو تصريح كتابى من إدارة التعليم الخاص بالوزارة حتى يسمح لى بالالتحاق بمدرسته .. وكان البعض الآخر من النظار يتباسط بعض الشيء ويقول لأبى إنه لا يملك أن يقف فى وجه قطار الثورة التى تسللت إلى كل جزء فى جسد مصر حتى النخاع .. وكان أبى يلحظ فى كل مدرسة تردد عليها كلمات عضو مجلس قيادة الثورة الذى شغل منصب وزير التربية والتعليم فى أعقاب الثورة وهى مكتوبة بماء الذهب أو الحبر الشينى داخل أطر أنيقة أو خلف ألواح زجاجية فى ردهات المدرسة وحجراتها وممراتها وأفنيتها وكأنها عيون الفلسفة والحكمة التى لم تدركها الإنسانية من قبل !

قال مجاهد والسعال يمزج كلماته بالرذاذ الذى كتمه بكفه :

— لم تتسلل الثورة إلى كل جزء فى جسد مصر حتى النخاع .. لأنها اعتمدت على القرارات الإدارية والبيروقراطية دون الاعتماد على طبقة البروليتاريا التى تمثل الطليعة الثورية لكل نضال .. القرارات البيروقراطية تفرض نفسها على الواقع لكنها لا تغير معطياته .. الثورة الحقيقية ترفع من وعى الجماهير بتغيير أيديولوجيتها .. عندئذ تتغير أنماطها السلوكية وبالتالى يتغير المجتمع كله ..

— على كل حال قبعت فى عقر دارى فى انتظار عودة أبى يوما بعد يوم ليقص علىّ آخر أنباء محاولاته اليائسة الفاشلة لإلحاقى بالمدارس .. كانت أمى تضع الطعام فى فمى بالإكراه.. ونقص وزنى حتى أصبحت شبحا هائما بين أرجاء البيت الحزين وأنا أرى فى الصباح أخى الأصغر منى وأختى الصغرى وهما فى طريقهما إلى المدرسة وأنا قابع فى برودة البيت والخوف لا أدرى ماذا أفعل بنفسى وأيامى وقد أصبح المستقبل كهفا مظلما ، يقترب ليبتلعنى دون أمل فى الفكاك منه .. وبرغم

الرعب والحزن فى عيون أخى وأختى خوفا من أن يقع لهما ما وقع لى ، فإننى كنت أحسدهما فى قرارة نفسى لمستقبلهما الذى لا يزال مفتوحا أمامهما وإن لم يكن مشرقا تماما . أما نظرات الرثاء والحزن والضياع فى عيون أبى وأمى فكانت سهاما تدمى قلبى كلما التقت العيون التى فقدت بريقها !

— أفهم من كلامك هذا أنك لم تكمل تعليمك ؟!

لاحظ سعد بعض الارتياح فى نبرات مجاهد فعلق :

— كلنا فى الهم شرق !

رفع مجاهد يده اليمنى محتجا :

— لكننى حصلت على دبلوم الصنايع !

— حتى الصنايع عجز أبى عن إلحاق بها !!

— وما العيب فى الصنايع ؟! إن الأمم والشعوب لا تنهض إلا بعمالها !! ألا زلت مؤمنا بهذه المفاهيم البورجوازية الرجعية ؟!

— لا أقصد هذا بصفة شخصية .. وإنما كلامى تعبير عن الاتجاه السائد .. المهم أن أبى حاول بعد ذلك إرسالى إلى بيروت أو الخرطوم لإتمام تعليمى بأى شكل من الأشكال .. لكنه فوجئ بضربة من الضربات التى أصبحت عادة تكاد تكون أسبوعية فى تلك الأيام واكتشف أن ابنه الشاب الصغير ممنوع من السفر إلى الخارج .. وكان السكر الذى أصيب به أبى يزداد مع كل ضربة .. أما أنا فقد بلغ بى الإحساس بالاختناق حدا جعلنى لا أستطيع التنفس ودار بى أبى على الأطباء الذين أجمع معظمهم على أنها أزمة نفسية لن تنتهى إلا بانتهاء الأسباب التى أدت إليها .

ومضت نظرات مجاهد ببريق الشوق المتسائل فى وميض البرق خارج النافذة المظلمة ثم أعقبه قصف الرعد مع كلماته :

— لكن كيف أصبحت من كبار تجار الشنطة وصاحب محل كبير فى شارع الشواربى فى هذه الفترة القصيرة وبعد كل هذه الضربات المتلاحقة ؟! فأنت — طبقا لكلامك — لم تتعد بعد الرابعة والعشرين من عمرك !!

لم يعرف التعب طريقه إلى سعد وهو يواصل حديثه الذى أصبح محموما :

ـــ طالما أن هذه الضربة لم تقض علىّ .. فقد التحقت بمدرسة الحياة التى علمتنى فى السنوات الست الماضية ما لم يمكن أن يتعلمه غيرى طيلة حياته . ففى بداية الأمر لم يحتمل أبى وجودى فى البيت هائما كشبح ليست له علاقة بدنيا الأحياء وسعى كى يعيننى سكرتيرا له فى مكتبه الذى لم يعد ملكه ، لكن حسين الطوبجى رفض رجاءه وإلحاحه بحجة أن المكتب ليس فى حاجة إلى عمالة جديدة . وخاف أبى أن يسد الطوبجى منافذ العمل فى وجهى كما سد من قبل منافذ العلم فأبدى اقتناعه بكلام رئيسه ! كان أبى قادرا على الإنفاق علىّ لكنه لم يحتمل نظرتى الكسيرة ولذلك سعى سرا لدى أصدقائه ليجدوا لى وظيفة تخرجنى من محنتى التى تكاد تقضى علىّ . ومع بداية الربيع استطاع أن يجد لى وظيفة كتابية فى جمرك السبتية فرحت بها فرح الغريق الذى يجد قشة بعد أكثر من خمسة أشهر طويلة ، باردة ، مظلمة كادت وطأتها أن تسحقنى . واستبشرت خيرا بدفء الربيع والخروج يوميا إلى الوظيفة الجديدة ! صحيح أنها لم تكن تناسب مكانة أسرتى وطموحاتى القديمة فى الالتحاق بكلية الهندسة ، لكن بعد ما مررت به كان أى تغيير لا بد أن يكون للأفضل .. وهو تغيير انتشلنى من قاع الضياع إلى بؤرة الانتقام من كل الذين أذلونى بعد أن استوعبت الدرس جيدا .. أصبحت دقيق الملاحظة .. مرهف الحس .. أستطيع أن أعرف ما يدور بداخل من أمامى دون أن يفتح فمه بكلمة .. وحتى إذا تكلم يمكننى أن أحدد مدى مطابقة كلامه لحقيقة ما يدور بداخله .. وشرعت فى التحرك بحرص وحيطة .. بعد أن درست كل ما يدور حولى من كلمات أشبه بالشفرة .. وتلميحات يتداولها زملائى الذين لم يكملوا تعليمهم .. لأن أسرهم لم تستطع أن تنفق عليهم ليواصلوه حتى نهاية مراحله .. ومع ذلك كانت النعمة تبدو عليهم .. وقد حجز بعضهم لشراء سيارة من التى يجرى تجميعها فى مصر بعد أن منع استيراد السيارات الأجنبية .. كما فهمت أن هؤلاء الموظفين الصغار قد اكتسبوا ثقة مدير الجمرك الذى يخدم علية القوم بعينيه .. ولذلك فهم لا يتأخرون عن تلبية طلباته أولا بأول .. ولا بد أن ينال هؤلاء الموظفون الصغار من الحب جانبا .. كان الجمرك كله أسرة متحابة .. لكنها لم تسترح لوجودى فى

بادى الأمر إذ أننى كنت فى نظرهم غريبا يمكن أن يعكر جو الصفاء الذى يسود الجميع .. ثم اكتشفوا أننى لين العريكة.. مرن .. أنفذ كل ما يطلب منى بمنتهى السرعة والدقة .. ولا أغتاب أحدا .. كتوم .. صامت .. أعامل الجمهور بمنتهى الحيطة والحذر .. فقد كانت المحنة المبكرة التى مررت بها خير مدرسة تعلمت فيها حقائق المجتمع العارية ..

رمق مجاهد الحارس الواقف عند الباب والذى لم يستدر ليواجههما ثم همس قريبا من أذن سعد وهو يطفىء سيجارته بنعل حذائه :

ــ أخاف من تصنته عليك .. الجدران لها آذان !

استدار سعد ليرمقه بدوره لكنه همس دون مبالاة :

ــ لا يمكن أن تصل كلماتى الهامسة إلى أذنيه .. كما أن الشحنة أثقل وأعنف من أن أحتفظ بها داخلى .. ونحن لا نتآمر ولا نفعل شيئا ضد النظام الذى وضعنا هنا ليحولنا إلى كميات مهملة لا خوف منها على الإطلاق . وأنا شخصيا تعودت من حين لآخر أن أصبح كمية مهملة .. كانت أول مرة بعد طردى من المدرسة .. والآن بعد اعتقالى لمجرد أننى رجل أعمال ناجح .. تماما كما كنت تلميذا ناجحا .. لكن عودى هذه المرة أكثر صلابة .. بعد أن وضعت يدى على حقائق النظام .. كان مدير الجمرك من الضباط الأحرار .. ولم يكن يتأخر عن خدمة أحدهم .. خاصة من ترك منهم العمل العسكرى والسياسى واشتغل بدنيا الأعمال والتجارة بعد حل مجلس قيادة الثورة وتولى جمال عبد الناصر رياسة الجمهورية .. كانت كل التسهيلات الجمركية تحت أمرهم .. كانت السحارات والصناديق الخشبية التى فى حجم غرفة متوسطة تمر من الجمرك دون عقبات ودون أن تفتح !! وكيف تفتح وهم الذين حملوا رءوسهم على أكفهم ليلة الثالث والعشرين من يوليو لإنقاذ مصر من الهاوية التى تردت فيها ؟! وكانوا بدورهم فى غاية الكرم بالنسبة للإكراميات والهبات والبقشيش .. وتفتح أمام عينى عالم مبهر رائع تتضاءل أمامه كل أحلامى فى الالتحاق بكلية الهندسة .. فما الذى يمكن أن أحققه بعد تخرجى وأنا الآن يمكننى أن أجنى فى يوم ما أستطيع الحصول عليه فى عام كامل ؟! وكما يقولون فإن

المكسب يقوى القلب ! ولذلك تحولت إلى شعلة من النشاط والخفة وأصبحت أحد رجال المدير .. وبدأت الإكراميات والهبات تنهال علىّ .. واشتريت سيارة جديدة .. والعجيب الغريب أن أبى .. على عكس ما توقعت تماما .. لم يكن راضيا عن مظاهر الثراء التى بدأت تحيط بى .. لكن أمى وقفت إلى جوارى ساخرة من أبى الذى نسى طعم النعمة التى كان يرفل فيها هو وآباؤه وأجداده منذ تأميم مكتبه وأعماله وإصابته بالقلب والسكر والاكتئاب .. بل إنى لاحظت بعض نظرات الغيرة فى عيون أخى وأختى اللذين لم يكن أمامهما سوى إكمال دراستهما من أجل الوظيفة الحكومية فى نهاية المطاف .. أما أنا فكنت فى بداية المطاف بعد أن أتقنت كل أسرار المهنة .. وتدفق المال بين أصابعى بعد أن عملت لحسابى الخاص .. وأصبحت أحد الموانئ الهامة التى يرسو عندها تجار الشنطة سواء القادمون عبر المطار أو الموانئ أو حتى الطريق البرى القادم من ليبيا أو غزة . وكنت أقوم بتوزيع ما أشتريه منهم على علية القوم الجدد الذين تعرفت عليهم من خلال عملى .. ونظرا لغرامهم بكل ما هو مستورد .. كانوا يدفعون دون مناقشة أو حتى دهشة المبلغ أو السعر الذى أحدده !! وأحيانا كنت أهدى زوجاتهم بعض الهدايا الثمينة لعلمى بمدى تأثيرهن على أزواجهن.. وأصبحت أتحرك فى وضح النهار دون خوف من أى تهديد .. كنت فى حمايتهم .. وحمدت الله من صميم قلبى على قيام الثـورة المباركة .. كانت مباركة فعلا .. أدركت استحالة الحصول على هذا الفيض المنهمر من الخيرات لو استمر العهد الملكى البائد كما هو . ولإيمانى العميق بالثورة وإنجازاتها انضممت إلى الاتحاد الاشتراكى .. وأصبحت من أنشط الأعضاء فى حضور اللجان والندوات .. خصوصا لجنة الفكر والدعوة ..

لم يستطع مجاهد أن يمنع نفسه من الدهشة الحائرة المتسائلة :

— أنت ؟! فى لجنة الفكر والدعوة ؟! أنت تنادى بالاشتراكية والعدالـة الاجتماعية وتذويب الطبقات ؟!

— ولم لا ؟! ألم أكن فى طليعة الطبقة التى أذابتها الثورة ؟!

— وكيف سمحوا لك أيها الذائب فى دباديب الثورة .. بالانضمام إلى الاتحاد

الاشتراكى برغم ماضيك الرأسمالى والإقطاعى ؟!

لاحظ سعد نبرة السخرية فى تساؤل مجاهد فأجابه بسخرية أشد :

— ألم تعترف أنت الآن بأننى ذائب فى دباديب الثورة ؟!

تجهم وجه مجاهد بعض الشىء وغلبت المرارة على ألفاظه :

— لم أكن أهزل ؟!

— كان الأمر فى منتهى البساطة .. حصلت على خطاب تزكية من مدير الجمرك .. كما أن أسرتى لم يكن لها ماض سياسى و لم تقع فى صدام مع الثورة .. فكل ما فعلته بنا رضخنا له كقدر لاراد له !!

— تصور أن تنضم أنت إلى الاتحاد الاشتراكى فى حين أننى لم أنضم لإيمانى بأنه يزيف الاشتراكية الحقة !

خفض من همسه لدرجة أن سعدا سمع الكلمات الأخيرة بصعوبة فى السكون الذى أطبق على المكان برغم هبات الرياح المحملة بالرمال خارج الأسوار . وابتسم سعد لخوف مجاهد من أن يصل صوته للجدران ذات الآذان وهو يستأنف حديثه :

— وعندما تكدس الوارد من تجار الشنط عندى فى بدروم فيلتنا العريقة .. اشتريت محلاً كبيرا فى شارع الشواربى وأسسته بأغلى وأفخر الديكورات .. وعرضت فيه المخزون فإذا باللاهثين وراء المستورد يقبلون على المحل من كل حدب وصوب .. برغم أن بعض المعروض كان مستعملا فى بلاده .. وفى ظرف ثلاث سنوات فقط تسلقت سلم المجتمع مرة أخرى حتى أوشكت على بلوغ درجاته النهائية .. وعدت إلى التردد على نادى الجزيرة منتفخ الأوداج بعد أن كنت قد هجرته كسير النفس لكن يبدو أن القدر كان يخفى لى فى جعبته كعادته مزيدا من المفاجآت .. إذ وجدت مجدى الطوبجى وقد أصبح من نجوم النادى .. كان فى السنة النهائية فى كلية الحقوق التى كان يتباهى بها دائما على أنها كلية أولاد الباشوات والنابهين الذين ينتظرهم المستقبل السياسى والدبلوماسى المشرق .

نظر مجاهد إلى الساعة القديمة المعلقة على الجدار ذى البياض المتساقط بفعل الرطوبة والقدم ثم تساءل فى دهشة :

— لماذا تركونا هذه الليلة لنثرثر ونسهر كما نشاء ؟!

نظر سعد حوله فى القاعة الفسيحة فوجد الزملاء قد انفضوا ، كل إلى غرفته ليقتل الملل بالنوم أو التناوم ، فعلق بقوله :

ـــ أعتقد أن سهر اثنين من المجموعة كلها لن يخل بنظام المعتقل .. على كل حال إذا كنت قد سئمت منى .. فسأتوقف وأتركك لتستريح ..

تظاهر سعد بالشروع فى النهوض وعندما لم يمنعه مجاهد ، وقف بالفعل فأمسك مجاهد بيده :

ـــ أنت يا سعد لا تعرف الشيء الكثير عن المعتقلات .. أما أنا فهذه ثالث مرة أدخل فيها المعتقل .. أول مرة بعد إعدام خميس والبكرى فى الأحداث العمالية فى كفر الدوار بعد قيام الثورة بشهور .. ثم أفرج عنى فى ديسمبر ١٩٥٦ بعد الموقف السوفييتى المساند لمصر فى العدوان الثلاثى والإنذار الشهير بضرب الأساطيل البريطانية والفرنسية .. ثم أعيد اعتقالى سنة ١٩٥٩ بعد الوقيعة التى حصلت بين عبد الناصر والشيوعيين السوريين بقيادة خالد بكداش الذى هرب إلى بلغاريا أيام الوحدة بين مصر وسوريا .. ثم أفرج عنى فى أكتوبر ١٩٦١ بعد وقوع الانفصال بين مصر وسوريا ومحاولة عبد الناصر التصالح مع مختلف القوى السياسية .. وكنت فى تلك المرة محظوظا لأن كبار الشيوعيين لم يفرج عنهم إلا فى إبريل ١٩٦٣ قبل زيارة خروشوف للقاهرة والسد العالى .. أما هذه المرة فلا أعرف سبب اعتقالى لأن العلاقات المصرية السوفيتية على أحسن ما يرام !!

علق سعد دون أن يجلس :

ـــ لعلها وشاية مثل تلك التى ألقت بى هنا ؟!

وقف مجاهد وهو يجاهد ألا يتثاءب :

ـــ فى هذا الزمن .. كل شيء جائز .. لم يعد الإنسان قادرا على التأكد من أى شيء !!

ربت سعد على كتفه :

— تصبح على خير .

— وأنت من أهله .

وسار كل منهما فى طريقه إلى غرفته حيث الأرق والقلق والوحدة والعزلة واستجداء النوم كى يظلل الجميع بأجنحته الرحيمة الشفيفة ، واستعطاف الأمل كى يستمر فى قلوبهم حتى يوم يخرجون فيه لاستنشاق نسمات الحرية الضائعة .

٢

رفرف السكون على القاعة الفسيحة المضيئة بمصابيحها الذابلة طوال الليل ، في حين غرقت بعض الحجرات في الظلام وتمسك البعض الآخر بالضوء حبا في القراءة أو خوفا من ظلمة النفس أو تجنبا لوميض البرق خارج النوافذ ، والذى يضاعف من الوحشة التى التحف بها المكان من أم رأسه إلى أخمص قدميه لعلها تطرد البرد الذى يسرى بقشعريرة كهربية في أوصاله المترامية .

كانت حجرة سعد العنترى ضيقة ، خانقة ، تمزج رائحة الرطوبة بالعفن ، وقد اهترأ طلاؤها الجيرى فتساقط من على جدرانها تاركا أشكالا سيريالية كان يحلو لسعد أن يتأملها في رقدته على ظهره في فراشه البارد المشبع بالرطوبة . وكثيرا ما كان يتساءل أو يسائل نفسه : كيف تسرى هذه الرطوبة في كل الأشياء برغم وجودهم وسط صحراء شاسعة مترامية الأطراف ؟! أم أن هذه الرطوبة تسرى أولا في النفوس ثم تسقط وتنعكس على الموجودات ؟! أم أن قوانين الجغرافيا لا تنطبق على هذا المكان الذى ابتعد بكل من فيه عن نطاق الحياة نفسها ؟! بدليل أن وميض البرق وقصف الرعد لا يعقبهما سقوط المطر !!

تخلص سعد من حلته ومعطفه الصوفي ليرتدى البيجاما وعليها الروب الذى اعتاد النوم فيه منذ بداية صقيع هذا الشتاء إذ أن البطانيتين لم تنجحا في إثارة الدفء في الفراش ، ومع ذلك اندس تحتها بعد أن أطفأ المصباح الهزيل حتى لا يشتت تيار الذكريات والخواطر ، الأحلام والكوابيس ، والآمال والآلام الذى يحلو لعقله أن يسبح بين أمواجها التى تطفو به بعيدا عن أسوار المعتقل التى تطبق على أنفاسه . لقد أخبره قائد المعتقل بأن التصريح بزيارة زوجته وأبيه له قد وصل إلى مكتبه صباح ذلك اليوم ، وأن الزيارة ستتم بعد يومين .

سرى خبر الزيارة في عروق سعد بدفقات البشر والتفاؤل . فهذه الزيارة هى

صلته الوحيدة بأسرته وبالعالم الخارجى الذى تتوق إليه نفسه فى صحوه ومنامه . وعلى الرغم من أن نافذته تطل على الفناء الفسيح الذى يقع وسط المعتقل وتحيط به العنابر والحجرات تحت البواكى الخشبية المتآكلة ، فإن بصره عبر نافذته لا يستطيع أن يصل إلى الأسوار الشائكة التى تبدأ خلفها أو بعدها أرض الحرية . والآن مع الظلمة المطبقة على الفناء والنافذة برغم البرق الذى يمزق أستارها بين حين وآخر فإنه لا يجد متنفسا إلا فى شريط الذكريات الحميمة ، والآمال المضيئة ، والتأملات المحمومة حول احتمالات المجهول .

انطلق خياله إلى نادى الجزيرة حيث تألق مجدى الطوبجى وسط الحوريات الفاتنات اللاتى تكالبن عليه ، ليس فقط لوسامته بل للمستقبل الباهر الذى ينتظره ، نظرا لسلطة أبيه الذى أصبح اليد اليمنى للمشير عبد الحكيم عامر ، الحاكم الفعلى لمصر والذى يدير دفتها بيسراه فى حين يمسك بزمام الجيش بيمناه ، أما جمال عبد الناصر فيعتمد فقط على الارتباط العاطفى بينه وبين الشعب . ولولا هذا الارتباط لما تأخر عبد الحكيم عامر لحظة واحدة عن الإطاحة به والاستيلاء الصريح المباشر على السلطة . وكثيرا ما فكر سعد وخطط بغية الوصول إلى المشير عامر بعد أن بلغت ثقته بنفسه ذروتها ، لكنه وجد أن كل الطرق المؤدية إليه لا بد أن تمر بحسين الطوبجى ولذلك سرعان ما كان يبتعد حتى لا يلفت أنظاره إليه مرة أخرى .

لكن يبدو أن طريقه فى الحياة لا بد أن تمر بحسين الطوبجى أو ابنه مجدى . فعندما أصبح سعد رجل أعمال بارزا ، قرر أن يعود إلى نادى الجزيرة الذى كان قد هجره مع أسرته منذ ضربة يوليو ١٩٦١ إنقاذا لماء الوجه بعد أن شهد هذا النادى أيام عزهم ومجدهم . عاد سعد ليعلن بحضوره أن المعدن الأصيل تزداد قيمته كلما انصهر فى نار التجربة . وهناك قابل صديقة الصبا الجميل شويكار تاج الدين التى بهرت بجمالها الساحر كل الألباب ، لكنها لم تعر التفاتا إلى أى شاب من شباب النادى الذين كانوا فى معظمهم من أبناء الطبقة الجديدة التى ارتفعت مع الثورة وأسرعت لمطاردة الطبقة الأرستقراطية العريقة فى كل مواقعها ، وكان نادى الجزيرة فى مقدمة هذه المواقع . وقد أصاب أسرة شويكار ضربات أقسى وأعنف من تلك التى

أصابت أسرة العنترى نظرا لثرائها الشاسع . لكن شويكار كانت أسعد حظا من سعد ، إذ أنها التحقت بكلية الآداب قسم اللغة الإنجليزية إكمالا لدراستها الثانوية فى المدرسة الإنجليزية ، وسارت على خير ما يرام حتى بلغت السنة النهائية عندما التقى بها كى يقص عليها رحلته المريرة التى استعاد فى نهايتها الثروة الضائعة إلى حد كبير لكنه لم يستعد العلم الذى فاته قطاره برغم أنفه . وكان سعد يظن أنها سترفض صداقة من عجز عن الحصول على الثانوية العامة ، لكن يبدو أن أواصر الطبقة الواحدة كانت أقوى من أى اعتبار آخر . بل إن أعضاء النادى القدامى باركوا الصداقة الجديدة فى تشف غريب لم يدرك سعد كنهه . وعلق أحدهم بأنها إعادة المياه إلى مجاريها الطبيعية وأنهما يشتركان حتى فى الملامح : البشرة التركية البيضاء المشربة بالحمرة ، والعيون الأوربية التى تمزج فى سعتها الزرقة بالخضرة ، والأنف الشامخ ، باستثناء لون الشعر . فشعر سعد يميل إلى الصفرة الداكنة فى حين يتدفق شعر شويكار بلمعان بنى فاتح .

بعد أسبوعين من الإبحار فوق دوامات نهر النشوة المتدفقة ظهر مجدى الطوبجى فى الأفق وخلفه صلاح خلف . لم يصدق سعد عينيه !! فإذا كان مجدى قادرا على التردد على النادى بحكم أنه ابن الطبقة الجديدة الصاعدة فكيف يأتى صلاح معه ؟! ولماذا ؟! وسرعان ما قصت شويكار على سعد قصتها مع مجدى قبل عودة سعد إلى النادى . فقد كان مجدى أحد أبناء الطبقة الجديدة الذين وقعوا أسرى لسحر شويكار ، وشرع فى مطاردتها كما لو كان يملك الحق فى ذلك ، تاركا فى أعقابه كل البنات المتهافتات عليه . كان يؤمن فى قرارة نفسه أن من حقه الحصول على كل شىء يرغبه بحكم أنه ابن أحد الضباط الأحرار الذين حملوا رءوسهم على أكفهم يوم الثانى والعشرين من يوليو ، وأنقذوا مصر من السراى والإقطاع والاستعمار . فبأى حق تحاول شويكار أن تتعالى عليه وتتهرب منه ؟! لكن شويكار ظلت صامدة لا تلين مهما كانت العواقب . واعتبرها مجدى نوعا من التحدى الذى لا بد أن يقهره بطريقة أو بأخرى .. وجند صلاح خلف لرصد سكناتها وحركاتها . فلم يكن صلاح قادرا على أن يخالفه أو يرفض له أى طلب . فأبوه لا يزال يعمل سائقا خاصا

لحسين الطوبجى الذى تنازل بالتوصية عليه حتى التحق بكلية البوليس التى تفوق فيها وهو الآن فى السنة النهائية. أى أن كل شىء مرتهن برضا آل الطوبجى عليه، وكان على استعداد لنوال هذا الرضا بأى ثمن !

دار شريط الذكريات أمام مخيلة سعد فى رقاده على ظهره فى الفراش البارد ، وتتابعت المشاهد على شاشة الماضى فرأى نفسه وتابعها كأنها شخص آخر . فمن يفقد حريته يصبح شخصا آخر يوشك على الإصابة بانفصام الشخصية ، بل إن حياة الحرية التى عاشها فى الماضى أو التى يأمل أن يحياها فى المستقبل تبدو بعيدة ونائية كأنها وقعت أو يمكن أن تقع على كوكب آخر . رأى سعد نفسه إلى جوار شويكار وهو يقابل مجدى الطوبجى وصلاح خلف فى لحظة قدرية دون أن يعرف أن مجدى كان أحد اللاهثين فى أذيال شويكار . فغر مجدى فاه وهو يرمق سعدا من أم رأسه إلى أخمص قدميه متأملا الثراء الأنيق الذى يطفح على كل ما يرتديه ، وعيناه تقولان إن المحنة لم تقض عليه ، بل يبدو أنها أكسبته مناعة وثقة وقدرة على التعامل مع الآخرين ، معاملة الند للند ، مهما كانوا من محاسيب السلطة ، فى حين قال لسان مجدى فى تعال واضح وهو يرمق شويكار بارتعاشة عصبية أصابت الجفن الأسفل لعينه اليسرى :

— كيف حالك ؟! لم نلتق منذ زمن بعيد ؟!

أجابه سعد وعيناه معلقتان بنظرات صلاح الزائغة الحائرة :

— لم أرك منذ اليوم الذى طردت فيه من المدرسة !

جثم صمت ثقيل على أنفاسهم ، حاولت شويكار التخلص منه بتساؤل جاء عفو الخاطر :

— لم أكن أعرف أنكما صديقان ؟!

لكن تساؤل مجدى لم يكن عفو الخاطر :

— و لم أكن أعرف أنا أيضا أنكما صديقان ؟!

استشعر سعد فى كلماته رنة السخرية فنضحت ألفاظه بالتحدى :

— صداقتنا صداقة منذ الطفولة والصبا وليست صداقة عابرة من صداقات

النادى !

اندلعت شرارة الحنق من عينى مجدى اللتين تنقلتا بين سعد وصلاح الصامت الحائر :

— ولماذا لم ترحب بصديق عمرك الذى عرفته منذ الطفولة والصبا ؟!

حملق سعد فى صلاح الذى تمنى أن تنشق الأرض لتبتلعه :

— ولماذا لم يرحب هو بابن الأسرة التى رعته طفلا وصبيا وشابا ؟!

أرخى صلاح عينيه كاتما كلمات كان على وشك التفوه بها حين واصل مجدى هجومه المتفجر بالكمد والحنق :

— ألا زلت تمن على الناس ؟! ثلاث عشرة سنة من الثورة لم تنجح فى تغييركم !!

تحسس سعد المزالق التى يقوده إليها مجدى ومع ذلك لم يستطع أن يمنع نفسه من كبت البركان القديم الذى حاول إخماده منذ خمس سنوات :

— لقد نجحت الثورة فى تغيير كل شىء على أرض مصر .. حتى البشر تغيروا !!

— ماذا تقصد ؟! هل تسخر من الثورة ؟!

استعاد سعد كل الدهاء الذى تعلمه فى السوق مقسما ألا ينال منه خصمه هذه المرة :

— أنت الذى ذكرت كلمة السخرية !! أما أنا فقلت على رءوس الأشهاد أن الثورة نجحت فى تغيير وجه مصر لأننى سمعتك تؤكد أن ثلاث عشرة سنة من الثورة لم تنجح فى تغيير أناس ضعاف من أمثالنا .. وبذلك تجد الثورة ظهرها عرضة للطعن من أحد أبنائها !

نظر مجدى حوله فى توجس وخيفة لعل هناك من يسمع كلمات سعد الواثقة الرنانة ! لم يكن يتصور مثل هذه الضربات المحكمة القوية من سعد الذى كان يرتعش رعبا كلما واجهه . لاحظ نظرات التشفى تمزج الخضرة بالزرقة فى عينى شويكار التى اشرأبت خصلاتها البنية الفاتحة اللامعة على شكل ذيل حصان عربى أصيل فى حين شغل صلاح نفسه بمراقبة بعض الحمامات الوديعة القابعة على أغصان شجرة كثيفة بعيدا عن قطة بيضاء متربصة بها عند جذورها الضاربة فى أرض

النادى . حك مجدى شاربه الدقيق بأطراف أصابعه وتحفز لينطق كلمات منمقة متماسكة :

ـــ أرجو أن يكون كلامك هذا بناء على إيمان حقيقى بالثورة وليس مجرد مداهنة أو مجاراة .. فماضى أسرتك يؤكد أنكم كنتم وستظلون أعداءها !!

ـــ وليس من حق أحد أن يلقى التهم جزافا دون أى دليل أو سند !!

ـــ المستقبل كفيل بتعرية كل النوايا !

ـــ المستقبل بيد الله وحده !

كاد مجدى أن يتفجر حنقا وكمدا لكنه قرر أن يواصل زحفه حتى يدرك السر فى قوة سعد الطارئة الغامضة فالتفت إلى شويكار محاولا رسم ابتسامة على وجهه جاهد ألا تكون باهتة :

ـــ أريدك فى كلمة على انفراد !

لكن ضربة شويكار كانت أشد إحكاما وقسوة من ضربة سعد وهى تكاد تلتصق به :

ـــ تفضل .. قل ما تشاء .. ليس بيننا أسرار !!

طفحت حمرة الحرج على وجه مجدى الذى نظر إلى صلاح كأنه يستغيث به لكنه لم يسعفه بل تحاشى نظراته متشبثا بصمت أبى الهول .

تمتم مجدى وكأنه يخاطب نفسه ولكن بصوت واضح النبرات :

ـــ أدركت الآن أن تحالف أبناء الطبقة الواحدة أقوى مما كنا نتصور .. وأن مهمة تذويب الطبقات ستكون من أصعب المهام على عاتق الثورة .. لكنها عقبة لا بد أن تزول بطريقة أو بأخرى !!

ثم استدار ليغادر الموقع وفى أذياله حث صلاح خطاه حين كانت الشمس تميل إلى المغيب وقد اكتسبت حمرة برتقالية .

كم اجتر سعد هذا المشهد ليستعيد إحساس النصر على عدوه الذى حفر وجوده داخله منذ انتهاء حياته الدراسية قبل الأوان ! تقلب فى فراشه البارد مستمسكا بكلمات شويكار الساخنة المتألقة : تفضل .. قل ما تشاء .. ليس بيننا أسرار !

ثم سرت النشوة التى كانت تدغدغه من حين لآخر كلما تذكر قرب لقائه بها بعد طول غياب مضن . لقد عاشت معه أياما رائعة . منحت حياته معناها وهدفها ومذاقها . ارتبطت به ارتباط العمر وقررت أن تتزوجه دون أدنى تردد بمجرد تخرجها فى قسم اللغة الإنجليزية بعد شهور معدودة . وطاش صواب مجدى الذى اعتقد أن ارتباطهما الحميم لم يكن حبا عميقا ، غرقا بين أمواجه ، بقدر ما كان نكاية فيه وظل يعلل نفسه بأمنية استحالة الزواج بينهما ، إذ كيف لهذه الأرستقراطية الفاتنة الموفقة فى دراستها أن تتزوج من هذا الفاشل الذى لا يبشر مستقبله بأى خير ؟! فهى ليست من الغباء بحيث تربط مصيرها بهذه الطبقة المندثرة برغم انتمائها إليها ! أما هو فالمستقبل كله له ! فسوف يتخرج فى كلية الحقوق بعد شهور ، وأبواب السلك الدبلوماسى مفتوحة له ومرحبة به بعد أن سبقه إليها بعض الضباط الأحرار وأبناؤهم العاشقون للسفر والترحال والتمتع بمشاهدة بلاد الله كما كان آباؤها وأجدادها يفعلون فى العهد البائد ! ولعل احترامه لها ازداد عندما رفضت الدخول معه فى مغامرة غرامية إذ أن الفكرة التقليدية عن هذه الطبقة كانت توحى إليه دائما بسهولتها بل ورخصها وانحلالها . لكن لماذا رفضت عرض الزواج أيضا ؟! هل كانت تتمنع بهدف رد الذل الذى أذاقته الثورة لطبقتها ؟! أم أنها تريد أن تؤكد له صعوبة منالها ؟! أما هو فلم يتعود أن يطلب شيئا دون أن يناله وسيظل معها حتى نهاية المطاف خاصة بعد أن برز سعد العنترى من تحت الأرض ، دونا عن البشر أجمعين ،لكى يكون غريمه فى غرام شويكار !

وكانت شويكار من الحكمة بحيث كفت سعدا حرج التردد على النادى ومواجهة الخصم المتربص به . واكتفت بصحبته فى سيارته إلى بعض المناطق الخلوية مثل الهرم وحلوان ومصر الجديدة والقناطر الخيرية ، وأحيانا أخرى إلى بعض المسارح ودور السينما حتى حصلت على الليسانس بتفوق وتم الزواج فى حفل عائلى صغير ضم أعضاء الأسرتين المرحبتين بالرباط السعيد . وكان سعد يتمنى أن يصطحب شويكار فى رحلة شهر العسل إلى أوروبا لكن حرصه أوحى إليه بأن محاولة السفر إلى الخارج ربما شدت الأنظار إليه ، خاصة وأن بابه مغلق لغير محاسيب

السلطة باستثناء حالات العلاج والبعثات الدراسية . ولذلك قضى معظم الصيف فى فندق فلسطين بالإسكندرية ثم شهر عسل آخر فى شتاء الأقصر وأسوان وقد أدرك أن الله قد أرسل إليه شويكار لتعوضه عن كل ما فاته ، إذ تحول ارتباطه الشاعرى بها إلى حب كبير ودنيا بأسرها غرق بين أمواج حلاوتها حتى أذنيه .

لكن مجدى الطوبجى لم يرض بالهزيمة ومن سعد على وجه الخصوص . فبعد تخرجه فى كلية الحقوق التحق بالعمل بوزارة الخارجية التى فتحت له أحضانها ، لكنه لم يعمل بإحدى سفاراتنا بالخارج كما كان ينوى ، بل آثر أن يعمل بديوان الوزارة لأنه لم يستطع أن يتخلص من شىء كان فى نفسه من شويكار وسعد . وشرع فى تحرياته الأخطبوطية بهدف الوصول إلينا من أى طريق لدرجة أنه ذهب للقاء أبى بحجة السؤال عنى لأننى أوحشته كثيرا وهو لا يزال يشعر بذنب عميق لما سببه لى من تعويق حياتى الدراسية ! لكن أبى كان من الدهاء بحيث أنكر أية معرفة بعملى أو بحياتى الخاصة متظاهرا بأن سوء فهم وقع بيننا وأدى إلى قطيعة تامة لم يعرف بعدها طريقى .

تقلب سعد فى فراشه لينام على جانبه الأيمن ، مرتاحا لدفء الفراش المتصاعد من دفء جسده ، وسعيدا بحالة التوحد التى يصل إليها كلما توغل فى ذكرياته وخواطره بحيث لا يتابع نفسه كأنه شخص آخر ، وإنما يتابع الآخرين من منطلق نفسه ! ويتحول ضمير الغائب إلى ضميرى المتكلم والمخاطب !

كان صلاح خلف قد تخرج بدوره فى كلية البوليس بتفوق ، وسعى مجدى لدى أبيه كى يعينه فى أحد أقسام بوليس القاهرة . وبالفعل تم تعيينه فى قسم بوليس الجزيرة . وكانت سعادة صلاح لا توصف عندما وجد نفسه ضابطا يحل مشكلات أبناء الطبقة الراقية ويفصل فيما بينهم بعد أن كان مجرد ابن لسائق يعمل لديهم . كذلك كان مجدى الطوبجى سعيدا لأن صلاح خلف سيكون بالنسبة له ضابط بوليس قطاع خاص ، ولا بد أنه سيستخدمه فى البطش بى بعد زواجى من شويكار . خاصة بعد عدم ترحيب حسين الطوبجى باقتراح ابنه بجمع التحريات عنى ، لأن جناح المشير عبد الحكيم عامر الذى ينتمى إليه كان يرى ضرورة القضاء

على بقايا الإقطاع والرأسمالية بصفة عامة بعد حادثه كمشيش فى الصيف الماضى ، وأن المسألة لم تعد مجرد خصومات شخصية ، وهو ما أدى إلى تكوين لجنة الإقطاع برياسة عبد الحكيم عامر الذى آلت إليه مقاليد الأمور الفعلية فى حين أوشك جمال عبد الناصر على أن يتحول إلى رئيس فخرى للجمهورية .

فجأة سرت فى شارع الشوار بى تحركات مشبوهة وتحريات من أناس يتظاهرون بأنهم زبائن جاءوا للشراء والاستفسار عن بضائع غير موجودة للبيع أصلا . وحكى لى صاحب المحل المجاور أن شابا أسمر ، ذا شعر أكرت وشارب غليظ ، قد تردد عليه مستفسرا عنى ، فنصحه جارى بالتوجه إلى محلى وألقاء الأسئلة نفسها علىّ بمجرد عودتى من أسوان التى كنت فيها لقضاء شهر عسل مع شويكار . لكنه لم يأت إلىّ ، ولم أعرف أنا بدورى لماذا تذكرت صلاح خلف ؟! كانت ملامح الشاب الغامض التى وصفها لى جارى تنطبق عليه تماما . ونظرا لأن جميع تجار الشوار بى استشعروا ضربة قادمة ، لكنهم لم يعرفوا متى وكيف ، فإننى بدورى تحريت عن صلاح خلف فوجدته قد انتقل إلى مباحث قسم قصر النيل الذى نتبعه بالفعل . عندئذ أيقنت أن شكوكى كانت فى محلها ، وقررت أن أزوره فليس هناك ما يمنع مثل هذه الزيارة بين أصدقاء الصبا والشباب .

فى المرة الأولى أخبرنى الصول بأن حضرة الضابط مشغول وعلىّ أن أزوره فى وقت آخر ، وعندما سألته : متى ؟! أجابنى بأنه لا يعرف إذ ليست لديه أية تعليمات أخرى ! تأكدت أنه يتهرب منى ولعنت اليوم الذى رفض فيه ابن سائق أبى الخاص لقائى بحجة المشغولية والأهمية البالغة التى هبطت عليه من السماء فجأة فى غفلة من الزمن ! ومع ذلك قررت أن أقابله حتى لو قضيت الأيام والليالى على باب القسم خاصة بعد أن أيقن تجار الشوار بى أن ضربة وشيكة على وشك أن تنزل بهم بعد أن قبض على اثنين منهم للتحقيق معهما فى تهريب واتجار فى مواد غير مصرح بها . ويبدو أن صلاح خلف قد شعر بالحرج أخيرا من جراء مطاردتى له وتهربه منى فقرر حسم الأمر ومقابلتى فى النهاية . كانت أول مرة أنفرد فيها به بعد أن فرقتنا

الأيام منذ اليوم الذى طردت فيه من المدرسة .

انتفض واقفا ليشد على يدى بمنتهى التقدير والاحترام وهو يصر على تجنب نظراتى المبتسمة فى ضيق وحرج . جلست فجلس قائلا :

ــ آسف لم أستطع لقاءك فى المرات السابقة .. فهذه الأيام غير عادية فى ازدحامها بالمهام العاجلة والطارئة !!

ــ كان الله فى العون .. وأنا أيضا لن أثقل عليك ولن أضيع من وقتك الثمين كثيرا .. كل ما فى الأمر أن هناك تحريات وتحركات تجرى فى شارع الشواربى .. أثارت مخاوف عديدة .. وقد قبض بالفعل على اثنين منا .. فقررت أن أستشيرك فأنت خير من ينصحنا !

تجنب نظراتى متظاهرا بالكتابة فى بعض الأوراق أمامه قائلا :

ــ لعلك قرأت اللافتة المعلقة فوق مدخل القسم ؟!

ــ قرأتها عدة مرات فى كل مرة ترددت فيها على القسم محاولا مقابلتك !!

ــ هذه هى مهمتنا الحقيقية : الشرطة فى خدمة الشعب !

لم أحتمل مراوغته منذ البداية :

ــ هذا أمر مفروغ منه .. لكننى جئت إليك فى استشارة محددة !!

ــ وأنا تحت أمرك !

عاد للمراوغة لكننى تمسكت بالصبر فلم أصارحه بأنه ذهب إلى الشواربى للتحرى عنى شخصيا ، وسألته بحسم واضح :

ــ لماذا يصر مجدى الطوبجى على مطاردتى ؟! هل وصلت به الرغبة فى الانتقام إلى البطش بتجار الشواربى كلهم حتى أبدو أنا مجرد واحد منهم لمجرد أننى تزوجت من شويكار ؟!

عندئذ واجهنى ببريق عينيه الأسود النافذ المتسائل كسهم مارق :

ــ نحن فى خدمة الشعب .. وليس فى خدمة الأغراض الشخصية !

ــ ونحن أيضا فى خدمة الشعب .. فلماذا التحريات والقبض علينا ؟!

ــ غير مسموح لى أن أصارحك بأسرار عملى .. لكن طالما أنك لا تفعل ما

يخالف القانون فلا تخف من أية تحريات أو تحقيقات !!

أصابنى فى مقتل! فتجارة الشنطة المسموح بها تجاوزا يمكن فى لحظة واحدة أن تتحول إلى جريمة نكراء فى حق المجتمع . والقانون فى هذه الأيام له ألف تفسير ! ولن يكون التفسير فى صالحى إلا إذا كان المفسر والمنفذ صديقين حميمين . وكم ندمت فى تلك اللحظات على استقالتى من جمرك السبتية وتفرغى للأعمال الحرة !! كان مدير الجمرك من عناصر السلطة المؤثرة ومن خلاله تعرفت على عناصر أخرى وقد آن الأوان أن أعيد هذه الصلات لعلها تحمينا كلنا من الضربة القادمة. استيقظت من تأملاتى الخاطفة كبرق هذه الليلة على صوت صلاح وهو ينظر إلى ساعة يده فى قلق وضيق :

ــ ولكى أؤكد لك أن أحدا لا يطاردك ولا يرغب فى الانتقام منك أو الحصول على أية غنيمة منك .. فقد خطب مجدى الطوبجى .. ابنة مدير المخابرات العامة .. وتزوجت أنا من ابنة عمتى لواحظ التى تعمل بتدريس الأطفال .. أى أن كلا منا تزوج من طبقته مثلك تماما .. فلا تخف على طبقتك .. فنحن لا نسعى إلى تذويبها كما تظن ولا نتمسح بها سواء بالقول أو الفعل !

قالها وكأنه يستريح من شحنة ناء بها زمنا طويلا ! لم أجد ما أقوله فنهضت لأشد على يده فى فتور سرى فى يدى ولسانى ينطق بما يشبه الهمس :

ــ على كل حال .. شكرا !

ــ العفو .

واستدرت لأغادر الغرفة وأنطلق للاتصال بمدير الجمرك وكبار القوم الذين عرفتهم من خلاله . لكن بمجرد الاتصال التليفونى شنفوا آذانى بعزف قطعة موسيقية واحدة كأنهم اتفقوا عليها مسبقا : تهرب من اللقاء الشخصى ، وإجابات دبلوماسية رقيقة لا تعنى شيئا ، وإنكار الوجود بالمنزل ، واعتذار بضيق الوقت وكثرة المشاغل !

عاودنى الذعر القديم . ذعر الحيوان الجريح على وشك الوقوع فى الشرك المنصوب له والمتربص به ! أنبأتنى نفسى بكل الأفكار والخواطر الحالكة السواد

مثل ليلة الرعد هذه !

سرت قشعريرة فى جسد سعد المشدود فى فراشه الذى لم يبلغ الدفء بعد . ودوى الرعد فى أعقاب برق خاطف ، وزأرت الريح خارج النافذة المرتعشة بحفيف الصحراء الموحشة وقد امتزج بأزير المولد الكهربى الذى يمد المعتقل بالضوء الذابل . تشبث سعد بذكريات الماضى الملتهبة كى تنتشله من قبضة الحاضر الجاثم على صدره كجبل الجليد فى محيط متلاطم الأمواج ، حالك الظلمة .

فى صباح يوم اثنين مشرق بشمس الربيع فوجىء تجار الشوارلى بقوات الأمن تحاصرهم فى هجمة عاصفة تم فيها القبض على معظمهم وإغلاق محالهم بالشمع الأحمر ، وتوجيه تهم التهريب والاتجار فى الممنوعات ، والتهرب من الضرائب ، وتدمير الاقتصاد القومى ، والتعامل مع العدو إذ أنهم أثبتوا فى المحاضر التى كتبوها أن كل السلع المضبوطة ، التى لم تعرف البلاد التى أنتجتها ، هى من صنع إسرائيل . وكان صلاح خلف أحد قادة الهجوم ، وكان محلى ضمن المحال التى وقعت فى نطاق تفتيشه وقيامه بجرد كل كبيرة وصغيرة ، متجنبا النظر إلى وجهى ومدعيا التفانى فى القيام بواجبه بصرف النظر عن أية اعتبارات شخصية أو خواطر قديمة ! و لم يكتف بتشميع المحل بالشمع الأحمر بل قام رجال الأمن بتنفيذ أمره وألقوا القبض علىّ ، ثم قذفوا بى إلى داخل عربة البوليس وكأننى مجرم عتيد يهدد الأمن القومى بالانهيار ! وانطلقت بى العربة وقد التصق بى من اليمين واليسار حارسان ، وأنا لا أصدق ما يجرى ، ولا أعى سوى عواء بوق السيارة المنطلقة ، والشمس تظهر وتغيب من النافذة الضيقة للصندوق الأسود الذى احتوانى ، حتى بلغت السيارة أحد أقسام البوليس حيث ألقوا بى فى التخشيبة التى سبقنى إليها اثنان من زملائى فى الشوارلى . وعندما طالبت الاتصال بزوجتى وأبى ومحامى والأسرة ، نظر إلىّ الضابط نظرات ناضحة بالشفقة المرة وأغلق الباب خلفه دون أن يرد على توسلاتى وتضرعاتى الملحة .

فى عتمة التخشيبة ارتسمت فى عينى نظرات مجدى الطوبجى الشامتة وابتسامات صلاح خلف الساخرة ، فسخرت بدورى من القدر الذى يصر دائما

على جمعنا فى هذه الدائرة الجهنمية التى لا فكاك لنا منها . الأمر العجيب أننى لم أشعر بالخوف الذى اجتاحنى يوم طردت من المدرسة . كان كل ما يقلقنى وقع الخبر على أبى وزوجتى برغم أنه لم يكن لنا حديث سواه فى الأيام الأخيرة . لكن توقع الخبر شيء ووقوعه شيء مختلف تماما . صحيح أنه لم يتبق لى سوى الاستسلام الكامل للقدر بعد أن جردونى من كل الأسلحة التى يمكن أن أدافع بها عن نفسى ، لكن ما العمل وهذا القلب الذى أودعه الله فى الإنسان لا يزال يصر على الخفقان بشتى المشاعر المتناقضة ؟! وهل ستنقضى الغمة بسرعة أم أن أمرها سيطول ؟! وكيف يحتمل أبى الذى أثقلته المحن والأمراض هذه الضربة الجديدة ؟! وماذا عن زوجتى التى لا تزال فى ريعان شبابها وعنفوان جمالها ؟! هل ستحتمل غياب زوجها سواء فى مكان معلوم أو غير معلوم ؟! وماذا يمكن أن تفعل فى مواجهة الذئاب المتربصين بها وفى مقدمتهم مجدى الطوبجى برغم زواجه من ابنة أحد مراكز القوى ؟!

قضيت الليلة فى التخشيبة وفى صباح اليوم التالى تم ترحيلى فى سيارة مغلقة إلى هذا المعتقل الذى لا أعرف موقعه على خريطة مصر ! كل ما أدركته أننى قضيت فى السيارة المرعبة ما يقرب من عشرين ساعة حتى بلغت هذا المكان فى فجر الأربعاء منذ تسعة شهور بالتمام والكمال.

ومنذ ذلك الحين ذاق أبى وزوجتى الأمرين حتى علما باعتقالى ، و لم يسمح لهما بزيارتى إلا منذ ثلاثة أشهر فقط حين أحضرا لى ما أحتاجه من ملابس وأدوية . وكان لقاءً مقيدا إذ أنه وقع فى غرفة مكتب قائد المعتقل وفى حضوره ، فكان الحوار متحفظا وفى أضيق الحدود برغم دماثة القائد الذى لم يكن يخفى تعاطفه مع المعتقلين ، وكان سلوكه فى كثير من المواقف يدل على أنه يعتبر نفسه واحدا منهم ، بل إنه صرح ذات مرة فى لحظة صفاء أن المعتقل فى حاجة إلى قائد شاب يحتمل هذه الوحشة والعزلة ولا يحمل هم زوجة مريضة تعالج بعيدا عنه . لكنه لم يكن يسمح لنفسه بالتباسط معنا وإزالة الحواجز الرسمية بيننا وبينه لدرجة أنه زجر مجاهد عطية ذات مرة عندما داعبه بقوله إن الجميع هنا — دون استثناء — لا يعرفون متى يتم

الإفراج عنهم !!

لكن ما علمته من أبى وزوجتى فى تلك الزيارة السريعة التى لم تزد على ساعة أن كل تجار الشواربى الذين أغلقت محالهم فى الهجمة إياها قد عادوا إليها مرة أخرى لمزاولة نشاطهم المعتاد بعد الإفراج عنهم بضمانات مالية هزيلة أو بضمان محل إقامتهم . وظللت أنا الوحيد فى اعتقالى الغريب هذا دون محاكمة ، وتحول محلى الضخم الفخم إلى ضريح ينعى من بناه . وتقدم أبى وزوجتى بالتماسات إلى رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء ووزير الداخلية لكن لا حياة لمن تنادى ! بل إن أبى لم يتردد فى استعطاف مجدى الطوبجى كى يطلب من حميه العمل على الإفراج عنى ، لكن غريم عمرى أكد لأبى المسكين من طرف أنفه أن القانون فى عهد الثورة لا يعرف الاستثناءات والخواطر الشخصية .

ولا بد أن أعترف أمام الله ونفسى أن أبى لم يتردد لحظة فى إظهار عدم رضائه عن نوعية التجارة التى كنت أمارسها . فهو رجل اعتاد فى حياته أن تسير الأمور دائما فى قنواتها الشرعية ، ولذلك كانت تجارة الشنطة فى نظره ارتكابا صريحا لجريمة التهريب والتهرب من الضرائب مهما كانت هذه التجارة مستندة إلى حماية بعض كبار القوم المستفيدين منها ، لأنه إذا وقعت الواقعة فلن ينجو منها سوى الكبار الذين سيرحبون بطبيعة الحال بتقديم الصغار قرابين على مذبح الشرف والقانون والوطنية . وها قد تحققت نبوءة أبى الذى كان يلومنى ويعذرنى فى الوقت نفسه بعد أن سدت فى وجهى كل القنوات الشرعية . خاصة وأنه اتضح أننى كنت المقصود شخصيا بالهجوم على شارع الشواربى، بدليل أننى الوحيد الذى لم يفرج عنه حتى الآن فى حين عادت تجارة الشنطة إلى أوج ازدهارها .

لم يعد هناك أدنى شك فى أن مجدى الطوبجى وصلاح خلف كانا وراء هذه الضربة التى وجهت إلىّ لتقضى علىّ والتى لم أفق منها حتى الآن . لكننى مصر على ألا أجعل منها ضربة قاضية كما يريدان . كنت أفهم سر عداء مجدى الطوبجى لى ، لكن ما سر حقد صلاح خلف علىّ ؟! هل هو مجرد أداة فى يد مجدى أم أنه يتحرك بدافع ذاتى واضح فى تصرفاته المشتعلة حماسا ؟! هل الحقد الطبقى يمكن أن يدوس

فى طريقه كل أفضال الماضى التى بذلت دون من ؟!

لم يحتمل أبى كل هذه الأمور المقلوبة رأسا على عقب فأسرع بالذهاب للقاء صلاح خلف فى قسم البوليس الذى يعمل فيه . وهناك علم أنه حصل على ترقية بعد الهجوم على الشواربى وتم نقله إلى حرس مطار القاهرة الدولى . تعجب أبى لهذه التنقلات السريعة التى تجرى لصلاح خلف من حين لآخر ، فهى لا تبدو طبيعية وإنما بفعل فاعل وطبقا لمخطط لم تتضح أبعاده بعد . ولذلك واصل أبى بحثه عن صلاح خلف حيث قابله فى مكتب حديث أنيق بمطار القاهرة .

انتفض صلاح واقفا عندما ذهل لمرأى أبى وهو يدخل مكتبه ، وأمسك بيده وكاد يقبلها لولا أن أبى سحبها من يده فى حسم صائحا بانفعال جارف :

— أستغفر الله يا بنى .. أستغفر الله يا بنى .. فأنت فى منزلة ابنى تماما !

لكن صلاحا اختطف يد أبى وقبلها فى لمح البصر قائلا :

— وأنا اعتدت أن أقبل يد أبى كلما صافحته !

أسرع أبى للجلوس أمام المكتب حتى يدخل إلى الموضوع رأسا ، لكن صلاحا ظل واقفا خلف مكتبه حتى قال أبى :

— تفضل يا بنى .. استرح .. فأنا لن أضيع من وقتك كثيرا !

— هذا شرف كبير يافندم أن تزورنى فى مكتبى .. شرف لم أكن أحلم به !

لاحظ أبى بزته المدنية الأنيقة وآثار النعمة البادية على وجهه :

— شكراً .. شكراً .. لعل هذه أول خدمة أطلبها منك يا صلاح ؟!

— وأنا رهن إشارتك دائما يا فندم !

تمنى أبى أن يكون صلاح عند كلمته :

— طبعا أنت تعلم ما جرى لأخيك سعد .. فعلى حد علمى كنت أنت ضمن القوة التى هاجمت محله .. وطبعا لا بد أن أعذرك .. فلا مهرب لأحد من الواجب !

تلاشى الحرج الطارئ على وجه صلاح الأسمر ليترك مكانه لبعض الارتياح المرتسم على شفتيه وشاربه الغليظ :

ـــ الحمد لله يافندم أن سيادتك أدركت مدى حرجى فى القيام بواجبى !

ـــ كل ما أريد أن أعرفه : الإجابة على بعض الأسئلة المحددة حول مصير ابنى .. ولست خائفا من أن تكون الإجابة ضد صالحه ومستقبله .. المهم أن نخرج من دوامة الحيرة والضياع التى لم تعد صحتى ولا أعصابى ولا سنى تحتملها !

نهض صلاح ليغلق باب مكتبه الذى كان مواربا بعد أن أطل برأسه على الممر ثم عاد ليجلس ويقول فيما يشبه الهمس :

ـــ سيادتك تعلم أننى عبد المأمور .. ولا أعرف شيئا خارج نطاق المهام الموكلة لى !

ـــ وأنا لا أريد أن أعرف إلا ما هو داخل نطاق المهام الموكلة لك !

ـــ وأيضا ما أعرفه لن يفيد سيادتك فى كثير أو قليل !

ـــ ومع ذلك فإنى أستسمحك فى أن أعرفه !

ـــ أستغفر الله يا فندم .. فى الواقع .. فى الواقع .....

حسم أبى كلماته المتقطعة المترددة :

ـــ أنا لا أريد سوى هذا الواقع !

ـــ صدرت إلينا أوامر عليا بتطهير السوق من كل السلع التى دخلت البلاد بطرق غير رسمية ومصادرتها والقبض على المتاجرين فيها بتهمة التهريب والاتجار فى الممنوعات والتهرب من الضرائب وتدمير الاقتصاد القومى .. وللأسف لم يستطع سعد أن يقدم المستندات التى تنفى عنه هذه التهم !

صمت صلاح ليلتقط أنفاسه منتظرا تعليق أبى :

ـــ لكن جميع تجار الشوارلى عادوا لممارسة عملهم ما عدا ابنى الملقى فى المعتقل الذى لم يكن فى مقدورنا أيضا أن نعرفه وأن نصل إليه إلا من خلال توصية حسين الطوبجى الذى يبدو أنه أراد التكفير عما فعله ابنه !

نظر أبى نظرات فاحصة إلى صلاح الذى تجنبها بكلمات قاطعة :

ــ هذا هو كل ما أعرفه يا فندم .. ولو فى مقدورى أن أؤدى أية خدمة لأخى وصديق عمرى سعد لما تأخرت لحظة واحدة !

ــ ألا تعرف أية وسيلة للوصول إلى المسئول الفعلى عن اعتقال سعد ؟!

ــ أعتقد أن الأمر فى يد السيد وزير الداخلية !

ــ أرسلنا برقيات إلى كل من يعنيهم الأمر .. لكن لا حياة لمن تنادى !!

ــ فليفعل الله الخير !

ــ هل تعتقد أن حما مجدى الطوبجى وراء الأمر كله ؟!

فوجئ صلاح بالمناطق الوعرة التى قاده أبى إليها فخشى على قدميه من الجروح الدامية :

ــ كل ما أعرفه قلته لسيادتك !

لاحظ أبى اللهجة الرسمية المتحفظة لصلاح ، فلعن الزمن الذى جعل ابن سائقه الخاص ينهى اللقاء بهذه الكلمات القاطعة كالخناجر . نهض يمد يده بالسلام فتلقفها صلاح وقد انتفض واقفا ثم متحركا نحو الباب فى ارتياح لم يستطع أن يخفيه . وعندما خرج أبى لمحه من طرف خفى وهو يتلفت بعينيه فى الممر يمنة ويسرة خشية أن يكون هناك من يراقبه .

خرج أبى إلى صالة المطار الكبرى ودقات المطارق فى رأسه أعلى وأعتى من أزيز الطائرات الهابطة ، وهدير الطائرات الصاعدة ، وضجيج المسافرين القادمين والراحلين .

شعر سعد بخدر النوم يسرى فى أعصابه المشدودة . وهى لحظات كان يسعد بها تماما خاصة إذا كانت تحمل معها أطياف شويكار بأحضانها الدافئة ، ونظراتها التى تمزج الخضرة بالزرقة ، وخصلاتها البنية الفاتحة اللامعة على شكل ذيل حصان عربى أصيل ، ووجنتيها المخضلتين بلون الورد ورائحته ، وشفتيها المضمومتين على إرادة حديدية . أصبح طيفها جنته الوارفة الظلال وسط هذه الصحراء القاحلة بصقيعها فى ليالى الشتاء وهجيرها فى أيام الصيف . فهو يستمد الأمل منها ، ويعد الدقائق

والثوانى بل ويحصى اللحظات والأنفاس لحين اللقاء المرتقب كالحلم السعيد الذى سيتحقق بعد يومين .

ومض البرق خارج النافذة ، وأعقبته قعقعة الرعد فى الأصقاع النائية ، وعوت الرياح المحملة بدوامات الرمال الناعمة ، لكنها لم تخترق أسماع سعد الذى استغرقته همسات شويكار ولمساتها المثيرة للدفء فى منعطفات جسده الباردة .

٣

دقات سريعة متلاحقة على الباب الخشبى الصغير . فتح سعد عينيه وانتفض جالسا فى فراشه . لعل حلم الليلة تحقق وجاءت شويكار مع أبيه قبل ميعادهما . فرك عينيه وقد علت الدقات التى اهتز الباب تحت وطأتها . ترك الفراش ليضع الروب على البيجاما وهرع ليفتح الباب الذى سدَّ فتحته جثة الرقيب الضخمة وقد زأر بلهجته الصعيدية فى سكون الصباح الباكر :

ــ تفضل معى !

ــ إلى أين ؟!

ــ إلى مكتب سيادة القائد !

ابتسم سعد فى محاولة لتليين ملامحه الصخرية :

ــ هل حضر أبى وزوجتى ؟!

ــ ليس عندى علم !

استشعر سعد خوفا خفيا سرى فى عروقه برعشة باردة :

ــ فى أى شيء يريدنى القائد فى هذه الساعة المبكرة ؟!

ــ ليس عندى علم ! تفضل معى !

ــ سأغير ملابسى .. عن إذنك !

هم بأن يتراجع إلى الخلف لكن صوت الرقيب ألزمه مكانه :

ــ تفضل معى !! بملابسك هكذا !!

سار فى الممر الضيق بدقات حذائه الثقيل وإلى جواره سعد الذى تماسك قدر إمكانه حتى لا تسرى الانتفاضة إلى أطرافه . لكن سرعان ما غطت جسده قشعريرة أصبحت رعشة فى يديه وكتفيه عندما شاهد مجاهد عطية بملابس النوم وبصحبة رقيب آخر فى طريقه إلى مكتب القائد . دون أن يدرى أسرع سعد

الخطى حتى لحق بمجاهد وفى أعقابه الرقيب :

ــ هل استدعوك أيضا ؟!

ــ نعم !

ــ لماذا ؟!

أجابه بهدوء قاتل :

ــ ستعرف كل شيء بالداخل !

وقد أشار إلى المكتب الذى اقترب منهما لكن سعدا لهث .

ــ ألا تعرف السبب ؟!

ــ كل ما أعرفه أنهم تركونا الليلة الماضية نثرثر ونسهر كما نشاء !!

لم يستوعب سعد كلمة واحدة مما قاله . دق الرقيب على الباب ثم فتحه ليبدو القائد جالسا بملابس النوم أيضا على طرف الفراش القريب من المكتب الذى وُضع عليه جهاز تسجيل ضخم . غطت مسحة من الكآبة وجهه المتغضن و لم تنقشع لتحية الصباح التى ألقاها عليه سعد ومجاهد بنبرات تمزج الرعشة بالإحباط . رد التحية بكلمة واحدة مشيرا إلى مقعدين أمام المكتب :

ــ تفضلا .

تردد سعد بعض الشيء لكنه جلس عندما سبقه مجاهد إلى الجلوس وهو يحملق فى جهاز التسجيل ثم ينظر إلى سعد فى سخرية . ضغط القائد على زر فدار الجهاز :

ــ صحيح أن مجدى الطوبجى الآن أحد نجوم السلك الدبلوماسى فى وزارة الخارجية .. وصحيح أن أباه يعتبر من شلة المشير عبد الحكيم عامر الذى يعد الحاكم الفعلى لمصر .. لكن من يدرى ؟! لا شيء يظل على حاله .. خصوصا فى هذا البلد!!

ــ أنت تعلق مستقبلك بأحلام قد لا تتحقق برغم وعيك العميق بموازين القوى الآن فى البلد !!

ــ حتى إذا لم تتحقق هذه الأحلام فإننى لا أستطيع أن أعيش بدونها يوما واحدا..

ترددت نظرات سعد الذاهلة الحائرة بين الوجه العسكرى الصارم وعينى مجاهد التى لم تخل سخرية مريرة . فجأة نهض مجاهد إلى الجهاز وأوقفه قائلا للقائد :

— نحن معترفان بكل ما جاء فى هذا الشريط .. ولسيادتك أن تحكم علينا بما تراه !

صمت مجاهد فساد سكون ثقيل امتزج بخيوط الشمس التى شرعت فى فرش الصحراء برداء ذهبى تخطى الأسلاك الشائكة التى تقع على مرمى البصر من نافذة المكتب . أشعل القائد سيجارة فتاقت نفس مجاهد إلى واحدة لكنه كبت رغبته فى حين كبت سعد أنفاسه تحت وطأة فشعريرة فى جلده ، صارع حتى لا تتحول إلى رعشة فى أطرافه وحدقتيه المعلقتين بشفتى القائد :

— وما الداعى لمثل هذا الكلام ؟! أتريدان متاعب ومشاكل أكثر من الموجودة بالفعل ؟!

التوى لسان سعد فى سقف حلقه لكن مجاهدا قال :

— نحن نعترف بخطئنا .. لكن عذرنا أنه لم يتبق سوى الكلام لنتنفس من خلاله !

التفت القائد ليوجه كلامه إلى سعد :

— ولماذا لا تذهب إلى المكتبة .. أو تزاول رياضة ؟!

انطلق لسان سعد دون تفكير :

— أنا تحت أمر سيادتك فى كل ما تأمر به !

— وما رأيك فى هذا الشريط ؟! هل أرسله للمسئولين ليتخذوا ما يرونه بشأنه ؟!

— سلمت أمرى لله ولسيادتك ! فكلى ثقة فى عدلك وإنصافك !!

وجه القائد كلامه إليهما فى حسم دون وعيد :

— قلت لكم مرارا إننى لا أريد مشكلات جديدة ولا أنتم أيضا !! ومع ذلك فإن ألسنتكم تفلت من حين لآخر !!

لهج لسان سعد بنبرات واجفة :

— نعد سيادتك أن هذه هى آخر مرة.. وللأسف فقد حذرنى مجاهد لكننى لم أستوعب تحذيره. كنت متعبا للغاية.. لكننى أعد سيادتك بأننى لن أسمح لنفسى

بمجرد التعب !

نهض القائد ليطفئ السيجارة فى منفضة نحاسية على المكتب العارى من البللور ، وفى اللحظة ذاتها وقف مجاهد وسعد الذى ارتاح لنظرات مجاهد التى عادت إليها الطمأنينة مع كلمات القائد :

ـــ على كل حال .. هذا آخر إنذار .. فلا يمكن أن أستمر فى حمايتكم وأنتم تعرضون ظهرى للخطر !

ثم مد يده بالانصراف فأمسك بها سعد فى محاولة مسعورة لتقبيلها مع كلماته اللاهثة اللاهجة بالفضل :

ـــ حماك الله من كل شر !

لكن القائد سحب يده بإباء عنيف كأنه يصدر أمرا عسكريا :

ـــ تفضلا من غير مطرود .. ولقد أعذر من أنذر !

بحث سعد عن كلمات مناسبة لكن مجاهدا نفذ الأمر على الفور وهو فى أعقابه . لم يلتفت إلى مجاهد الذى سار متمهلا خلفه ومتعجبا لهذه العجلة التى لا لزوم لها ، وإن كان قد فسرها بأنه يحاول من الآن تجنب الحديث مع أى زميل حتى لا يقع فى المأزق الذى غطى وجهه هذا الصباح بصفرة الموت .

دخل سعد غرفته دون أن يعبأ بغلقها خلفه . خلع ملابس النوم ليرتدى حلة صوفية ثم تذكر أنه لم يغسل وجهه ، فوضعه تحت الصنبور للحظات ثم جففه وهو يتابع ملامحه فى المرآة المشروخة الباهتة فوق الحوض الحديدى الصغير . مشط شعره ثم انطلق إلى قاعة الطعام التى تطبق مبدأ : اخدم نفسك . فحمل الصينية النحاسية التى فقدت بريقها ليحصل من النافذة على كوب لبن وطبق فول مدمس ورغيفين ، وانتحى ركنا قصيا بعيدا عن بعض الزملاء الذين تناثروا بين الموائد مندهشين لعدم التفاته لأى منهم ، ناهيك عن إلقاء تحية الصباح ، وكأنه خائف من أن يطلعوا على ما يدور فى عقله من أفكار مبهمة ، غامضة ، طازجة !!

أعلنت له حاسته السادسة أن مأزق الصباح وضعه على شفا نقطة تحول مصيرية . لكن إلى أين ؟! لا يعرف !! فقد أدرك منذ خروجه من الغرفة الرهيبة

الخانقة أنه سيضيع حياته فى هذا الطريق المسدود أو الزقاق الخانق إذا لم يستغل عقله الذى استغله من قبل واستطاع به أن يجتاز محنة طرده من المدرسة ، وهو كفيل الآن أن يجتاز به المحنة الثانية التى أوقعه فيها مجدى الطوبجى وصلاح خلف .

تزاحمت على عقله ووجدانه أفكار وخواطر وهواجس متداخلة فى نسيج نفسى معقد بحيث عجز عن فض الاشتباك بينها فى محاولة لتبين ملامحها وهو يزدرد حبات الفول الغائرة فى الزيت الحار بقطع صغيرة من الخبز البلدى المقدد . لكنه واصل المحاولة فتذكر كلمة ناظر المدرسة لأبيه بأنه لا يملك أن يقف فى وجه قطار الثورة ! لم يستوعب فى ذلك الوقت وكذلك أبوه معنى هذه الحكمة ! ربما لم يكن فى إمكان أبيه الذى قضى معظم حياته قبل الثورة ، لكن ما حجته هو وهو الذى لم يبلغ من العمر أكثر من ثمانى سنوات عندما قامت الثورة ؟! صحيح أنه عاش عصر ما قبل الثورة من خلال التقاليد والذكريات والأحاديث على لسان الأب والأعمام والأخوال ، لكن ماذا كانت نتيجة كل هذا ؟! هذه المصائب التى تنهال عليه حتى لو استمات فى الابتعاد عنها !! إنه لا يستطيع أن يعيش مرحلة ما قبل الثورة بوجدانه وفكره وحنينه فى حين يحيا بجسده وروحه وواقعه فى مرحلة ما بعد الثورة ؟! إن الفجوة بين شطرى كيانه واسعة وعميقة ، مظلمة ومخيفة ! كيف يرأب الصدع ويستعيد كيانه الحى المتماسك ؟!

ومضت فى كهوف ذهنه فكرة كوميض برق الليلة الماضية ، لكنها سرعان ما احترقت كالشهاب الساقط و لم يستطع الإمساك بها ! واصل الإبحار فى الذاكرة ، والسباحة وسط أمواج الخواطر المتلاطمة ، والتقلب بين طيات الذكريات والتجارب المريرة دون أن يعثر على شاطئ آمن يلقى عليه رحاله ، ويستلقى بأقدامه التى أعيتها هبات العواصف ولفحات الأعاصير !

انتهى من تجرع كوب اللبن ونهض ليغادر قاعة الطعام دون أن يلتفت إلى روادها الذين تكاثروا دون أن يستشعر وجودهم . كان سعيدا ومهموما بالخضم الذى يخوض غماره لأول مرة بهذا العنف والحيوية منذ أن جاء إلى هذا المكان . هرع إلى المكتبة برغم أنه قرأ معظم كتبها التى أثارت اهتمامه . فقد قرر أن ينفذ أوامر القائد

المحق فى كل كلمة نطق بها . فما فائدة البكاء على الأطلال ، والتغنى بأمجاد الماضى الذى لن يعود ، والقسم بالانتقام من أناس لن يستطيع أن ينالهم بأى أذى ؟! إنهم قطار الثورة وقد جرب هو وأبوه الوقوف فى وجهه . وهو يحمد الله الآن على أن هذا القطار لم يمزق جسده إربا . وكان فى إمكانه أن يفعل هذا !! لقد تعلق الجميع بالقطار . تفرغ الضباط الأحرار لإدارة القاطرة والانطلاق بها بأسرع قوة ممكنة ، واستولى الانتهازيون على مقاعد الدرجة الأولى فى حين أصر الباقون على الوقوف . أما الدرجتان الثانية والثالثة فقد ازدحمتا بركاب الطبقات الجديدة الذين كادوا أن يختنقوا فى الزحام . ومن فاته موضع لقدميه أو حتى لقدم واحدة فقد تشبث بالنوافذ والأبواب ودرجات السلم ، أو قفز ليعتلى سطح العربات غير عابئ بالدخان الكثيف الأسود المنطلق من فوهة القاطرة ليلفح الوجوه ، والعيون المفتوحة ، والأفواه الفاغرة ، والأنفاس اللاهثة ، والصفير الحاد المشروخ الذى يصيب الآذان بصمم ذى طنين ثقيل .

كل هذا والقطار منطلق لا يلوى على شىء وكأنه فقد القدرة على الوقوف عند أية محطة من محطات مصر المعروفة . وتحول هدير عجلاته الحديدية التى تدك الأرض دكا إلى دقات فى القلوب ، فرقصت مصر كلها على إيقاعاتها دون أن تدرى إذا كانت رعشات الراقصة الجميلة المبهرة أو خفقات الحيوان الذبيح ؟!

أما الذين فاتهم قطار الثورة أو بمعنى أصح قطار الحياة ، فقبعوا فى الظل أو الظلام يأملون فى تغير الأحوال ، أو يشمتون فى الشعب الذى رفس الحرية ليستبدل بها فاشية عسكرية ، أو يتلقون الضربات صامدين أو منهارين أو محاولين الهرب ! وكثيرا ما كانوا يتندرون بقطار الرحمة الذى بعثته الثورة إلى كل المحافظات ، وحشدت فيه كل الفنانين والفنانات لجلب أكبر قدر ممكن من الهدايا والعطايا والهبات والتبرعات من أجل الفقراء ، وذلك فى محاولة من الثورة لكسب القاعدة العريضة من الشعب . وهو القطار الذى تحول بعد ذلك فى السنوات الأولى من الثورة إلى مشروع معونة الشتاء التى لا يشعر بها أحد .

وسط خضم هذه الخواطر والذكريات وجد سعد نفسه يقلب فى الكتب

المرصوصة على الرفوف الخشبية المعلقة فى جدران المكتبة التى تساقط طلاؤها ، دون أن يلقى بالتحية على المشرف عليها ، إذ وجد أن الحديث مع نفسه أكثر فائدة وأمنا من الحديث مع الآخرين حتى لو كان مجرد تحية الصباح التى فقدت معناها ، ويمكن أن تفسر على هواهم . لم تكن الكتب مغرية على الإطلاق . روايات قليلة قرأها أكثر من ثلاث أو أربع مرات خاصة رواية « دون كيشوت » التى تعاطف مع بطلها تعاطفا حميما برغم أنه مثير للسخرية والضحك . فهو فارس عجوز فاته زمن الفروسية لكنه يرفض إلا أن يعيش فيه ويجدد تقاليده برغم أنف عجلة الزمن!

أمسك سعد بالرواية وأخذ يقلب فى صفحاتها التى يكاد يحفظ معظمها عن ظهر قلب ، وفى اللحظة ذاتها ومضت فى كهوف ذهنه نفس الفكرة التى ذكرته ببرق الليلة الماضية لكنه أمسك بتلابيبها الأخيرة هذه المرة لتوحى إليه بالسر فى تعاطفه مع دون كيشوت . فهو صورة حديثة منه . فاته زمن الملكية لكنه يصر على أن يعيش فيه ويجدد تقاليده برغم أنف عجلة الزمن !

غمرته نفس النشوة التى اجتاحت كريستوفر كولمبس عندما ظهرت فى الأفق القارة الأمريكية وهو يظن أنها جزر الهند الغربية . فقد شعر سعد العنترى أنه على وشك اكتشاف عالم جديد دون أن يدرك صورته الحقيقية ، لكن اعتزازه بنفسه اكتسب أبعاداً جديدة وهو ينتقل من أوهام دون كيشوت إلى كشوف كريستوفر كولمبس !

لعبت أنامله بكتب أخرى ونظرات المشرف تتابعه من طرف خفى : الميثاق . فلسفة الثورة . هذه هى الصهيونية . الحرب النفسية . يا ولدى هذا عمك جمال . القاعدة الشعبية . القناة لنا . اعرف عدوك . حتمية الحل الاشتراكى . سلسلة « اخترنا لك » .

كانت أصابعه على وشك التراجع لولا أن عينيه لمحتا نظرات المشرف فخشى أن يفسر سلوكه بإصراره على رفض الثورة ، فأمسك بما اصطدمت به أصابعه فكان : هذه هى الصهيونية والميثاق .

أخذ الكتابين وانتحى ركنا قصيا وقد عقد العزم على تقليب صفحاتهما

بحماس لا بد أن يلحظه المشرف الذى لا بد أنه سينقل إلى رؤسائه إقبال معتقل جديد على فكر الثورة . وسوف يكتم سعد فى أعماقه المظلمة ازدراءه لهذه الكتب الطافحة بموضوعات الإنشاء السقيمة ، والشعارات الجوفاء والخطب المملة . ومع ذلك ساءل نفسه : لماذا لا يقرأ بنفسه هذه الكتب التى سمع عنها كثيرا ؟! فليس من سمع كمن قرأ. بدأ بكتاب « هذه هى الصهيونية » . على الغلاف لا يوجد اسم لمؤلف . فقط : وزارة التربية والتعليم . إدارة الشئون العامة . مطابع مجلس الخدمات . ١٩٥٦ . وفى أول صفحة صورة لجمال عبد الناصر فى عز شبابه وهى صورة تختلف عن تلك المعلقة فى مكتب القائد والتى غزا فيها المشيب فوديه برغم أنه لا يزيد على السابعة والأربعين . وعلى الصفحة التالية مقدمة بقلم جمال عبد الناصر يقول فيها :

— تعيش الأمة العربية اليوم فى مرحلة وسطى بين مرحلتين من مراحل تطورها التاريخى ، تستشرف فيها أملا قريبا ترجو أن تبلغه بكفاحها ، لتسترد اعتبارها وتحقق معنى وجودها فى الإنسانية ومكانتها بين أمم الحضارة .

كاد سعد أن يتثاوب لكنه سيطر على شفتيه من الانفتاح القهرى وهو يختلس نظرات مارقة إلى المشرف الذى تظاهر بالانشغال فى بعض الأوراق أمامه . مد بصره عبر النافذة فاصطدم بصفرة الصحراء اللانهائية التى لا تعرف خطوطا أو حدودا إلا الأسلاك الشائكة المحيطة بالمكان والتى يقال إنها يمكن أن تصعق كل من يحاول عبورها أو تسلقها أو تجاوزها . ثم عادت عيناه على السطور كماسحات المطر على زجاج السيارة التى أوحشه ركوبها كثيرا . التقط كلمات وجملا مثل : — دعوة إلى السلام وإلى الحق والخير — فما أجدر أن نتخلص من أوزار ذلك الماضى بشجاعة وحزم — ثم أن نعرف حقيقة أنفسنا وحقيقة عدونا ، وما نملكه أو ما يملكه كلانا من أسباب النصر فى كل معركة قادمة أو معركة مرتقبة ، ليتحدد مكاننا فى ميدان الكفاح ، فلا تنالنا البغتات من حيث لم نكن نحتسب — ومن أجل ذلك كله ننشر هذه الحلقات المتتابعة من سلسلة « اخترنا لك » ومن أجل ذلك كانت أول حلقة من حلقاتها عن الصهيونية — إن المعركة بيننا وبين الصهيونية لم تنته

بعد ، بل لعلها لم تبدأ بعد ؛ فإن لنا ولها غدا قريبا أو غدا بعيدا ، نغسل فيها عارا ، ونحقق أمنية ، ونسترد حقا — وقد يرى القارئ فى بعض فصول هذا الكتاب ما لا يقره من الرأى أو من طريقة الخبر ، ويجد فى بعض ذلك ما يسوءه ؛ فليتسع صدره لما يجد من ذلك ؛ فإنما هو كتاب أنشأه أحد غلاة الصهيونيين « إسرائيل كوهين » يقص فيه قصة الصهيونية من وجهة نظر صهيونية ، مؤمنا بما قال ، أو مدعيا ليخدع الرأى الدولى العام ؛ فليصدق فى بعض ما قال أو يكذب فيه كله ، فليس يعنينا بما قاله إلا أن نعرف قصة الصهيونية كما رواها رجل من أهلها ؛ ليكون لنا من العلم بها وعى جديد يعيننا فيما نستقبل من مراحل الكفاح .

أوشكت ابتسامة ساخرة أن ترتسم على شفتى سعد العنترى لكنه سرعان ما فتك بها قبل أن تفتك به . لكنه لم يستطع أن يكتب تساؤلا صامتا صمت القبور : هل يملك القدرة على خوض معركة مع إسرائيل يغسل فيها عارا ، ويحقق أمنية ، ويسترد حقا ؟!

لم يعبأ بإجابة التساؤل لأن أمواج الملل عادت لتغرق شواطئه وهو يتصفح عناوين الكتاب :

— فترة التشريد — حركة « عشاق صهيون » — الصهيونية السياسية والعملية — بدء الاستعمار الصهيونى — فلسطين تحت الانتداب الإنجليزى — اتساع نطاق الصهيونية وتدعيمها — إقامة الوطن القومى اليهودى — كيف توسعت الوكالة اليهودية — ثورة العرب — مشروعات التقسيم فى الكتاب الأبيض — توطيد دعائم الوطن القومى — الحرب العالمية الأخيرة .

أقفل سعد الكتاب وشرد بعيدا مع خواطره المتسائلة :

— هذا الكتاب نشر قبل العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ .. فهل غسلنا العار واستردنا الحق فى قرارنا بالانسحاب من سيناء وتركها تحت رحمة إسرائيل ؟! وتركنا بورسعيد نهبا للغزاة الإنجليز والفرنسيين ؟! ولولا المقاومة الشعبية الباسلة لما انسحب جنود البلدين من المدينة .. ولولا الضغط العالمى لما انسحبت إسرائيل من سيناء ؟! وكان تحليل الموقف أول الأمر أننا خسرنا المعركة عسكريا لكننا

كسبناها سياسيا .. لكن برقع الحياءسرعان ما وقع وتحول العدوان الثلاثى إلى نصر مصرى مؤزر على كل المستويات !! لكن أين أنت يا سعد من كل هذا ؟! إن النقمة لم تأت عليك وعلى أسرتك إلا بالوبال ! هل هناك مدخل جديد يمكنك اللحاق بقطار الثورة من خلاله حتى لو كان قد فاتك ؟! إنك لن تعدم الوسيلة خاصة وأن رجال الثورة يهمهم أن يدور الجميع فى فلكهم حتى لو اختلفت انتماءاتهم الفكرية والسياسية والاجتماعية . وجمال عبد الناصر نفسه ينادى بوحدة الصف قبل وحدة الهدف ! ولذلك عليك أن تجد طريقة تنضم بها إلى الصف ثم تحقق هدفك أنت الخاص بك !! أما عن ماضيك الإقطاعى والأرستقراطى فالأيام كفيلة بطمسه ! وحتى إذا لم تطمسه فإن انضمامك إلى موكب الثورة يحمل من معانى الوطنية والقومية أضعاف ما يحمله سعى الفقير الكادح لركوب قطار الثورة حتى ينتشله من مستنقعات الفقر والبؤس . أما أنت فقد قبلت الثورة وفكرها عن قناعة وإيمان ، وكفرت بكل قيمك السابقة من أجل سواد عيونها دون لهث خلف نفع ذاتى أو صالح شخصى !

هنا سطع الضوء الذى غمر حنايا رأسه المعتمة ، فتكشفت طرق جديدة مؤدية إلى آفاق أشد جدة وإن لم تتضح معالمها تماما ، ولهج لسانه الصامت بحمد الله على وجوده فى المعتقل الذى أنقذه من مثوله أمام لجنة الإقطاع التى تشكلت برياسة المشير عبد الحكيم عامر لتصفية الفلول الأخيرة للإقطاع بعد حادثة كمشيش . ودون وعى مد سعد يده ليفتح الميثاق ، وكله نهم لالتهام حروفه وألفاظه قبل استيعاب معانيه وأفكاره .

ها هو فهرس الأبواب العشرة للميثاق يحدد العناوين أو الموضوعات التى تقرأ أو نسمع عنها ليل نهار :

— نظرة عامة — فى ضرورة الثورة — جذور النضال المصرى — درس النكسة — الديمقراطية السليمة — حتمية الحل الاشتراكى — الإنتاج والمجتمع — مع التطبيق الاشتراكى — الوحدة العربية — السياسة الخارجية .

ثم فتح سعد الكتاب على الباب الأول :

— إن يوم ٢٣ يوليو سنة ٥٢ كان بداية مرحلة جديدة ومجيدة فى تاريخ النضال المتواصل للشعب العربى فى مصر . إن هذا الشعب فى ذلك اليوم المجيد بدأ تجربة ثورية فى جميع المجالات وسط ظروف متناهية فى صعوبتها وظلامها وأخطارها فتمكن هذا الشعب بصدقه الثورى وبإرادة الثورة العتيدة فيه أن يغير حياته تغييرا أساسيا وعميقا فى اتجاه آماله الإنسانية الواسعة .

وانطلق سعد بين سطور الميثاق يلتهمها دون هوادة . ومن حين لآخر كان يغمض عينيه كأنه يستظهرها عن ظهر قلب وقد ارتسم ما يشبه النشوة على جفنيه المغلقين وعندما فتحهما على المشهد خارج النافذة لم تعد الصحراء مخيفة قاحلة ولا الأسلاك شائكة مكهربة ! انكب مرة أخرى على الميثاق والدقائق تمر كالبرق ، تعقبها الساعات ، والشمس تتوسط قبة السماء ، والظهر ينزاح أمام طلائع العصر ، وإذ بسعد ينظر حوله فيجد المكتبة خالية تماما باستثناء المشرف الذى لا يزال قابعا خلف مكتبه وهو يرمقه بنظرات باسمة هذه المرة ، ولسان حال سعد يقول : أول الغيث قطرة ! تحولت النظرات الباسمة إلى كلمات حانية شنفت آذان سعد :

— سيفوتك ميعاد الغداء فى المطعم !

أجابه سعد بابتسامة أكثر عذوبة :

— أمامى طبق أشهى من أى طعام آخر !

اتسعت ابتسامة المشرف وقد نهض واقفا :

— كلنا تلاميذ فى مدرسة هذا الفكر العظيم .. على كل حال يمكنك استعارة الكتاب لتقرأه فى غرفتك .

نهض سعد بدوره وهو يمسك بالميثاق فى حنان عجيب ، وينظر إلى صورة جمال عبد الناصر المعلقة فوق رأس المشرف بعيون شبه مسبلة فى وله شديد وقد تقدم منه :

— هذا فضل كبير من سيادتك لا يمكن أن أنساه ! عن إذنك !

ثم انطلق إلى قاعة الطعام وقد ألصق الميثاق قريبا من القلب . لم يتبق فى القاعة

سوى ثلاثة زملاء كانوا على وشك الانتهاء من الطعام وهم ينظرون إلى سعد فى دهشة لهذا الكتاب الذى يحمله فى حرص ،ولوصوله متأخرا والقاعة على وشك الإغلاق وهو الذى كان أولهم عند الإفطار والغداء والعشاء هربا من اليأس الذى يكاد يخنقه ، والضيق الذى يكاد يقتله . كذلك لم يلق سعد التحية ولو العابرة عليهم وهو الذى اعتاد أن يفرض حديثه على الآخرين غير الراغبين فى الاستماع إليه ، كما فعل فى الليلة الماضية مع مجاهد عطية الذى التزم الصمت بدوره ، وإن كان بعض الزملاء قد شاهدوهما فى الصباح الباكر فى طريقهما إلى مكتب القائد . وطالما أن الرعب لم يتحجر فى نظراتهما فلا بد أن كل ما أصابهما كان مجرد لفت نظر . فالمعتقل لم يشهد قائدا بمثل هذه الأبوة أو الأخوة الحانية التى أحالته إلى أسرة شبه متحابة وبلا مشكلات تذكر . ولذلك لم يحاول أحدهم فرض نفسه سواء على مجاهد أو سعد طالما أنهما التزما الصمت .

ازدرد سعد ما فى الطبق بعد أن مزج الأرز بالسبانخ واللحم الذى قسمه إلى قطع صغيرة ، ثم قطع البرتقالة الكبيرة إلى أربعة أجزاء قضمها فى عجلة بعد أن وجد نفسه الوحيد فى القاعة الفسيحة . غادر المكان دون أن يلتفت يمنة أو يسرة وقد انطلق صوب الممر المؤدى إلى مكتب القائد ووجهه ينطق بملامح تتناقض تماما مع تلك التى تربعت على وجهه فى ذلك الصباح وهو فى طريقه إلى نفس المكتب .

وقف الحارس الجالس أمام الباب مرهفا السمع لكلمات سعد :

ـــ هل يمكن أن أقابل سيادة القائد ؟!

ـــ هل هناك موعد سابق ؟!

ـــ لن آخذ من وقت سيادته أكثر من دقيقة إذا سمح بها !

دق الحارس بأصابعه دقات خفيفة على الباب ثم فتحه ليدخل رأسه بكلمات ترن فى أذنى سعد :

ـــ السيد سعد العنترى يريد مقابلة سيادتك !

ـــ دعه يدخل !

فتح الباب ليدخل سعد وقد انتقلت عدوى ابتسامته إلى وجه القائد الذى يبدو أنه انتهى وشيكا من تناول غدائه . قال سعد :

— جئت لأشكر سيادتك على نصيحة الصباح .. كانت مصباح علاء الدين بالنسبة لى أو خاتم سليمان الذى كشف لى عن كنوز لم أكن لأحلم بها !

افترشت الابتسامة وجه القائد وهو يسترخى فى مقعده :

— قراءة فكر الثورة ودراسته غير الاستماع إليه من أفواه المغرضين الحاقدين الموتورين !

— لم أكن أعلم أن الميثاق دستور بهذا الشمول لكل جوانب حياتنا التى أضاءها بأنوار مبهرة ! أدركت اليوم فقط أننى ولدت من جديد .. وأن ما فات من عمرى ضاع هدرا !

— لكنك لا تزال فى عنفوان شبابك .. وأمامك المستقبل طويل عريض !

— وهل يمكن أن تقبلنى الثورة ابنا لها بعد كل هذا العقوق ؟!

— الثورة لا تعادى من ينضم إلى مسيرتها .. والرئيس جمال يكرر قوله دائما « عفا الله عما سلف » .

— صحيح رب ضارة نافعة .. فأنا منذ الآن مدين لهذا المكان ولسيادتك بفضل لا يمكن أن أنساه ! ولولا وجودى هنا لما عرفت نفسى وإمكاناتى وميولى على حقيقتها !

عبرت سحابة قلق وجه الرجل الذى لم يحتمل تمادى سعد فى هذه النغمة الجديدة فحاول حسم الموضوع :

— على كل .. حاول نشر ما أستوعبته بين زملائك لعلهم يحذون حذوك !

— ولعل الثورة تغفر لى ما تقدم من طيش وغباء وجهل !

نهض القائد واقفا فى انتصابة عسكرية فى محاولة لإنهاء المقابلة :

— وفقك الله .. ومكتبى مفتوح لك فى أى موضوع تريد مناقشته !

— حفظك الله للثورة ولنا ذخرا وسندا !

مد القائد يده فأسرع سعد بالسلام ويسراه لا تزال قابضة على « الميثاق » . تراجع حتى خرج بظهره من الباب الموارب الذى أغلق خلفه ، فى حين استرخى القائد مرة أخرى فى مقعده الجلدى الأسود وابتسامة حائرة على وجهه ، ابتسامة رازحة تحت طيات غامضة من السعادة الظاهرة والمرارة الباطنة ، من البهجة البادية والسخرية الكامنة ! لكن سرعان ما تلاشت الابتسامة تحت موجة من الكآبة الغامرة عندما تذكر زوجته المريضة فى القاهرة وحنينه القاتل كى يكون إلى جوارها .

دقات سريعة متلاحقة على الباب الخشبى الصغير . كان سعد جالسا وقد استيقظ مبكرًا فى فراشه وأضاء المصباح الكهربى الذابل وقد تحولت قراءته للميثاق إلى ما يشبه استذكار الطالب ليلة الامتحان . انتفض تاركا الغطاء والفراش مع ارتفاع الدقات التى اهتز لها الباب. وضع الروب على البيجاما وهرع ليفتح الباب الذى سدت فتحته جثة الرقيب الضخمة وقد رد بلهجته الصعيدية فى سكون الصباح :

ــ تفضل معى !

ــ لحظات وسأذهب معك إلى مكتب سيادة القائد !

انتظر الرجل فى الممر فى حين ارتدى سعد حلته الكحلية الأنيقة بعد أن غسل وجهه وعطره فى عجلة . أخرج عدة وريقات بيضاء من الدولاب ودسها مع قلم رصاص فى جيبه . كذلك لم ينس أن يصطحب معه صديقه الحميم الجديد « الميثاق » . وانطلق من الباب ليسبق الرقيب صوب مكتب القائد . قال له قلبه إن شويكار وصلت ، والتقط أنفه عطرها المفضل الذى سرى فى هواء الممر بنشوة خدرت أطرافه . لعلها لم تكن رحلة شاقة عليها وعلى أبيه المسن المريض خاصة فى ذلك الطريق الصحراوى الموحش الضيق الذى يتلوى كثعبان يبدأ ذيله من مكان ما فى أطراف القاهرة وينتهى برأسه السام فى هذا الموقع . وكانت الأجهزة المسئولة قد قررت أن يكون سفر أهل المعتقلين ليلا حتى لا يتبينوا على وجه الدقة موقع المعتقل على خريطة مصر ، سواء فى الذهاب أو الإياب .

بلغ سعد باب المكتب الذى سرعان ما فتحه له الديدبان ليضئ وجهه بابتسامة شويكار الدامعة . أشاح القائد بوجهه بعيدا خشية أن تدمع عيناه وتظاهر بتأمل المشهد الصحراوى الشائك خارج النافذة . تبادل سعد الأحضان والقبلات

الدامعة الباكية مع زوجته وأبيه الذى تربعت الشيخوخة على وجهه هذه المرة بشكل كئيب . أما شويكار فبدت شاحبة برغم دهان الوجه الوردى وأحمر الشفاه القانى ، لكن سعدا كان متلهفا للسؤال عن الأخبار والأحوال فكبت غصة الأسى وانهال بالتساؤلات عن كل الأمور الشخصية وتفاصيلها الدقيقة ، لكن بدا على وجه شويكار أنها تخفى سرا لا تريد أن تبوح به لسعد فى حضرة القائد الذى كان من اللماحية بحيث غادر المكان وأغلق الباب خلفه .

فى الحال أخرج سعد الوريقات البيضاء من جيبه ومعها قلم الرصاص وأخذ يكتب عليها :

— أشعر بأن هناك سرا تريدين البوح به !

وفى نفس اللحظات قال لزوجته بصوت مرتفع أثار دهشتها :

— أقرأ الآن « الميثاق » ووجدت فيه دستورا ينظم كل شئون حياتنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية !!

ثم مد يده بالورقة والقلم إليها فقرأت ما كتبه ثم ابتسمت ابتسامتها الذكية الحبيبة إلى قلبه وشرعت فى الكتابة :

— مجدى الطوبجى يطاردنى بهدف إجبارى على الطلاق منك .. لكننى والحمد لله استطعت إيقافه عند حده !

وفى اللحظات نفسها قالت وهى تحاول جمع شتات فكرها :

— سأقرأ الميثاق بدورى حتى أعرف موقع خطواتى .. فكلنا أبناء الثورة !

ثم أعطت الورقة والقلم لسعد الذى جحظت عيناه ، وفغر فاه ، وتنقلت نظراته الحائرة بينها وبين الورقة ، لكن سرعان ما تماسك وكتب :

— كلى ثقة فى قوة شخصيتك وصمودك فى مواجهة هذا الندل الذى يحاول انتهاز فرصة اعتقالى كى يحقق أحلامه المريضة القديمة !!

وكان يقول بصوت يختلج بانفعال ليس له علاقة بكلماته :

— أخيرا آمنت أن الثورة هى طريق مصر الجديدة نحو المستقبل المشرق .. الطريق الوحيد ولا طريق غيرها !!

كان الأب يتابع ما يدور خلف نظارته السميكة بدهشة تحولت إلى استمتاع باسم لذكاء ابنه الذى يبدو هذه المرة أكثر ثباتا وصمودا وصلابة بل وتفاؤلا .

كتبت شويكار فى حين ركز سعد عينيه على الباب حتى يكون مستعدا لدخول القائد :

ـــ المشكلة الآن أن حسين الطوبجى قد أصبح مسئولا خطيرا للغاية بفضل قربه من المشير عبد الحكيم عامر الحاكم الفعلى لمصر !

لكنها كانت تقول مع كل كلمة تكتبها والأب يقرأ تباعا :

ـــ التحقت بكلية السلام بمصر الجديدة كمدرسة للغة الإنجليزية .. وسأقوم بتدريس « الميثاق » للطلبة باللغة الإنجليزية لأجعل كل موضوعات الإنشاء قاصرة عليه !

التقط سعد الورقة والقلم ليكتب والأب يميل ليقرأ :

ـــ عرفت من المعتقلين الجدد أن الصراع بين جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر قد بلغ قمته .. فلماذا لا نلعب على ورقة عبد الناصر ؟!

ومع الكلمات كان يقول :

ـــ يجب أن تقومى بتدريس « فلسفة الثورة » أيضا .. « فالميثاق » هو الامتداد التطبيقى لفلسفة الثورة !!

كان الأب يراقب الباب المغلق فى حين كتبت شويكار :

ـــ كيف ؟؟ كل من تعاملنا معهم من جناح المشير .. باستثناء زوج زميلة لى بالمدرسة يعمل مدرسا للغة الإنجليزية بالمدرسة القومية بمصر الجديدة وهو أستاذ لابنى عبد الناصر : خالد وعبد الحميد !

ومع الكلمات المكتوبة كانت الكلمات المنطوقة :

ـــ سأحاول الحصول على نسخة من فلسفة الثورة .. فأنا أعشق كل ما كتبه عبد الناصر ! ومن يظن فى نفسه القدرة على تحديه فإنه يتحدى مصر كلها !!

كتب سعد وعيناه بين الباب والورقة :

ـــ يمكنك إرسال خطاب مع أحدهما لأبيه تقولين فيه أننى معتقل بسبب

تأييدى له .. مما دفع بعملاء المشير وعلى رأسهم جسين الطوبجى إلى اعتقالى لهذا السبب وحده ! كما أن مجدى الطوبجى يطاردك فى غيبتى لهذا السبب !!

فى حين قال وهو يحرم نفسه من متعة تأمل وجهها :

ـــ أتمنى أن أرسل خطابا إلى قائدنا عبد الناصر لأؤكد له أننى ولدت من جديد على يديه .. وأننى أتبرأ من كل صلاتى بالعهد البائد .. وعلى استعداد أن أكون جنديا مخلصا له فى أى موقع يختاره لى .. ففى النهاية روحى وحياتى فداء للثورة المباركة والجمهورية العربية المتحدة !

اهتز الأب فى مقعده الخشبى لكن سرعان ما سكنت حركته عندما أدرك أن ابنه يلعب لعبة جديدة لعلها تخلصه مما هو فيه .. وعندما مد سعد يده بالورقة والقلم أمسك الأب بهما وكتب بدوره :

ـــ كن حريصا يا بنى .. فهذه ألعاب خطرة وليست بالبساطة التى تتصورها !

تناول سعد الورقة والقلم ليكتب :

ـــ لم يعد لدىّ ما أخسره !! لابد أن نفكر لإنقاذ ما يمكن إنقاذه ! لا يعقل أن نترك هذه الذئاب تنهش فينا هكذا .. ونقنع نحن بالفرجة والحسرة !

لكنه كان يقول لأبيه :

ـــ وأنت أيضا يا أبى .. برغم أنك قضيت معظم حياتك قبل الثورة . فقد آمنت بها وأصبحت الآن من أتباعها المتحمسين !

أجاب الأب بصوت جهورى :

ـــ هذا أمر مفروغ منه يا بنى !

ثم حاول أن يبحث عن كلمات أخرى لكنه عجز فقنع بالصمت وشويكار تتناول الورقة والقلم وتكتب :

ـــ سأحاول هذه المحاولة .. فلم يشجع أمثال مجدى الطوبجى سوى صمتنا واستسلامنا لهم .. وحتى لو فاز جناح عبد الحكيم عامر فى الصراع فلن نخسر أكثر مما خسرنا ! وعلى فكرة تزوج مجدى الطوبجى من ابنة على بدران !

وكانت تقول مع كل كلمة تكتبها :

— الحمد لله .. صحتك على ما يرام .. الثورة ترعى كل أبنائها .. حتى المعتقلين منهم .. تماما مثل قلب الأم الذى يتسع لكل الأبناء مهما اختلفت نظرتها إليهم !

التقط سعد الورقة والقلم لتجحظ عيناه عند آخر جملة فأسرع بالكتابة هذه المرة دون تغطية بكلمات مسموعة :

— إذًا .. فحمو مجدى أيضا من أخطر رجال المشير وليس أبوه فقط ؟! لم يكتف بأبيه سندا بل ضم إليه حماه أيضا .. ليكن سندنا نحن جمال عبد الناصر ولنعلن هذا فى كل مكان !

ومع كل كلمة كان يكتبها ، كان ينطق ما حفظه عن ظهر قلب :

— إن الديمقراطية السياسية لا يمكن أن تتحقق فى ظل سيطرة طبقة من الطبقات . إن الديمقراطية حتى بمعناها الحرفى هى سلطة الشعب، سلطة مجموع الشعب وسيادته !

أمسكت شويكار بالورقة من يد سعد وشرعت فى قراءتها ، وعندما أوشكت على الانتهاء منها والشروع فى كتابة الرد اختطفها منها سعد بيد دستها كلمح البصر فى جيبه . وقبل أن تندهش كان مقبض الباب يدور ويدخل منه القائد مبتسما فى شبه خجل حتى جلس إلى مكتبه وهو يتشاغل ببعض الأوراق أمامه . فكر سعد فى الاطمئنان بيده على وضع الوريقات فى جيبه لكنه خشى من إثارة ريبة الرجل . قطعت شويكار حبل الصمت المشدود فى توتر بسؤال زوجها :

— من أين تعلمت هذه الأفكار الثورية الجميلة ؟!

— من الميثاق !!

— سأعود إلى قراءته بمجرد عودتى إلى القاهرة !

— وأخطر ما أثر فى تفكيرى كلامه عن الصراع الحتمى والطبيعى بين الطبقات والذى لا يمكن تجاهله أو إنكاره وإنما ينبغى أن يكون حله سلميا فى إطار الوحدة الوطنية وعن طريق تذويب الفوارق بين الطبقات .

(أبناء الرعد)

— إذا واصلت دراستك الجادة هذه .. فإنك ستكون فى طليعة المفكرين الثوريين !

— وهل نسيت أننى عضو فى الاتحاد الاشتراكى .. ومن أنشط الأعضاء فى حضور اللجان والندوات .. خصوصا لجنة الفكر والدعوة .. وكنت أنادى — كما تعلمين — بالاشتراكية والعدالة الاجتماعية وتذويب الطبقات ! ولذلك أعتبر وجودى فى المعتقل مجرد مرحلة طارئة سرعان ما تزول !

كان القائد كله آذانًا صاغية ، مرهفة ، مندهشة ، ساخرة مما يجرى ، وإن تشاغلت عيناه ببعض الأوراق أمامه . أما الأب فلم يستطع أن يصمت أكثر من هذا ، فقال بنبرات مرتعشة حاول إخفاء رنة التهكم المرير فيها :

— لا أحد يعرف تذويب الطبقات مثلنا .. فقد كنا فى طليعة الطبقة التى أذابتها الثورة .. ولم نقع فى صدام مع الثورة .. فلم يكن لنا ماض سياسى .

قاطع سعد أباه فى حسم حتى لا تجره الكلمات إلى إعلان مشاعره :

— والدليل على ذلك أن الثورة قبلتنى عضوا فى الاتحاد الاشتراكى دون حساسيات .. فالثورة هى أم الجميع !

أزاح القائد حشرجة فى حلقه ثم تدخل فى الحديث لأول مرة بسؤال مفاجئ إلى سعد :

— وكيف انضممت إلى الاتحاد الاشتراكى .. وأنت لم تقرأ « الميثاق » إلا أمس ؟!

وجد سعد نفسه فى قاع مأزق لم يستعد له لكنه اعتاد بمرونته الناعمة أن يخرج منه كالشعرة من العجين :

— كانت القراءة الأولى متعجلة .. فالمشاغل خارج أسوار المعتقل لا تترك للإنسان فرصة الدراسة المتأنية والتأمل العميق .. أما هنا فى الداخل فليس هناك ما يشغلنا سوى الدراسة والتأمل .. وهذا هو فضل المعتقل علىّ .. وفضل سيادتك أيضا عندما نصحتنى بالتردد على المكتبة بدلا من إضاعة الوقت فى الثرثرة الفارغة .. اكتشفت أن « الميثاق » يحتاج عشر قراءات وليس قراءة واحدة !

أوقف القائد سيل كلماته المنهمر بجملة قاطعة :

— الإيمان الصادق مطلوب قبل الدراسة المتأنية والتأمل العميق!

قبل سعد التحدى وواصل تأكيد موقفه :

— من الآن ستكون كل أفعالى وحركاتى ترجمة صادقة لإيمانى بالثورة وقائدها الرئيس جمال عبد الناصر . وسيلمس المسئولون مدى انتمائى وإخلاصى للنظام .. النظام الذى سمح أن أفتح أكبر محل فى الشوارب برغم أسرتى الإقطاعية الرأسمالية .. وهذا فضل آخر لا يمكن أن أنساه له ! فقد وضعنى تحت بند الرأسمالية الوطنية .. وأصبحنا بذلك ضمن قوى الشعب العامل . وكل ما يضايقنى أننى طاقة معطلة هنا فى حين يمكنى أن أخدم النظام حيثما أكون .. هذه البطالة الرهيبة هى التى أجبرتنى على إضاعة الوقت فى ثرثرة فارغة .. ومع ذلك فأنا راض بأى موقع تضعنى فيه الثورة .. فهى على كل .. ترى الأفضل لنا جميعا !

صمت سعد ليبتلع لعابه الذى جف فقال القائد بحسمه المعتاد :

— سيتناول ضيوفك الغداء معك على أن يكونوا مستعدين للرحيل بعد ذلك فورا .

سألته شويكار بحرج مشرب بالحمرة :

— ألن نقضى اليوم كله معه مثل المرة الماضية ؟!

تجنب القائد نظراتها التى تمزج الخجل بالاستعطاف :

— تعليمات جديدة لابد من تنفيذها بالحرف الواحد .

شعر سعد بغصة مفاجئة فى قلبه فتساءل بعفوية بالغة :

— وهل هذه التعليمات بخصوصى أنا فقط ؟!

ابتسم القائد محاولا التخفيف من حدة التوتر الطارئ :

— لا تتوهم نفسك بمثل هذه الأهمية البالغة ! إنها تعليمات عامة !

أثارت شخصية القائد تقدير الأب الصامت فنطق :

— لن نثقل عليك أكثر من هذا ! كفانا استقبالك الأخوى لنا !

أجاب القائد فى اقتضاب :

ـــ لا بد أن يؤدى كل إنسان الواجب المفروض عليه ! على كل حال يمكنكم التجول فى الفناء المشمس حتى يحين موعد الغداء !

نهضوا جميعا لتبادل الشكر والتحية مع القائد ثم خرجوا عبر الممر إلى الفناء الذى تحيط به غرف المعتقلين فيما يشبه مستطيلا فقد ضلعه الرابع . جلس الأب على أحد المقاعد الحجرية وقد بدأ يستمتع بالشمس المبهرة ، والنسيم الجاف ، والسكون الذى ذكره بأيام الشباب عندما كان يقضى إجازاته فى العزبة . لكن مع الفارق الشاسع : هنا الصفرة الكالحة وهناك الخضرة الحانية ، القيد والحرية ، العبودية والسيادة ، الخوف والأمان ، حفيف الفراغ وهدير الساقية. ما أبعد اليوم عن الأمس ، كأن بينهما قرونا !! وما أتعس حظ ابنه الذى كتب عليه أن يتلقى ضربات دون ذنب جناه !! ومع ذلك يحمد الله أنه اكتسب مثل هذه المرونة الناعمة الملساء وإلا كان قد كسر منذ البداية !! فهذا هو زمن الثعابين والحيات والجحور والشقوق المعتمة !! ومن ينشد السلامة لابد أن يبحث لنفسه عن جحر أو شق حتى لا يجد نفسه وهو يلدغ فى العراء تحت سمع وبصر الجميع دون أن يجرؤ أحد على أن يمد له يد المساعدة !!

ضم الأب أطراف المعطف الأسود الفضفاض حول ساقيه النحيلتين وهو يتابع خلف نظارته السميكة ابنه وهو يسير الهوينى مع زوجته ، ولكنه لم يلحظ بعض العيون المتلصصة خلف نوافذ الحجرة المحيطة بالفناء والتى غلبت عليها العتمة، ذلك أن وجود أنثى فى المعتقل حدث جلل ، فما بالك لو كانت أنثى جميلة ، جذابة ، مغرية مثل شويكار التى أمسك زوجها بذراعها فى حنان بالغ والذى كان واعيا بالعيون الكامنة لكنه كان أدرى بطبيعة حياته مع هؤلاء البؤساء .

كان سعد فى قاع دوامة من الجنون الشبقى عندما انفرد فى مشيته الهامسة بشويكار . اجتاحته رغبة عاصفة كى يحتويها بين ذراعيه وساقيه فى جسد واحد ، ولكن ما العمل وأحاديث المصير الملحة لم تنته بعد ، خاصة فى تلك الفرصة السانحة البعيدة عن الميكروفونات المخبأة ؟! قطعت شويكار حفيف الفراغ بصوتها

السارى فى عروق سعد النابضة :

— تزوج مجدى الطوبجى من زميلة لى بقسم اللغة الإنجليزية تدعى هند .. كانت متعثرة فى دراستها التى لم تكملها بمجرد زواجها من مجدى !

نظر سعد إلى ساعة يده فى بعض القلق :

— لم أكن أعرف أن على بدران له ابنة فى هذه السن ! فالناس لا يتناقلون سوى زواجه من ممثلة الإغراء إياها !!

— إنها ابنته من زوجته الأولى التى لا يعلم أحد شيئا عنها .. سواء أكانت حية أم ميتة أم مطلقة ؟؟ عموما فهى فتاة طيبة وجميلة بل وتافهة .. ويبدو أن علاقتها بأبيها غير حميمة .. خاصة بعد زواجه من الممثلة إياها !

— ومع ذلك فهو لا يزال يطاردك ؟؟

— لا تخف فأنا أستطيع أن أصمد فى مواجهة الجحيم نفسه !

— أعتقد أن هناك عقدة نقص تسيطر على هؤلاء الناس فى كل تصرفاتهم تجاهنا .. إنهم ناقمون علينا ليس لأنهم يختلفون معنا من أجل صالح مصر.. ولكنهم يريدون أن يتشبهوا بنا ثم يتفوقوا علينا !!

أحست شويكار بالفرصة سانحة أخيرة كى تفضى إليه بأخطر خبر جاءت به فى جعبتها ، وكانت تخشى عليه من وقع الصدمة ، لكنها تأكدت الآن من مرونته الفائقة فى تلقى الصدمات وتبريرها :

— والدليل على كلامك يا حبيبى .. أن محلنا فى الشوارلى وضع تحت حراسة حسين الطوبجى ضمن محلات كثيرة فى القاهرة والإسكندرية !!

تأملت ملامحه لكن سرعان ما تحولت طلائع الصدمة إلى سخرية مريرة وقال بصوت عال ردد صداه همس السكون :

— كأن قضاءنا وقدرنا تجسد فى هذه الأسرة التى لا تتوقف عن مطاردتنا للقضاء علينا !

وجد أن صوته كان عاليا أكثر من اللازم فنظر حوله ثم همس :

— ومن الذى يديره ويعمل به الآن ؟!

— مجدى الطوبجى يذهب إليه من حين لآخر ليشرف على العمال الذين أعادوهم أو استدعوهم بمعرفته !!

— وبحجة تقديم نصيبك الشهرى من المحل شرع مجدى فى إعادة التمسح بك ! تفجرت نبراتها بتصميم فولاذى :

— أفهمته بمنتهى الحدة والحسم أنه يمكن إرسال نصيبنا على حسابك بالبنك .. وقدمت إليه رقم الحساب حتى لا يدعى جهله به .. ومع ذلك واصل صفاقته معبرا عن رغبته المخلصة الخالصة فى السؤال المستمر عن أحوالى لعلى أكون فى حاجة إليه خاصة وأن موضوع اعتقالك سوف يطول شرحه إلى آماد لا يعلمها سوى الله .. وقد حاول محاولات يائسة وعديدة للإفراج عنك لكنه أكد أن صلاح خلف كان قد أحكم حولك أدلة الاتهام بحيث لم يعد هناك أى مفر .

صمتت لالتقاط أنفاسها فعلق سعد وهما يواصلان الدوران فى دائرة الفناء المغلق :

— مجدى الطوبجى من النوع الذى يقتل القتيل ويسير فى جنازته .. وأنا الآن متأكد أن صلاح خلف لم يكن سوى أداة آل الطوبجى فى اعتقالى !! وأنا لن أخرج من المعتقل طالما هؤلاء على قمة السلطة !؟

— ربك كبير .. المهم أننى صارحته إذا كان مصرا على تقديم العائد الشهرى بنفسه فليقدمه لصاحب الشأن وهو أنت !! تخابث باستحالة تقديمه إليك فى المعتقل .. عندئذ نهضت واقفة لإنهاء المقابلة وأنا أقول بمنتهى الحسم : إذًا .. عليك أن تدخر نصيبه له حتى يخرج بسلامة الله !! اضطر للنهوض والسلام والخروج دون أن يجرؤ على النظر إلى عينى !

رفع يدها إلى فمه وقبلها بتعبد متدفق ووجد صوفى دون أن يعبأ بالعيون المتلصصة داخل النوافذ المعتمة :

— عوضنى الله بك عن كل ما أصابنى !

كانا قد اقتربا من الأب فى جلسته على مستطيل المقعد الحجرى ، فإذا بهما يجلسان على يمينه ويساره دون تفكير . ربت الأب فى حنان بالغ على ركبة ابنه وقال

بنبراته المرتعشة :

ــ لا تعلم يا سعد مقدار سعادتى بك هذه المرة .. فأنت تطبق دون أن تدرى تقليدا قديما من تقاليد أسرتنا والأسر المشابهة لها .. فقبل الثورة « المباركة » .. فى أواخر الأربعينيات على وجه التحديد .. فى آخر برلمان للسعديين كثر عدد النواب المستقلين بدرجة غير مألوفة .. وكان ذلك إيذانا بانحطاط الحياة السياسية الذى تضاعف بعد الثورة .. فالمستقلون لم يكونوا من المعترضين على الأوضاع القائمة كما تمثلت فى الأحزاب السياسية .. وإنما كانوا مجرد انتهازيين يأكلون على كل الموائد .. ولذلك اضطرت أسرنا الكبيرة .. وكنا واحدة منها .. إلى توزيع رجالها وشبابها عمدا على كل الأحزاب ليكون لها انتساب لكل من يتولى السلطة فى البلاد .

ابتسمت شويكار فى شقاوة محببة طالما غمرت قلب سعد بالنشوة :

ــ لو كان سعد انتهازيا لما جرى له ما جرى !

ــ سعد ورث عنى هذه القيم .. لكن هذا زمن غريب .. قلب الدنيا رأسا على عقب .. وكل ما أتمناه أن نهتدى إلى بر الأمان بعد أن كدنا نختنق غرقا .. ومن حق الإنسان أن يبحث عن كل الأسلحة التى تمكنه من الدفاع عن كيانه ومستقبله ومصيره .. وحبذا لو استطاع الحصول على نفس الأسلحة التى يستخدمها خصمه .. خاصة إذا صارت أسلحته القديمة غير صالحة لمعاركه الجديدة .. فكل معركة ولها أسلحتها .. ومن يقصر فى الحصول عليها واستخدامها هو مجرم فى حق ذاته ! والجريمة ضد الذات لا تقل بشاعة عن الجريمة ضد الآخرين .

ربت سعد على كتفى أبيه بطول ذراعه :

ــ لا تخف يابابا .. فأنا الآن أتحسس جدران القلعة .. وأعتقد أننى على وشك اكتشاف ثغرات يمكن النفاذ منها .. وأنت تعلم أننى نجحت فى اختراقها من قبل وإن لم تكن راضيا عن السلاح الذى استخدمته !

أردف الأب بصوته العذب المرتعش بالحنان :

ــ عليك أن تفعل كل ما فى إمكانك حتى تعود لبيتك وحياتك .. لكن بمنتهى

الحرص .. واترك الباقى على الله .. فدوام الحال من المحال .. خاصة إذا كانت الحال شاذة وغير طبيعية كما هى الآن .

فجأة نهض سعد قافزا كمن لدغه ثعبان وسط ذهول الأب والزوجة وهو يتحسس قوائم المقعد الحجرى وباطنه وجوانبه ، ثم يسترد أنفاسه والأب يسأله فى لهفة الخائف على عقل ابنه من جنون المحنة :

— ماذا جرى يا بنى ؟! هل شعرت بشىء مفاجئ ؟!

عاد سعد للجلوس محاولا السيطرة على خلجات نفسه حتى لا تطفح على نبرات صوته وتبعثر أفكاره وسط كلماته :

— أبدًا .. أبدًا .. أردت أن أتأكد من عدم وجود ميكروفونات ملصقة بالمقعد .. فهنا يحصون أنفاسنا ليل نهار !

تهدج صوت الأب :

— كان الله فى عونك يا بنى !

ونهض ثلاثتهم للتجول فى أرجاء الفناء . التصقت شويكار بذراع سعد حتى كاد يشعر بدفء الجانب الملتصق به يسرى فى عروقه اليابسة . ساروا يتجاذبون أطراف الذكريات والخواطر والمواقف والحوادث والأحداث والتأملات والآمال والآلام . وسعد ينظر إلى ساعته من حين لآخر فى قلق متصاعد امتد ليشمل شويكار والأب . فالساعات تتبخر كضباب الفجر أمام شمس يوم قائظ ، وعليهم الإمساك بتلابيب هذه اللحظات ، وحفرها بحروف من نور يضئ لحظات الفراق المعتمة ، وحفظها زادًا لأيام الجوع ، وماءً لليالى العطش .

جاءهم من يخبرهم بحلول موعد الغداء . اختفت العيون المتلصصة من النوافذ المعتمة . ذهبوا إلى القاعة التى اكتظت بالآكلين والشاربين ، بعضهم مدفوع بنهم الهروب من الملل ، والبعض الآخر ينوء بواجب ثقيل على النفس . شدت العيون بخيوط ضعيفة إلى شويكار التى سارت فى معية زوجها إلى ركن قصى أعدت فيه مائدة منزوية لهم حيث التفوا حولها . لكن سرعان ما قطعت العيون خيوطها الخفية حتى لا تجرح كبرياء الزميل ، وتجاهل مجاهد عطية وجودهم تماما فى انكبابه على

طبق الأرز الممزوج بصلصة البطاطس وقطع اللحم المفروم .

وبرغم أن الصمت كان يلف الجميع فيما عدا بعض التعليقات والهمسات العابرة ، فإن أصوات الملاعق والشوك والسكاكين ومضغ الطعام وأقدام الحاملين للصوانى حتى موائدهم ، أحدثت ضجة مكتومة ترددت أصداؤها فى الآذان، فحرم سعد مع شويكار وأبيه تبادل متعة الحديث الملهوف ، المتدفق ، الشهى على النقيض من هذا الطعام الذى لا بد أن يبتلعوه حتى لا يحمل سلوكهم على محمل لا يقصدونه على الإطلاق . انكفأت الوجوه على الأطباق ، لكن النظرات المتبادلة بين شويكار وسعد عبر سحابات دخان المدخنين التى لفت القاعة فى غلالة ضبابية ، حملت لواعج الهوى ، وآمال المستقبل ، وأشواق الروح ، وأفراح الوصال ، وسهد الفراق ، وأصداء الماضى ، وكابوس الحاضر، ويوم الاستيقاظ منه .

أوشك سعد على الاعتقاد بأن انفعالاته الهادرة داخل كهوف نفسه وسراديبها قد صارت عاصفة كاد يسمع عواءها ، ولكن لفتة سريعة منه إلى النافذة المجاورة أكدت أن عاصفة رملية قد شرعت فى الهبوب ، فاجتاحه خوف دفين على زوجته وأبيه من رحلة العودة وسط دوامات الصحراء التى تطمس الطرق والمعالم ، وفكر فى استعطاف القائد لتأجيل الرحيل حتى تنداح العاصفة ، ولكنه كان يعرف رأى أبيه مقدما : الهروب من المكتوب عبث لا طائل من ورائه .

هرب من قتامة أفكاره بخاطر سرى بحماسة التحدى فى عروقه :

ـــ إذا ضايقك مرة أخرى فعليك بإبلاغ زوجته .. فربما قطعت عليه الطريق تماما !

فهم الأب أنه يكلم زوجته عن مجدى الطوبجى ، فنظر إليها منتظـرا ردها يحدوه إعجابه بقوة شخصيتها :

ـــ هند لا حول لها ولا قوة .. لا تقلق فأنا بعشرة رجال !

انتهوا من الطعام وازدراد بعض فصوص البرتقال . وعلى مرمى البصر بالقرب من الأسلاك الشائكة المكهربة ، لم تخف دوامات الرمل الترابى الناعم سيارة سوداء

مغلقة وقفت بمحاذاة رصيف خزان البنزين الذى امتد خرطومه من العداد إلى خزانها يمده بالوقود . أدرك سعد أنها السيارة التى ستقل أعز مخلوقين على قلبه فغمرته موجة عارمة من الاكتئاب . ربتت شويكار على يده محاولة التخفيف عنه برغم الثقل الذى يشد قلبها إلى باطن قدميها :

— سرعان ما نعود إليك !!

بدت بوادر ابتسامة شاحبة على وجه الأب :

— ولماذا لا يعود هو إلينا ؟! بقاء الحال من المحال !

أسرع سعد بمجاراتهما محاولا طرد هواجسه المخيفة فى استماتة :

— إن شاء الله !! قلبى يحدثنى هذه المرة أن باب الفرج قريب !!

أمّن الأب على كلامه :

— بإذن الله .. كل شىء بإذنه !!

عاد القلق ليطفح على نبرات سعد المتسائلة .

— لكن هل يمكن أن تسافرا فى هذه العاصفة الرملية ؟!

— لا تخف فالله خير حافظا .. وهو أرحم الراحمين ..

— ونعم بالله !

قالها سعد فى استسلام كامل لمشيئة الله ، لكن شويكار ربتت على يده مرة أخرى :

— الحمد لله أننا لن نسافر ليلا كالمعتاد .. والسيارة قوية ومجهزة لسفر الصحراء .. الساعة الآن الثالثة .. قبل العاشرة مساء سنكون فى القاهرة .

لهج لسان الأب بحرارة طغت على ارتعاشة ألفاظه :

— إن شاء الله .. إن شاء الله ..

— سلامى وقبلاتى الحارة لماما .. وإخوتى عندما يتصلون بكم من الكويت !

تشبثت عينا شويكار بوجهه حتى تأخذ منه زادا للفراق :

— وماما وبابا وإخوتى على أحر من جمر لرؤيتك !!

أضاف الأب محاولا التماسك حتى لا يجهش بالبكاء :

— ليس لأحد سيرة بيننا سواك .. سواء فى جلساتنا أو خطاباتنا أو مكالماتنا التليفونية !

أكدت شويكار كلمات الأب وبريق الدموع فى عينيها :

— أنت موجود معنا بروحك .. ولا ينقصنا سوى شخصك !

ران صمت ثقيل مشحون بانفجارات عاطفية وشيكة مع انقشاع بعض ضباب الدخان برحيل معظم الآكلين والشاربين فى القاعة التى عادت إلى سكونها شبه المطبق الذى قطعته خطوات الحذاء العسكرى لرجل الأمن القادم إلى المائدة الخشبية العارية :

— السيارة مستعدة للرحيل !

نهضوا فيما يشبه الانتفاضة برغم أثقال القلوب الحديدية ، وساروا خلف الرجل الذى قادهم عبر الممر الطويل شبه المعتم حتى بلغوا البوابة الحجرية حيث فتح الحارسان المسلحان ضلفتيها الحديديتين لتلفح دوامات الرمال الناعمة العيون المبتلة بندى الدموع . كانت السيارة تقف كنعش أسود كبير بستائرها المسدلة على نوافذها . أوشكوا على الانفجار بكاء لكن الحارسين المسلحين الواقفين بجوار السيارة فتحا بابها صائحين بلهجة عسكرية :

— تفضلوا !

تبادلوا الأحضان المرتعشة ، والدموع الصامتة ، والقبلات المرتجفة عدة مرات قبل أن يخلع الأب وشويكار نفسهما من عناقه ، وتبتلعهما السيارة التى أغلقت بابها ، ودار محركها كهزيم الرعد فى أذنى سعد ، كى تنطلق وخلفها سحابة من طبقات الرمال الكثيفة التى سرعان ما انضوت داخل الدوامات الدائرة وسط حفيف الفراغ وصفير الرياح وعيون سعد الغائمة وهو يعود خلف البوابة الحالكة التى أغلقت لتبتلعه الكآبة والملل أخرى وقلبه يلهج منتفضا :

— كتب الله لهما السلامة . كتب الله لهما السلامة !

٥

ـــ الآن عرفت فقط أنك تزوجتنى لأننى ابنة على بدران اليد اليمنى للمشير !!

قالتها هند والامتعاض يعلو قسماتها الدقيقة الرقيقة فى جلستها إلى مائدة العشاء التى لم تمد يدها لتتناول منها شيئا ، لكن مجدى تظاهر بالتهام قطعة من اللحم المشوى أعقبها بكأس من النبيذ الأبيض :

ـــ ومن أين لك بهذه المعلومة الخطيرة ؟!

ضايقها تظاهره بعدم الاهتمام ورنة السخرية الواضحة فى تعليقه :

ـــ لأنك لا تحبنى وإنما تحب شويكار تاج الدين التى تلهث وراءها والتى تحب زوجها ولا تطيق مطارداتك لها ! الكل يعرفون هذا وغير مصابين بالعمى والصمم كما تظن !

ألقى مجدى الشوكة والسكين فى طبقه وحك شاربه الدقيق بأصابع عصبية :

ـــ وهل تصدقين أية شائعات مغرضة ؟! أتظنين أننى من الغباء كى ألهث وراء امرأة من العهد البائد .. وأنا أمامى المستقبل مشرق وعريض ومجيد !!

ـــ وهل تعتقد أن كل المترددين على النادى كاذبون أو مخدوعون ؟!

ـــ فليذهب الجميع إلى الجحيم إذا كان الأمر مجرد محاولات لتشويه صورتى .. أما إذا كان أحد قد وشى بى عندك .. فلابد أن أعرفه الآن !!

ترددت هند بعض الوقت ثم اضطرت إلى التلعثم تحت وطأة نظراته :

ـــ أبدًا .. أنا أنقل إليك ثرثرة النادى!

ثم تشاغلت بمنظر النيل وهو يتهادى تحت الشرفة التى تطاول السحاب فى الشقة الفاخرة التى حصل عليها مجدى من شقق الحراسة . كانت أنفاس الربيع الحانية صافية ، دافئة نقية لم تلوثها زوابع الخماسين بعد . لم تحتمل هند نظرات زوجها المنطلقة إليها كسهام نارية فتجرعت كوبا من المياه الغازية . قال بثقة بالغة وهى

تضع الكوب على المفرش الأبيض الحريرى الذى يغطى المائدة المستديرة :

ـــ عموما فأنا أعلم من أخبرك بهذا! هذه الطبقة اللعينة لا تريد أن تتخلى عن عنجهيتها أبدًا ! وتظن نساؤها أن الله حباهن من السحر والجمال ما لا يستطيع رجال الطبقات الأخرى مقاومته ! يظنون أننا لا نزال نلهث وراءهم لأنهم لا يزالون يتوهمون أنهم محور الكون .. فى حين أن علاقة واحد مثلى بواحد أو واحدة من أمثالهم هى بمثابة شبهة أو حتى وصمة لى !! كيف يربط المستقبل المشرق نفسه بالماضى المظلم الذى انتهى ولن يعود أبدًا !

واصلت هند صمتها وهى تتابع بعض قوارب العشاق التى رصعت صفحة النيل بوميض الفوانيس الخافتة . تجرع مجدى كأسا من النبيذ الأبيض :

ـــ هل تسمعين ؟!

ـــ نعم ! أسمعك !

ـــ ولماذا لا تردين ؟!

ـــ أفضل الاستماع إليك !

ـــ لأنك لا تجدين الدليل على اتهامك هذا .. على كل حال .. سيكون هذا الصيف صيفا حاسما ! وعندما يتحقق كل مانتمناه جميعا فلن نرحم هذه الفئة المغرورة التى تظن أننا نستميت فى التشبه بها.سنستأصلها من جذورها تماما .. ولن تقوم لها قائمة مرة أخرى مهما حاولت تغيير جلدها !!

ـــ ولماذا هذا الصراع أساسا ؟! أليس الرئيس والمشير أصدقاء وزملاء عمر لدرجة أن كلا منهما أسمى ابنه باسم الآخر ؟! صحيح أننى لا أفهم كثيرا فى السياسة .. لكن هذا الصراع سيضعف من قوة الثورة فى مواجهة خصومها فى الداخل من أمثال العنترى وتاج الدين.. وأعدائها فى الخارج وفى مقدمتهم إسرائيل وأمريكا !

أشعل مجدى سيجارا فاخرا وأطلق دخانه ذا الرائحة النفاذة عبر سور الشرفة المعدنى المجدول بفرع النبات المتسلق :

ـــ ولهذا السبب نفسه لا بد أن يحسم الصراع لصالحنا .. فالقوات المسلحة هى

درع البلاد ضد أى هجوم .. أما الاعتماد على الشعب فهــو مجرد اعتماد على الشعارات والهتافات والحناجر.. ولذلك أصبح عبد الناصر مجرد زعيم أو رئيس رمزى .. وهذا وضع شاذ إذ أن القرار لا بد أن يصدر عنه فى حين أنه لا يملك القدرة على صنعه . ولولا علاقة قواتنا المسلحة الوثيقة بالقيادة السوفيتية لهادن أمريكا .. ولولا لجنة تصفية الإقطاع التى يرأسها المشير لهادن أمثال العنترى وتاج الدين وغيرهم ! ويظن أنه بالشعب يستطيع أن يواجه الجيش .. لكن العجلة دارت والقطار فاته .. حتى هيئة النقل العام ومؤسسة الثروة السمكية أصبحتا تابعتين للقوات المسلحة . لم يعد له مفر من تسليم الحكم للقوة الحقيقية التى تمسك بمقادير الأمور !

اقتربت هند بمقعدها من السور المعدنى ثم وضعت قدميها على قاعدته متسائلة فى دهشة :

— وهل تتصور أن الشعب سيدير ظهره لجمال عبد الناصر بهذه البساطة ؟

— ربما سيكون الأمر فى البداية بمثابة صدمة عنيفة له !! لكن كل شىء يمكن تبريره بطريقة أو بأخرى !! والحمد لله فشعبنا ينسى بسرعة .. وطالما أن لقمة العيش متوفرة فكل الأمور لديه تأتى فى المرتبة الثانية أو العاشرة !!

تململت فى جلستها لتفاجئ مجدى بتغيير الموضوع .

— الملل يكاد يقتلنى .. ولا أجد ما يشغل فراغى !! لقد أخطأت عندما قطعت دراستى بقسم اللغة الإنجليزية !!

— وهل هذه تهمة أخرى بأننى السبب فى قطع دراستك ؟!

— أنت شجعتنى على هذا بحجة سفرك إلى الخارج وعدم قدرتى على الدراسة المنتظمة .. وحتى الآن لم نسافر !!

— أنت تعلمين جيدا أننى مرشح للعمل سكرتيرا أول فى سفارتنا فى موسكو واسمى مكتوب فى قوائم الحركة الدبلوماسية القادمة !!

— ما ضايقنى أن شويكار تحمل الآن مؤهلا جامعيا .. فى حين أتخلى أنا عنه بمنتهى البساطة لأصبح من حملة الثانوية العامة !!

ــ ألم يكن هدفك الإنجاب والتفرغ للبيت ؟!
ــ لدينا الطباخ والخادمة .. أما الإنجاب فلا أعرف متى !!
حاول مجدى حسم الموضوع بعبارات قاطعة :
ــ هذا الكلام لا يقدم ولا يؤخر .. إذا كنت تريدين مواصلة الدراسة فلا ترددى!! وإذا كنت لا ترغبين فى السفر معى فأنا لا أجبرك !!
أوشكت العبارة الأخيرة أن تصيبها بشهقة سرعان ما كتمتها :
ـ يبدو أننى لا أشكل ضرورة بالنسبة لك ؟!
ابتسم مجدى فى خبث وهويطلق نفسا صافيا طويلا من سيجاره الذى أعاد إشعاله :
ــ هكذا أنا متهم دائما .. تارة ألهث وراء شويكار تاج الدين !! وتارة أخرى أتسبب فى قطع دراستك !! وثالثة أهملك تماما لمجرد أننى أؤكد لك حريتك الشخصية فى فعل ما يروق لك !!
ترددت للحظات ثم قاومت بوادر التلعثم :
ــ لا أعرف يا مجدى ! هناك إحساس غامض يقلقنى من حين لآخر ولا أستطيع أن أطرده !
ــ ولماذا تكتمينه عنى ؟!
ــ أخاف أن تغضب !!
وضع السيجار فى المنفضة الفضية اللامعة منتبها إليها بشدة :
ــ أغضب حقا إذا لم تبوحى به !!
ــ لا أعرف لماذا أشعر أننى على هامش حياتك ؟! ويمكن أن أطرد منها فى أية لحظة ؟!
لم تبد عليه الدهشة بل سيطرت على وجهه بوادر الأهمية البالغة :
ــ هذا إحساس غير ناضج ! أنت لا تقدرين وضعك كزوجة رجل مهم .. فى سبيله كى يصبح وزيرا لخارجية الجمهورية العربية المتحدة فى المستقبل القريب !

حكت ما يدور فى وجدانها كأنها لم تسمع ما قال :

— حتى فى الوقت الذى تقضيه فى البيت .. لا تتحول عيناك عن الكتب التى تقرأها !!

— وهل يعقل أن يكون عضو التنظيم الطليعى وأمانة الفكر والدعوة بالاتحاد الاشتراكى غير مثقف ؟!

— وهل يتحتم عليه أن يكون غير مهتم بزوجته ؟!

— أنت لا تفكرين إلا فى نفسك لأنك لا تعلمين مدى المسئوليات الملقاة على عاتقى .. حتى محاضراتى لم تحضرى واحدة منها !!

— لا أعرف من أين تأتون بهذا الكلام ؟! ما تقولونه تكررونه دون أدنى ملل أو تعب !!

— لا تقولى هذا أمام أحد !! فكلام « الميثاق » ليس مملا على الإطلاق !! إنه دستور للحياة ومنهاج للعمل يحتاج إلى مئات المحاضرات والشروح حتى يمكن استيعابه ! وأنا على استعداد للذهاب إلى أى مكان من أجل هذه المهمة القومية حتى لو رفضت اصطحابى !!

ومضت عيناها السوداوان ببريق تساؤل حاد :

— إلى أين تنوى الذهاب ؟!

أشعل سيجاره مرة أخرى وأطلق نفسا صافيا عبر السور المعدنى . وضع ساقا على ساق ثم قال من وراء ابتسامة غير مريحة :

— قبلت التحدى الذى لم يجرؤ عليه أعضاء لجنة الفكر والدعوة .. وقررت الذهاب إلى أحد المعتقلات لإلقاء محاضرة عن « الميثاق » حيث يوجد عتاة الشيوعيين والإخوان وباقى أعداء الثورة!!

استدارت هند لتواجهه فى جلستها التى انتصبت بعد استرخاء الملل.سعد مجدى لإثارته اهتمامها أخيرا لكنها قالت :

— أقسم أنه المعتقل الذى ألقى سعد العنترى فيه !

ثم أشاحت بوجهها صوب المصابيح التى ترصع ضفتى النيل ، حتى لا تحرجه

بمتابعة الحرج الذى غمر عينيه وشفتيه ، فهى ليست بالتفاهة أو السذاجة التى يتصورها عنها . هبت نسمة دافئة بأنفاس الربيع حملت أريج الياسمين المحتضن لأسياخ السور المعدنى ، وكلماتها المتسائلة فى براءة لم يعد يحتملها :

— لا أعرف السر فى إصرارك على مطاردة هذه الأسرة !!

ضرب المائدة بقبضة يده فتناثر رماد السيجار على المفرش الأبيض ، لكنها لم تهتز فى جلستها بالقدر الذى توقعه ، فلم ترتعش سوى جفونها فى غمضة عينيها وانتباهتها . تحول حرجه إلى ضيق بها حتى تمنى أن يلقى بها من أعلى الشرفة إلى أعماق النيل . إحساس لم يمحه سوى صورة على بدران التى غطت الأفق أمام عينيه . لعن فى صمت الزمن الذى مكن أباها من أن يسبق أباه فى التقرب من المشير . كبت كل ما يدور داخله وقال بنبرات تهبط إلى درجة الهمس الهادر :

— إياك أن تظنى أننى مكلف بالدفاع عن نفسى ضد اتهاماتك الغريبة !!

وكان على وشك أن يقول « السخيفة » وصفات أخرى لكنه آثر أن يحتفظ بسيطرته على انفعالاته حتى لا يفتح على نفسه جبهة على بدران ، وهى جبهة شبيهة بأبواب الجحيم . أضاف مخففا من وقع هدير همسه :

— أرجوك .. حاولى أن تفهمينى أفضل من هذا ! فأنا فى حاجة إلى زوجة تساندنى وتشد من أزرى .. لا أن تصر على وضعى فى قفص الاتهام !

لم تجبه. كانت راضية عن إظهار قدرتها على تعريته. لم يحتمل مواصلة الجلسة الكريهة المشحونة باحتمالات متفجرة قد لا تحمد عقباها، فنهض مدعيا التمطى والتثاؤب:

— غدًا يوم سفر طويل وشاق .. لا بد أن أنام أطول فترة ممكنة .. عن إذنك ! تصبحين على خير !

تفجر بركان الكمد داخلها . لم يعبأ حتى بدعوتها للنوم !! كل كلمة ، إشاره ، لمحة ، حركة ، كل نظرة منه تؤكد لها إحساسها الدفين الخانق بأنه لا يرى فى الوجود سوى نفسه برغم كل الكلمات المعسولة التى صبها فى أذنيها فى فترة الخطبة لدرجة أنها كانت على وشك الظن بأنهما سيكرران قصة « قيس وليلى » أو « روميو وجوليت » لو تأكدت تماما أنه تزوجها ليكسب أباها إلى طابور طموحاته ، فستعرف جيدا كى تنتقم منه مهما تشدق

بحكم « الميثاق » ومآثوراته ودرره الغالية !!

ارتدى مجدى البيجاما الحريرية الحمراء وارتمى على الفراش العريض ، الوثير ، الفاخر . أطفأ نور الأباجورة المجاورة ليده وتقلب حتى الطرف الآخر لكنه سرعان ما عاد إلى حافة الفراش المقابلة لأنه لم يحتمل بقايا عطرها المتشبث بالوسادة والحشية . أغمض عينيه على صورة السيارة المنطلقة عبر الصحراء صوب غريم العمر ! ماذا سيكون إحساسه بالذهول عندما يراه وجها لوجه ؟! إنها مواجهة مثيرة ولا بد أن تكون كذلك بين قاع الذل وقمة المجد !! لا بد أن يدرك أن الحب بينه وبين شويكار الذى يبدو وكأنه إصرار منهما على قتله حنقا وكمدا .. مجرد وهم كاذب وخداع لنفسيهما قبل أن يكون خداعا لأى إنسان آخر خاصة هو !! ولا بد أن تدرك هى بدورها أن عنجهيتها القديمة لن تؤدى بها إلا إلى ربط عنقها بحجر متهاو وسط لجج لاقرار لها ! إنه لا يلهث وراءها كما تظن المعتوهة زوجته !! لكنه يريد لكل أعداء الثورة أن يفتحوا عيونهم على حقائق االحياة الجديدة ! فشمس الثورة لا بد أن يراها الجميع حتى العميان أو الذين يتعامون عنها ! عندئذ لن يحاول مطاردة أحدهم بل سيفرغ لبناء الوطن ، لكن لا بد أن ينهض البناء على قواعد سليمة ومتينة وذلك بإزالة كل ركام الماضى وطبقاته المتحجرة .

أفاق من شلالات أفكاره الهادرة على شبح زوجته وهى ترتدى قميص نومها وتلقى بجسدها الرقيق على حافة الفراش . سمع ما يشبه شهقات البكاء المكتوم لكنه لم يعبأ ، فمن أجل مسيرة الثورة تهون كل الأشياء ، ومن يحاول أن يثبت عكس ذلك ، عدو لها مهما حاول التقرب من رموزها ! تثاءب ووجه شويكار بعينيها اللتين تمزجان . فى سعتهما الزرقة بالخضرة ، والأنف الشامخ ، وجدائل شعرها المتدفقة بلمعان بنى فاتح ، يملأ بياض عينيه ..

شعر بزحف هند حتى كادت أن تلتصق به. فجأة احتواها فى أحضانه فاستكانت له كقطة أليفة لم تهتم بما يدور فى مخيلته السابحة فى ظلام الغرفة مع أطياف شويكار .

ــ السلطات راضية تماما عنك .. وصرحت بزيارة الأسرة لك مرة كل شهر على أقل تقدير .. وهذا فأل طيب بقرب الإفراج عنك !

قالها القائد وابتسامة عريضة تفترش وجهه الأسمر الصبوح خلف مكتبه الذى جلس سعد أمامه وقد شابت سعادته الجديدة بالأنباء الواردة غصة خفيفة لم يلبث أن صارح بها القائد:

ــ كل هذا بفضل الله وبفضل سيادتك .. لكن الزملاء بدءوا يتحاشونى !! وتجنب بعضهم مجرد إلقاء تحية الصباح أو المساء علىّ حتى لو التقت العيون !! أما مجاهد عطية الذى كثيرا ما استمتع بالثرثرة معى فقد قاطعنى كأنه لم يعرفنى فى يوم من الأيام !!

عاد القائد إلى جلسته المشدودة إلى المكتب متسائلا فى ضيق :

ــ وهل شكوا فى تصرفاتك ؟!

ــ يبدو أنهم شكوا فى ترددى شبه المنتظم على مكتب سيادتك ؟!

ــ وضعت ذلك فى اعتبارى أيضا !! ولذلك كنت أستدعى أفرادا منهم من حين لآخر لأسباب مختلفة إلى مكتبى حتى ينطبق عليهم ما ينطبق عليك !

نظر سعد إلى صورة عبد الناصر المعلقة فوق المكتب بعينين فقدتا بعضا من بريقهما الذى يمزج الخضرة بالزرقة :

ــ يبدو أنهم من الذكاء والدهاء بحيث لا تنطلى عليهم مثل هذه الحيل !!

ــ هل يمكن أن تكون قد عريت نفسك بسؤال مباشر أو تعليق مكشوف ؟!

ــ تعلمت الحرص الشديد من سيادتك .. ولذلك أصبحت كلماتى وتعليقاتى فى أضيق الحدود .. بل كنت فى كثير من الأحيان ألوذ بالصمت المطبق !!

ضرب القائد بيده على زجاج المكتب كأنه وجدها :

ـــ وهذا أيضا خطأ ... فلا بد أن يظل سلوكك على ما هو عليه .. حتى لا تثير أية شبهات حولك !!

ـــ لا أعتقد أن سلوكى قد تغير كثيرا لدرجة إثارة الشبهات .. لكن يبدو أن ترددى على مكتب سيادتك .. وحماسى الشديد لكل ما جاء فى « الميثاق » لدرجة أننى حفظته عن ظهر قلب .. هما السبب ؟!

ـــ الأمر فى غاية البساطة .. سأمنحك جهاز إرسال صغير يمكنك استخدامه فى الاتصال بى من حجرتك . أما عن حماسك الشديد « للميثاق » فيمكنك التخفيف منه بالتدريج البطىء .. بل يمكنك بعد ذلك نقده والهجوم عليه فى بعض النقاط التى يمكن أن تكسبك تعاطفهم .. وسأبدأ أنا بدورى من الآن فى تغطية دورك تماما !

ألقى سعد بنظرة كسيرة إلى الصفرة الصحراوية المحاطة بالأسلاك الشائكة خارج النافذة :

ـــ تحت أمر سيادتك !

ـــ المهم ألا تشعر أنك ترتكب عملا من أعمال الجاسوسية أو خيانة الزملاء .. فمن المهم أن تكون أخبارهم عندى أولا بأول حتى أتمكن من حمايتهم إذ لا يمكن وضع الميكروفونات فى كل مكان .. خاصة فى الهواء المطلق .. وأنت بنفسك لمست كيف حميتك أنت ومجاهد عطية من الثرثرة الخطرة التى كان يمكن لقائد غيرى إرسالها فور تسجيلها إلى السلطات المعنية لتتخذ ما تراه من عقاب رادع لا داعى لذكر أساليبه وأنواعه !

أفاق سعد من كآبته الطارئة على ذكر العقاب الرادع :

ـــ كل ما يهمنى هو سلامة الوطن وحماية الزملاء من أنفسهم !

ـــ فعلا .. ففى بعض الأحيان يكون الإنسان أخطر عدو لنفسه ! ولولا الأفكار الصبيانية التى أمسكت بعقول المعتقلين هنا .. لما كان هذا المعتقل .. ولما كنت أنا معتقلا مثلكم فى هذا المكان الكريه لا أعرف متى يتم نقلى منه برغم كل المساعى المستميتة التى بذلتها حتى أعود إلى زوجتى المريضة فى القاهرة !

— نرجو لها الشفاء العاجل .. والإفراج العاجل لنا جميعا !!

سعد القائد لزوال الحواجز بينه وبين سعد الذى مكنه فى الفترة الأخيرة من إحكام قبضته تماما على المعتقل بحيث أصبح قادرا على حسم المتاعب قبل وقوعها ، مما رشحه للترقية لرتبة اللواء التى يمكن أن ينتقل بعد الحصول عليها إلى الإدارة بالقاهرة . قال والابتسامة تعود لتفترش وجهه المتسائل فيما يشبه الدعابة :

— هل تعرف من المسؤل القادم اليوم من أمانة الدعوة والفكر لإلقاء محاضرة عليكم عن « الميثاق » ؟!

— لا بد أنه واحد من التلاميذ النجباء فى مدرسة « الميثاق » الذين رأينا بعضهم من قبل وهم يعلموننا كأننا فى المرحلة الابتدائية !

داعبه القائد فى تخابث لطيف :

— القادم اليوم له دلالة خاصة جدا بالنسبة لك !

— سيادتك تشوقنى أكثر من اللازم !!

— التعليمات والأوامر تنص على عدم ذكر تفاصيل شخصية عن المحاضر .. ولذلك فنحن نقدمه بصفته فلان عضو أمانة الفكر والدعوة أو الدعوة والفكر لا أعلم أيهما قبل الآخر !

— وأنا لا أريد أن أعرف سوى هذه المعلومات !

واصل القائد دعاباته والابتسامة تتسع لتكتسح أمامها جحافل الكآبة القديمة ولتشيع التفاؤل فى عروق سعد :

— والأوامر تنص أيضا على عدم ذكر هذه المعلومات إلا قبل المحاضرة بلحظات !!

— ولماذا كل هذه الاحتياطات ؟!

— حتى لا يتربص الحاضرون بأسئلتهم وتعليقاتهم بالمحاضر الذى يمكن أن يُحرج ويتعرى أمام هؤلاء المثقفين الخطرين !!

— وما فائدة هذه المحاضرات إذا كان المستمعون أعمق ثقافة ووعيا من المحاضر نفسه ؟!

ـــ إنها تظهر نوعية التجاوب أو النفور على وجوه الحاضرين حتى إذا لم ينبسوا بينت شفة !!

ـــ وهل لى دور فى هذا الشأن ؟!

ـــ يمكنك أن تفعل ما تراه مناسبا ومفيدا دون أن تتلقى منى تعليمات عن كل كبيرة وصغيرة !

لم يستطع سعد أن يمنع نفسه من ابتسامة نازحة من أعماقه :

ـــ لكن سيادتك لم تفض إلىّ باسم المحاضر ذى الدلالة الخاصة جدا بالنسبة لى ؟!

ـــ هل خانك ذكاؤك ؟!

ـــ استعرضت فى ذهنى كل من أعرفهم .. فلم أجد بينهم من يمكنهم لعب هذه اللعبة !!

تجهم وجه القائد بعض الشىء :

ـــ لا تستخدم مثل هذه التعبيرات .. فأنت أيضا يمكن أن تتهم بمثل هذا الخداع ولا أقول اللعبة !!

نظر سعد إلى البساط المترب تحت قدميه وقد عاودته الكآبة :

ـــ آسف لم أقصد هذا المعنى ! فلم أقله إلا على سبيل التباسط مع سيادتك !!

ـــ أخاف أن تتباسط مع أحد غيرى فيقع ما لا تحمد عقباه !! فكلمة واحدة فى هذا الزمن يمكن أن ترسل الإنسان وراء الشمس !!

لم ينطق سعد بل ظل مركزا عينيه على البساط المترب كطفل ارتكب ذنبا وأوشك على تلقى العقاب . أراد القائد أن يغير من حالته الكئيبة بعد أن لقنه الدرس الذى سرعان ما وعاه سعد ، فقال وهو يضغط على نبرات ألفاظه التى خرجت فى منتهى الوضوح :

ـــ القادم اليوم هو مجدى الطوبجى !

كان سعد على وشك أن يشهق لكنه كتمها وقال دون تفكير :

ـــ مجدى الطوبجى !! غير معقول !! هل يمكن أن يكون مجرد صدفة أم أنه

خطط له كعادته ؟!

ــ لا يهم إذا كان هذا أو ذاك ؟! المهم أنه سيكون بيننا بعد ساعة على أكثر تقدير .. وعليك أن تستعد له كى تكسب هذه الجولة بمنتهى الذكاء والدهاء .. فأنا لا أريد أن يعود كى يدعى اتهامات مغرضة تظهره بمظهر الداعى الواعى المتفحص الذى لا تفوته شاردة أو واردة ! ولا أخفى عليك فهو يعتبرنى من حزب عبد الناصر لمجرد أننى أعتبر نفسى خادما مخلصا للثورة دون اعتبارات شخصية .. وإن كنت لا أتصور أنا شخصيا الثورة بدون عبد الناصر .. وأعتقد أنه إيمان الشعب العربى كله .. ولذلك أعتقد أن مجدى الطوبجى لن يكون حسن النية !

أراد سعد أن يظهر للقائد جانبا من دهائه حتى يطمئن لحسن تقديره :

ــ ولماذا لا يحاولون نقل سيادتك من هنا إذا كانوا غير مطمئنين إليك .. خاصة إذا حلت لحظة المواجهة الكبرى ؟!

ــ سؤالك فى محله ! أولا .. هم يعلمون رغبتى الملحة فى النقل فلماذا يحققون رغبتى ؟! إن الإصرار على بقائى هنا من شأنه أن يوتر أعصابى ويجعلنى أكثر قسوة على المعتقلين فتزداد نقمتهم على عبد الناصر .. وهذا ما لا أفعله كما تلمس بنفسك ! ثانيا .. اعتاد أنصار هذا الحزب الرفاهية على كل المستويات .. فهل يعقل أن يعاقبوا أحدهم بإرساله للإقامة فى هذا الجحيم ؟!

ــ كنت أود أن تصارحنى بقدوم مجدى الطوبجى عندما علمت به حتى أستعد له وأسد كل الثغرات التى يمكن أن ينفذ منها !!

ــ لم أعلم إلا منذ ساعتين .. ولذلك استدعيتك .. كما أننى واثق من قدرتك على تشويه صورته !

عاد الوميض الجاد إلى عينى سعد الواسعتين :

ــ سيادتك تمنحنى فرصة عمرى التى أرجو ألا تفلت من يدى !!

ــ أنا متأكد أنك خير من يقوم بهذه المهمة .. لكن أرجو ألا تترك حقدك الشخصى يدفعك إلى التهور فتشوه صورتك أنت !!

ــ لا تقلق .. فأنا كفيل به بعد أن أتت اللحظة التى ظللت أحلم بها منذ أن

طردت من المدرسة !

استراح القائد لنبرات التصميم الهادئ والثقة المتناهية فى النفس ، التى غلفت صوت سعد ، فقال مداعبا .

ـــ أما من جهة زملائك فاطمئن .. سأجعلك تبدو الثورى الأول ضد قيادة المعتقل .. والمهدد بسبب جرأته فى إبداء الرأى .. حتى يؤنبوا أنفسهم على إساءة الظن بك !

عادت سحابة القلق والكآبة تغطى الوميض الحاد فى عينيه :

ـــ لكن هل يمكن أن يعود إلى القاهرة ليصعد من تنكيله بأسرتى .. خاصة زوجتى !!

ـــ إنك لن تفعل سوى فتح ثغرات فى محاضرته .. بمنتهى الأدب واللياقة .. دون إظهار حبك العارم للثورة وقائدها .. أما بالنسبة لأسرتك فلا تخف .. أصبحت فى حماية جناحنا !!

أدرك سعد مدى اتساع وعمق الشق الخطير بين حزبى الرئيس والمشير ، إذ أن كلا منهما يسعى إلى تكتيل أكبر وأعتى قدر ممكن من القوى خلفه بصرف النظر عن انتماءاتها الاجتماعية والفكرية والسياسية . وهذه فرصة لن تعوض لركوب قطار الثورة الذى فات أسرته منذ خمسة عشر عاما .. لكن يبدو أنه عاد على أعقابه ليتوقف عند المحطات التى أنكر وجودها . بل إن هذا القطار بدأ فى نظر سعد وكأن له قاطرتين : إحداهما تشده من أمام والأخرى تجذبه من خلف . لكن سعدا لم يهتم باتجاه سيره بقدر ما اهتم بركوبه بعد طول انتظار ! فليذهب به حتى إلى الجحيم ! فلم يعد هناك قطار غيره ! وجحيم الثورة خير ألف مرة من الوقوع تحت عجلاته !

تذكر سعد النشوة العارمة التى كانت تجتاح كيانه فى أيام صباه المبكر عندما كان يركب القطار إلى الأقصر وأسوان فى إجازة نصف العام مع أسرته ، وإلى الإسكندرية فى الإجازة الصيفية . وكيف كان يتشبث بالجلوس إلى جوار النافذة لمتابعة كل كبيرة وصغيرة يمر بها القطار : النيل والقنوات ، الحقول والنخيل ، الكبارى والجسور ، الاغنام والماشية ، الفلاحين والفلاحات ، الشروق

والغروب .كذلك كان يستمتع بمشاهدة الصور الفوتوغرافية السياحية المعلقة فى الجدران الخشبية البنية للديوان الفاخر الكبير الذى أعتاد أبوه حجزه فى الدرجة الأولى ! الآن لم يعد لهذه الدواوين وجود إلا فى عربات النوم ، أما فيما عدا هذا فقد اختلط الحابل بالنابل فى كل العربات .

ــ فيم شردت ؟!

اخترق سؤال القائد خواطر سعد الذى استدرك قائلا :

ــ أبدًا .. أبدًا .. كنت أفكر فى الخطة التى سأواجه بها غريم العمر !!

على مرمى البصر خارج النافذة ظهرت بقعة سوداء عند خط الأفق محاطة بهالة من غبار الرمال الناعمة . نهض القائد ومعه سعد الذى عرف مقدما ما سيقوله :

ــ وصل غريم العمر !

دقق سعد البصر ليشعر بحنين جارف إلى السيارة التى بدأت ملامحها تتضح ! إنها نفس السيارة السوداء المغلقة التى سبق أن أقلت زوجته وأباه ، وها هى الآن تأتى إليه بالرجل الذى يصر على مطاردتها منتهزا فرصة غيابه ! آه ! لو أمسكت بعنقك يا مجدى يا طوبجى ! لن أتركك إلا جثة هامدة !

فتح القائد الباب مشيرا لسعد بالخروج . كانت الكراسى فى القاعة الكبيرة قد اصطفت فى خطوط متوازية أمام منضدة عالية وضعت كمنبر . أسرع سعد إلى غرفته وهو ينظر من طرف خفى إلى بعض السائرين فى الممر . تجاهلوه تماما سواء أكانوا من الشيوعيين أو الإخوان . لكنه لم يعبأ بعد أن تمثلت قضيته فى العمل من أجل سلامة أسرته والإفراج عنه فى أقرب وقت ممكن . أما قضايا اليسار واليمين فلا تعنيه فى شيء ، فهى رفاهية فكرية لم يعد قادرا عليها بعد أن ضاعت أيام الرفاهية الحقيقية !

استرخى سعد فى فراشه وقد تخفف من سترته إذ أن شمس الربيع قد أحالت الدفء إلى نذر بصيف ساخن ملتهب . سرح مع خواطره وشوارده حتى دق جرس الاستدعاء فى أرجاء المعتقل ، فعرف أن السيد المبجل والثورى الأصيل مجدى الطوبجى قد شرع فى إلقاء محاضرته التاريخية !!

حشد سعد كل طاقاته النفسية والفكرية والعقلية كجندى يستعد لخوض معركة مصيرية ! تجرع كوبا من ماء الصنبور فى غرفته ، ونظر إلى المرآة المشروخة فوق الحوض فاستراح للتصميم المتألق فى وميض عينيه . أزاح حشرجة توهم عرقلتها لزوره وحث الخطى فى الممر المعتم حتى خرج إلى القاعة الفسيحة ذات النوافذ التى ملأتها بضوء النهار . وهناك رأى مجدى الطوبجى بشاربه الدقيق ووسامته المبالغ فيها وثقته التى تكاد تتفجر من نفسه فى جلسته إلى جوار القائد خلف المائدة الكبيرة التى افترشها علم الجمهورية العربية المتحدة بألوانه الحمراء والبيضاء والسوداء ونجمتيه الخضراوين ، فبدت لسعد كنعش الثورة ، وظهر المعتقلون المتراصون على صفوف الكراسى أمام المائدة وكأنهم معزون فى سرادق المأتم .

بمجرد أن وقعت عينا مجدى على سعد وهو فى طريقه إلى أحد الكراسى الشاغرة فى الصف الأخير ، لم تفارقاه إلا عندما وقعت المواجهة بين النظرات التى تابعها القائد وهو يقدم مجدى الطوبجى بصفته أحد أبناء الثورة الأبرار واحد أعمدة الدعوة لفكرها . صفق البعض تأدية لواجب ثقيل على النفس فى حين لم يعبأ البعض الآخر وفى مقدمتهم سعد العنترى الذى بدا كقط تربص بفأر على مرمى البصر ! أزاح مجدى حشرجة فى حلقه ثم بدأ محاضرته بنفس الألفاظ والأفكار التى يحفظها الحاضرون عن ظهر قلب ، لكنه كان يتكلم كمن يستمتع بما يقوله من درر لأول مرة :

ــ لقد أثبتت التجربة وهى ما زالت تؤكد كل يوم .. أن الثورة هى الطريق الوحيد الذى يستطيع النضال العربى أن يعبر عليه من الماضى إلى المستقبل . فالثورة هى الوسيلة الوحيدة التى تستطيع بها الأمة العربية أن تخلص نفسها من الأغلال التى كبلتها ومن الرواسب التى أثقلت كاهلها .. فإن عوامل القهر والاستغلال التى تحكمت فيها طويلا ونهبت ثرواتها لن تستسلم بالرضى . وإنما لا بد على القوى الوطنية أن تصرعها وأن تحقق عليها انتصارا حاسما ونهائيا .

صمت مجدى للحظات فرفع سعد ذراعه طالبا الكلمة فداهمه مجدى بكلمات

مفاجئة كطلقات مكتومة :

ــ هل لديك أى اعتراض على ما أقوله !! قل ما تشاء فالحرية والديمقراطية من صميم المنهج الثورى !!

نهض سعد وغليان بركان السنوات السابقة يفور بهدير مكتوم :

ــ ليس لى أدنى اعتراض على ما تقوله .. بل على العكس تماما من ذلك .. فكلى تأييد له .. خاصة وأنه ليس كلامك أو أفكارك .. بل هو افتتاحية الباب الثانى فى « الميثاق » تحت عنوان « فى ضرورة الثورة » بالحرف الواحد دون تفسير أو تحليل !

تلقى مجدى الضربة المحكمة وقاوم الاهتزاز وهو يرى الملل ينداح عن العيون التى تراوحت بينه وبين سعد فى انتظار الرد الذى سرعان ما تفوه به مجدى فى تلقائية لم يسيطر عليها :

ــ وهل لديك اعتراض على ما يقوله « الميثاق » ؟! قل ما تشاء فالحرية والديمقراطية من صميم المنهج الثورى !!

جلجل صوت سعد فى وقفته المشدودة فى اعتداد بالنفس :

ــ أرجوك .. لا تكرر ما قلته من قبل .. فأنا من أشد المؤمنين « بالميثاق » والدليل على ذلك أننى أحفظه عن ظهر قلب .. ولذلك لا نريد تسميعا له .. وإنما شرح وتفسير لأبعاده المتعددة وأعماقه السحيقة .. فهو مأدبة شهية من الفكر الثورى الذى لا نشبع منه أبدًا !

اختفى الملل فى أعماق وميض العيون ، ولمس القائد حركات مجدى المتوترة فى ساقيه تحت المائدة وهو يبحث عن حجر ليلقمه لهذه الفوهة التى تطلق السهام المسمومة على غرة . قاوم قدر طاقته :

ــ حتى يكون الشرح والتفسير فى الصميم فلا بد من أخذ أو اقتطاع فقرة بنصها .. فهذه ضرورة خاصة بالنسبة لمن لم ينالوا شرف قراءة « الميثاق » ودراسته دراسة مستفيضة !!

ــ إذًا .. نحن الآن فى انتظار الشرح والتفسير !

جلس سعد تاركا مجدى فى محاولاته المستميتة لاستعادة زمام المبادرة الذى فقده على رءوس الأشهاد :

ــ إن الثورة العربية مطالبة اليوم بأن تشق طريقا جديدا أمام أهداف النضال العربى .. إن عهودا طويلة من العذاب والأمل بلورت فى نهاية المطاف أهداف النضال العربى ظاهرة واضحة .. صادقة فى تعبيرها عن الضمير الوطنى للأمة وهى : الحرية والاشتراكية والوحدة . بل إن طول المعاناة من أجل هذه الأهداف كاد أن يفصل مضمونها ويرسم حدودها . لقد أصبحت الحرية الآن تعنى حرية الوطن .. وحرية المواطن .. وأصبحت الاشتراكية وسيلة وغاية .. هى الكفاية والعدل .. وأصبح طريق الوحدة هو الدعوة الجماهيرية لعودة الأمر الطبيعى لأمة واحدة مزقها أعداؤها ضد إرادتها وضد مصالحها .. و العمل السلمى من أجل تقريب يوم هذه الوحدة .. ثم الإجماع على قبولها تتويجا للدعوة والعمل معا ..

توقف مجدى ليزدرد لعابه ويفاجأ بسعد يقف قائلا :

ــ هذا أيضا تكملة من نص « الميثاق » لما سبق أن قلته !!

دق مجدى المائدة بيد عنيفة :

ــ جئت هنا .. وتجشمت مشقة الطريق لأحاضر لا لأقاطع !!

ثم نظر إلى القائد بعينين تأمرانه فى صمت أن يفعل شيئا ، وسرعان ما التقط الإشارة ليقول :

ــ فلنترك السيد مجدى الطوبجى ينهى حديثه ثم نفتح باب المناقشة !

جلس سعد ومخايل الانتصار تتدفق من وميض نظراته . استأنف مجدى حديثه الذى فقد صداه تماما عند الجالسين بعيونهم الخامدة أو الشاردة أو المتشفية أو اليائسة أو الحانقة ! واصل تسميع ما يحفظه لكنه أدرك بعد نصف ساعة أن ضربات سعد قد أصابته فى مقتل . فالآذان مسدودة فى إصرار ، والشفاة ملتوية فى سخرية ، ولغة الصمت تنطق باللعنة وتفيض بالازدراء ! فجأة قطع كلامه المنغم الذى يحفظه عن ظهر قلب ليتلعثم بعض الشىء ، لكن الجميع أيقنوا أنه شرع فى إخراج ما فى قلبه ، فنظروا خلفهم إلى سعد وكأنهم يشجعونه ويحفزونه لجولة جديدة .

تناثرت كلمات مجدى :

ـــ البعض من بقايا الإقطاع يحاول الآن ركوب موجة الثورة .. من خلال المزايدة بالشعارات على أصحابها الحقيقيين .. متصورين أنهم سيبدون أكثر ثورية وتقدمية منهم .. مفترضين بسذاجة شديدة أن مثل هذه الحيل الطفولية ستجوز علينا .. لكننى أطمئنهم أن كل واحد منهم له ملف بكل تفاصيل ماضيه الذى لن يمحى فى غفلة من الزمن لمجرد شعارات يرددونها بألسنتهم كالببغاوات فى حين تفيض قلوبهم حقدًا أسود على الثورة وصانعيها وأجيالها !

سرى الارتياح ببرودته الرائعة فى أعصاب مجدى المحترقة فلطفها ، ومال على المائدة ليرشف بعض الماء من كوب أمامه ، وكله إعجاب بنفسه للضربة التى وجهها ليستعيد بها زمام المبادرة . لكن سعد العنترى عاد إلى الحلبة مرة أخرى كى يفتح المعركة التى طال شوقه إليها :

ـــ لا يعلم ما بالقلوب سوى الله .. لكن المصدر الحقيقى للخطر يتمثل فى الذين يسيرون فى ركاب الرئيس جمال عبد الناصر وقلوبهم مع غيره .. محاولين بالتدريج الفصل بينه وبين الثورة لحين لحظة الانقضاض عليها وعليه .. وهذه هى الخيانة الحقيقية .. لأن ليس كل من ولد فى أحضان الثورة ابنا بارا بها أو مخلصا لها .. وتاريخ الثورات يشهد أنها تلقت من الطعنات المسددة من أبنائها أضعاف أضعاف ما تلقته من خصومها الذين تعرف كيف تحمى نفسها منهم !

انتفض مجدى فى جلسته والتفت إلى القائد كمن به مس شيطانى :

ـــ هذا الرجعى يتصور أنه أصبح وصيا على الثورة ؟!

لم يصمت سعد بل واصل زحفه وروح الاقدام يؤكد له أنه على وشك أن يعيد أمجاد سعد زغلول الذى يسمى باسمه :

ـــ على الأقل .. فهويتى معروفة ولا خوف منى .. أما الخوف كل الخوف فمن الذين لا هوية لهم سوى مصالحهم الشخصية .. والذين يضعون أعناقهم تحت نعال من بيدهم القوة والسطوة الحقيقية بصرف النظر عن اتجاهاتهم الثورية أو غير الثورية !

انتفض مجدى واقفا وهو يدق المائدة بيدين عنيفتين فى جنونهما :

— إياك أن تظن أن المعتقل هو أقصى العقوبة ونهاية المطاف .. حتى تأخذ منه منطلقا لبث سمومك !! فليس لبطش الثورة حدود !!

وقف القائد بدوره مربتا على ظهر مجدى فى حنان دافق :

— لا تكدر نفسك .. سأعرف كيف أضع كل واحد فى مكانه الصحيح .. فليس هكذا نرحب بالضيوف !! سأتولى الأمر كله بنفسى .. تفضل معى !!

احتواه بذراعه اليمنى فانقاد له وقد شعر أن حجمه تناهى فى الصغر حتى كاد أن يتلاشى . فكر فى أن ينفض ذراع القائد من على كتفيه لكنه آثر تسوية الحساب كله بعد عودته إلى القاهرة . أدخله القائد مكتبه وأغلق عليه الباب ثم عاد مسرعا إلى الحاضرين الذين تناثروا بين المقاعد بين جالس وواقف وهامس ومتأمل ، فى حين التفت المجموعة الكبرى حول سعد . شدت خطوات القائد العسكرية بوقعها انتباههم حتى كان بينهم فى مواجهة سعد الذى تلاشت ابتسامته مع خروج أول كلمات القائد :

— ما الذى دفعك لمثل هذه المواجهة ؟! هل تقدر الآثار التى يمكن أن تترتب على ما ارتكبته من حماقة ؟! عموما فإن طيبتى ومحاولاتى المستمرة لحمايتكم هى التى أدت إلى هذا .. وأنت بالذات سأكتب عنك تقريرا مفصلا لكل ما فعلته .. وعليك أن تتحمل وزر ما فعلته !! فلا يعقل أن يؤخذ الجميع هنا بجريمتك التى تبدو أنك كنت مدبرا لها مع سبق الإصرار والترصد !!

وتوالى هدير كلمات القائد فى أذنى سعد الذى دخل دوامة من الحيرة المتسائلة عن حقيقة ما يجرى : هل هذا ما وعد به القائد صباح اليوم بتغطية دوره ؟! أم أنه أوقعه فى هذه المصيدة حتى يسهل بيعه إلى المسئولين فيرضون عنه ويوافقون على طلب نقله ؟! إن لهجته غير مطمئنة ، فهى محتشدة بالتهديد والوعيد والتحقير ، وهذا ما لم يتوقعه بهذا الشكل أبدًا !! أم أنه ممثل قدير إلى الحد الذى أقنعه هو نفسه بأدائه ؟! بدليل أن نظرات مجاهد عطية المتابعة للموقف قد تحولت من التجاهل إلى التعاطف مع سعد ، وإن كان الظن الأغلب أنه يرثى لتهوره الذى لا يضعه تحت بند

الثورية أو حتى الوطنية ، وإنما هو فى نظره مجرد تقلصات طارئة وجدت لنفسها متنفسا أخيرًا !!

عجز سعد عن الرد على القائد ولو بكلمة واحدة وهو الذى أفحم مجدى فى كل ما قاله ! ظل صامتا ، شاردا ، متقنعا بابتسامة باهتة لا معنى لها حتى انتهى الرجل من عاصفته ثم هرع إلى مكتبه ليغلقه خلفه دون أن يعلم أحد — سوى الله — ما يدور بينه وبين مجدى الطوبجى من حديث !

قضى سعد يوما غريبا فى صفرته الباهتة برغم عودة الزملاء والأصدقاء إلى الالتفاف حوله سواء فى المطعم أو القاعة . حاول بعضهم طمأنته ، فى حين أكد البعض الآخر أنهم سيساندونه حتى آخر المطاف . لكنه كان يتحرك بينهم حركة آلية ويحاول الرد عليهم لسد فراغ الصمت ، وود لو يستطيع أن يخلو إلى نفسه حتى يحلل وقائع اليوم العصيب تحليلا يخرج منه بصورة واضحة محددة تجنبه أحاسيس الضياع التى يمقتها والتى كان قد تخلص منها فى الفترة الأخيرة .

ومع حلول المساء هرع إلى حجرته متذرعا بالإرهاق ، ليغير ملابسه ويرتمى على الفراش . وفى عتمة الحجرة الخانقة دار فى مخيلته شريط الأحداث ليجتر كل تفاصيله التى وقفت للنعاس بالمرصاد ، وليقضى ليلته فى الصعود والهبوط ، أو الهبوط والصعود بين قمة التحدى والانتصار وبين قاع اليأس والإحباط .

ــ من كان يصدق أن كارثة مثل هذه يمكن أن تقع هكذا كصاعقة خاطفة فى لمح البصر ؟!

قالها صلاح خلف وهو يخلع حذاءه فى إعياء شديد ، فى حين هرعت إليه لواحظ بإناء من الماء الدافئ المملح . وضع قدميه فى الإناء مسترخيا فى جلسته وقد أغمض عينيه مستمتعا بحمل وفاء الصغيرة التى استكانت إلى حضنه فتوقفت عن البكاء وخلدت إلى النوم العميق . ابتسمت لواحظ بعينيها العسليتين الواسعتين وهى تدلّك قدميه فى الماء :

ــ هل يعقل أن هذه أول مرة ترى فيها وفاء ؟!

نظر خارج النافذة المفتوحة جليا لنسمة هواء رطبة ، فلم ير سوى عتمة متكاثفة وثقيلة الطيات تكاد تزهق الأنفاس . وتحالفت النجوم الغائبة عن قبة السماء مع الإظلام التام الذى لم تقطعه سوى مصابيح السيارات المطلية بلون أزرق داكن . قال بصوت أجش :

ــ لم أكن أتصور أننى لن أتمكن فى يوم من الأيام من حضور ولادة ابنتى البكر !!

ربتت لواحظ على قدميه فى حنان دافق .

ــ هذه أيام غريبة .. يمكن أن يقع فيها ما لا يخطر على بال بشر !!

ــ فعلا .. بعد ما وقع كل شىء أصبح جائزًا ومحتملا !!

ــ والشىء العجيب فعلا أن المخاض لم يبدأ إلا مع ضربة الطيران صباح ٥ يونيو .. ولم تتم الولادة إلا فى منتصف الليل بعد أن سيطرت إسرائيل على كل الجبهات !!

ــ كنت على وشك أن أجن .. أتابع اللحظات العصيبة التى يمر بها المطار .. وأسائل نفسى : كيف أتركك هكذا فى مثل هذه اللحظات التى يستحيل فيها نقلك إلى المستشفى ؟!

ــ لم تتركنى أمك وأمى وأبوك وأختك لحظة واحدة ! وتمكن أبوك من إحضار الطبيب إلى البيت .. وقام بالتوليد على ضوء المصباح الغازى !! وكانت دهشة

الطبيب كبيرة عندما وجد الولادة سهلة للغاية على عكس ما توقع فى مثل هذه الظروف التى تحطم أعصاب الأم وتضاعف من انقباضات الرحم التى يمكن أن تؤدى إلى عملية قيصرية تحتاج إلى عربة إسعاف للانتقال إلى المستشفى ... وكانت مثل هذه العربات فى خدمة المجهود الحربى والدفاع المدنى !! ولا تزال !!

ابتسم صلاح ابتسامة شاحبة لكنها نفضت عن بريق عينيه الأسود فى ضوء المصباح الخافت :

ــ برغم كل ما وقع .. فأنا متفائل بميلاد وفاء !

ثم ضاعف من احتضانه الحانى لها هامسا :

ــ ميلادها يعنى أن الحياة فى مصر لن تتوقف عند الخامس من يونيو !

جففت لواحظ قدميه بمنشفة يفوح فيها ما يشبه البخور وأزاحت الإناء بعيدا :

ــ للأسف فإن كثيرين يعتقدون أنها نهاية كل شيء !!

ــ قد تكون نهاية النظام الموجود .. لكن مصر لن تنتهى إلا عندما يرث الله الأرض وما عليها !

ــ نحن فى أشد الحاجة إلى هذا الإيمان العميق !!

نهض صلاح وبين ذراعيه وفاء الغارقة فى النوم حتى بلغ الفراش فوضعها فى لفتها فى المنتصف ثم استرخى إلى جوارها فى حين مدت لواحظ جسدها الخمرى على الطرف الآخر فظهر تحت الغلالة البيضاء الشفافة فى ضوء المصباح الخافت إلى جوار السرير ، متفجرا بقمم براكينه المضيئة وانحدارات سفوحه المعتمة . تذكر صلاح أن وقته لم يتسع لمجرد الاشتياق لحبيبة عمره وهو محبوس فى مكتبه بالمطار ليل نهار يتابع التعليمات بخصوص حركة الطيران التى بدأت بعد غلق المطار لمدة أسبوع فى وجه كل الطائرات المدنية بعد أن نجحت طائرات الفانتوم الإسرائيلية فى بلوغه وضرب أحد ممراته وبعض حظائر الطائرات !

تدفقت دماء الرغبة الساخنة فى عروق صلاح التى هفت لاحتضان لواحظ وبثها لواعجه ، لكن شحنة الأفكار والخواطر والكلمات كانت أكبر وأثقل وأعنف من أن تحتمل ، فأراد أن يفضى بها :

ــ كل الأوضاع قلبت رأسا على عقب .. هل تصدقين أن حسين الطوبجى وعلى بدران قد وضعا فى السجن انتظارا للمحاكمة ؟! والدوائر تضيق حول المشير شخصيا بهدف خنقه فى النهاية ؟! وأن مجدى الطوبجى طرد من وزارة الخارجية .. وعلمت اليوم أنه طلق زوجته هند !!

لم تملك لواحظ سوى أن تشهق متسائلة وقد ارتكزت برأسها على كوعها :

ــ وما علاقة هند بما وقع ؟! ألم يكفها سجن أبيها وهو فى قمة مجده ؟!

ــ لم أفاجأ بتصرف مجدى .. فأنا أدرى بأسلوب تفكيره .. أعتقد أنه طلق هند كى يلمح للجناح الجديد أنه تبرأ من الجناح القديم .. لعل وعسى !!

ــ لو كانت هند هذه .. قطة عنده فى البيت .. لما فعل معها ما فعله !

ــ ظل يعامل الناس على أنهم مجرد مراحل فى حياته .. حتى أصبح هو مجرد مرحلة عابرة لن يكون لها أى امتداد !

ــ وماذا يمكن أن تفعل هذه المسكينة بعد أن فقدت أباها بالسجن وزوجها بالغدر ؟!

ــ كان الله فى عونها ! لو علم سعد العنترى بما جرى لمجدى الطوبجى فسيكون هذا .. أسعد خبر فى حياته !!

ــ لن يلومه أحد إذا بلغ أبعد حد للشماتة !!

ــ كل ما أتمناه ألا يجمعنى القدر بهما مرة أخرى .. فكفانى ما تحملته من إذلال وسوء ظن وسوء نية دون ذنب جنيته !! حتى زيارة أبى سعد فى المطار كانت كلها أصابع اتهام تشير بأننى المتسبب فى إلقائه فى المعتقل !!

ــ وما موقف المعتقلين بعد هذه الكارثة ؟! هل سيفرج عنهم أم سيطول بهم المقام ؟!

ــ لا يستطيع أحد أن يخمن ما يمكن أن يحدث بعد لحظة واحدة من الآن !! لكننى أعتقد أن الشماتة التى سرت بين قدامى الإقطاعيين والرأسماليين والأرستقراطيين لا بد أنها سترد إليهم على شكل ضربات جديدة .. سواء بالنسبة لقدامى المعتقلين منهم .. أو الذين تم اعتقالهم يوم ٥ يونيو !!

— لكن هل صحيح أن عبد الناصر أقحم الجيش فى هذه الحرب حتى يتخلص من عبد الحكيم عامر وبطانته الذين كانوا على وشك السيطرة تماما على دفة الحكم ؟!

سعد صلاح بأن شحنة الأفكار والخواطر والتساؤلات المتفجرة داخل لواحظ لا تقل فى ثقلها وضخامتها وعنفها عن تلك التى يريد أن يفرغها بين ذراعيها :

— لو كان هذا الظن صحيحا .. فلماذا رضى عبد الحكيم عامر بالتورط فى معركة لم يكن مستعدا لها ؟! خاصة وأن التحريات التى بلغت عبد الناصر جعلته يؤكد للقيادة العسكرية أن الهجوم سيقع صباح ٥ يونيو .. فما كان من عبد الحكيم عامر سوى أن قال له : برقبتى يا ريس !

— يبدو أن الحقيقة دفنت فى رمال سيناء مع شهدائنا وضحايانا !!

— لا يعلم أحد سوى الله .. النتائج التى ستترتب على ما وقع فى الأيام الماضية .. اليهود قابعون على الضفة الشرقية للقناة .. يغسلون أقدامهم فى مياهها .. وجيشنا بلا سلاح تقريبا .. والطريق مفتوح أمامهم حتى السويس .. لكنهم لم يتقدموا خوفا من بحار الكثافة السكانية .. والمعتقلات فتحت أبوابها لضيوف جدد .. وأقيمت معتقلات جديدة على وجه السرعة .. والداخلية تبحث عن ضباط أكفاء لإدارتها وقيادتها !!

أمسكت لواحظ بذراع صلاح بأصابع حديدية :

— وهل يمكن أن يقع الاختيار عليك ؟!

ربت على يدها فى حنان متدفق .

— لا أعتقد .. فالمسئولون راضون تماما عن إخلاصى وتفانى فى العمل بإدارة أمن المطار .. خاصة وأننى أثبت كفاءتى وقوة أعصابى طوال لحظات الكارثة .. كما أنهم يبحثون عن ضباط غير متعاطفين أساسا مع المعتقلين حتى يسومونهم أشد أنواع التعذيب !! وأنا دائما كنت على الحياد بالنسبة لكل الأطراف المعنية !

كادت لواحظ تلتصق به لولا خوفها على وفاء :

— الحياة علمتك الحكمة منذ البداية !! تخيل ماذا كان يمكن أن يجرى لنا لو

رضخت لإغراءات مجدى الطوبجى .. وأصبحت أحد رجال المشير فى الداخلية ؟!
ضحك صلاح لأول مرة ضحكة اهتز لها الفراش :

ــ كنت دائما كالبهلوان السائر على الجبل المهتز المتراقص فوق حلبة السيرك دون شبكة تحته لحمايته إذا سقط .. أية هزة غير محسوبة أو لفتة خاطئة يمكن أن تقضى عليه فى لحظة.. فإذا كانت أمى تردد دائما أن الفقر حشمة فأنا أضيف إلى حكمتها المفضلة أن الفقر حكمة .. لا يتعلم الحكمة مثل الفقراء .. ويبدو أنها السلاح الذى منحه الله لهم بفعالية أفضل من سلاح الثروة أو حتى الثورة والذى يمكن أن يستخدم بنزق وطيش !!

زادت لواحظ من التصاقها بصلاح لكن وفاء انفجرت باكية رافسة للفافة وقد تعرت ساقاها الصغيرتان . انتفضت لواحظ جالسة لتحملها بين ذراعيها وقد أخرجت لها ثديها الذى تلقفته بأصابعها الرفيعة بين شفتيها اللتين انطبقتا عليه . ظلت تهدهدها حتى استغرقت مرة أخرى بين طيات النعاس فحملتها بمنتهى الهدوء والرقة لتضعها فى سريرها المعدنى الصغير ثم عادت لتلتصق بزوجها فى الفراش. أحس بسخونة جسدها تطرد النعاس من جفونه والاسترخاء من أعصابه ، فانقض على شفتيها يرشف رحيقهما الذى قتله الحنين إليه طوال أيام البعد والغياب ، لكن جرس التليفون سرعان ما دق لتنفجر وفاء باكية ولكن فى رعب هذه المرة ، فقفزت لواحظ لتحملها وترضعها فى حين هرع صلاح إلى التليفون القريب من الفراش :

ــ ألو .. أيوه يا فندم .. تمام .. تحت أمر سيادتك .. سأكون فى مكتبى بمجرد وصول السيارة .. وهو كذلك .. مع السلامة !

كانت لواحظ تراقبه فى خوف وضيق ، لكنه سرعان ما خلع جاكتة البيجاما وشرع فى ارتداء قميصه .

ــ سأعود إلى المطار فورا .. ضبطوا اثنين من رجال المشير يحاولون الهرب على الطائرة المقلعة إلى سويسرا !

لم تفتح فاها وإنما أسرعت لإحضار سرواله وحذائه بيدها اليسرى لأن يدها اليمنى كانت مشغولة بوفاء ، وهو ينظر إليها بكل وميض الحب والحنان والوفاء .

غام الطريق أمام عينيه برغم الشمس الساطعة التى تلهب ظهور المارة بسياط من نار ، وبرغم الهواء المكيف البارد السارى فى السيارة المغلقة النوافذ ذات الزجاج الداكن ، آخر ما تبقى من أيام العز الغابر . مر ما يزيد على شهرين على ذلك الكابوس المرعب ، وحتى هذه اللحظة لا يستطيع أن يفيق منه ! إنه لا يكاد يصدق ما جرى له منذ ذلك الصباح الكابوسى !! كان قرة عين السلطة وفتى المستقبل الذى يحلم بسفارة مصر فى موسكو كمقدمة لمنصب وزير الخارجية ، وربما كانت رياسة الوزارة فى الطريق بعد ذلك !! والآن يجد نفسه طريد الوزارة التى كان يحلم بمقعدها ، واسمه فى مقدمة قوائم الممنوعين من السفر إلى الخارج ، وأباه فى السجن فى انتظار محاكمة لن تمر على خير ، إذ أن ما وقع يتطلب كباشًا للتضحية بهم على مذبح الهزيمة التى أسماها عبد الناصر نكسة ، حتى تهدأ ثائرة الجماهير التى أفاقت من ذهولها لتشتعل نظراتها الصامتة بطلب العقاب الرادع لمن تسببوا فى الكارثة .

حاول قدر طاقته أن ينضوى تحت لواء الجناح المنتصر الذى طالما حاربه . لكن الأمر لم يكن بالبساطة التى تصورها ! طلق زوجته هند كى يوحى لهم بأنه كان مجبرا للرضوخ لجناح المشير ، لكن حيلته الساذجة لم تنطل على أحد ! خاصة وأن عبد الناصر خرج منتصرا من هذه الهزيمة بعد أن تخلص من كل خصومه الذين وضعهم فى سلة واحدة ألقى بها فى فيافى سيناء تحت رحمة العطش والجفاف وهجير الشمس اللافحة ومخالب الصقور الجارحة ! صحيح أنه أعلن مسئوليته الكاملة عما جرى فى خطاب التنحى فى ٩ يونيو حتى يغطى دوره كقائد أعلى للقوات المسلحة ، لكنه بهذا الإعلان غسل يديه من كل الدماء التى علقت بها ، وعلق المشانق وجهز فرق الإعدام لكل رجال المشير ، إذ أن اعترافه بمسئوليته لم يترتب عليه سوى خروج الجماهير الضائعة فى الشوارع لمبايعته مرة أخرى ، وبذلك

أصبح الزعيم الأوحد مرة أخرى فى غمضة عين !

لا بد أن الأنباء قد بلغت سعد العنترى فى معقله الآن ! يا لها من فرحة عارمة يمكن أن يعيش عليها أسعد لحظات حياته ! لن يرى فيها سوى عدالة السماء وانتقامها وليس مجرد صراع انتهى بانتصار طرف على آخر ؟ لا بد أنه سيتذكر معركة المدرسة ورفته من كل المدارس فى أعقابها ، انتصاره عليه بزواجه من شويكار التى طالما تمناها سواء بالزواج أو غيره ؛ اعتقاله ووضع محلـه تحت حراسته ؛ محاضرة « الميثاق » التى تحداه فيها واحتك به لدرجة أنه كان يعد العدة له لإرساله وراء الشمس حيث لا يعرف عنه أحد أخباره سواء أكان حيا أو ميتا ؟! والآن دارت الدوائر ولا يعرف أحد ما الذى تحمله الأيام المقبلة فى بطنها المنتفخ بالآلام والغازات السامة !

فجأة انطلق وراء سيارته موتوسيكل ضابط مرور ليكتشف أن خواطره الجامحة أعمت عينيه عن التقاط الإشارة الحمراء ! أمره بإشارة من يده أن يقف إلى جانب الرصيف . فكر فى أن ينطلق هربا منه كالصاروخ لكنه وجد نفسه مستسلما تماما — على غير عادته — لأوامر الضابط الذى طلب منه إبراز رخصته . لم يجرب مجدى خوفا فى حياته مثل الذى جربه والملازم الشاب يتصفح بيانات رخصته . كم أذاق الآخرين الخوف ! ويبدو أن عليه الآن أن يتجرع كأسه وعلى يدى ملازم شرطة شاب كان زملاؤه ينتفضون له وقوفا وهو مارق بسيارته إلى رحاب وزارة الخارجية !!

أفاق مجدى من مخاوفه والضابط يرد إليه رخصته ويرفع يده بالتحية شبـه العسكرية :

— تفضل يا فندم .. كل همنا سلامة سيادتك !

عادت إلى مجدى شخصيته التى فقدها يوم ٥ يونيو ورد التحية بصمت زاخر بالكبرياء والعنجهية ، ثم انطلق وهو يحمد الله على أن بيانات الرخصة لم تتغير بعد ، وأن سر الماضى القريب لا يزال باتعا ! لكن روحه المعنوية التى حلقت لحظات والضابط يرفع يده بالتحية سرعان ما هبطت من بين السحاب إلى عارضة الطريق

التى التهب ظهرها تحت سياط الشمس . لا بد أن يعترف لنفسه أنه لم يعد له عيش فى هذا البلد ! السلطة والسطوة والمجد والشهرة والمستقبل المشرق فى خبر كان ، والأب لا حول له ولا قوة فى السجن ، وحتى السفر أصبح ممنوعا منه وهو الذى كان يركب الطائرة فى أى وقت يشاء إلى أى مكان يشاء . ولذلك فإن ما خطط له وشرع فى تنفيذه هو الحكمة بعينها .

شكرا للصديق اللبنانى الذى شاركه التخطيط والتنفيذ . أعد له جواز السفر الجديد باسم جديد وبيانات جديدة ، وبإتقان لا مثيل له وهو فى انتظاره بعد عودته من زيارته لأبيه فى السجن لإحداث التغييرات اللازمة فى وجهه ثم تصويره ولصق الصورة الجديدة فى جواز السفر ليصبح رجل أعمال ليبيًا فى طريقه إلى بيروت ! لن يشتبه فيه أحد بعد أن أجاد اللهجة الليبية التى علمها إياه الصديق اللبنانى الحاذق لدرجة أنها أصبحت تطفو على بعض عباراته دون أن يدرى ! ولا شك أن قيام الطائرة عند منتصف الليل سيجعل الظلام ساترا له مثل تلك السواتر الطوبية والأسمنتية التى برزت فى حلق كل المبانى فى مصر لحمايتها من الشظايا وتفريغ الهواء الذى تحدثه قنابل الطائرات الإسرائيلية التى أصبحت تصول وتجول فى سماء مصر حتى أبعد أعماقها !

بدأ التراب يعلو الطريق بحفره ومطباته بدخوله شارع القلعة الذى تظلله البواكى على الصفين . هل كان يتصور حلول اليوم الذى يزور فيه أباه فى سجن القلعة ؟! وهو الذى حمل رأسه على كفه مع زملائه من الضباط الأحرار ليلة الثانى والعشرين من يوليو منذ خمسة عشر عاما على وجه التحديد ؟! أهذه هى مكافأته لمجرد أنه كان أحد رجال المشير ؟! ألم يكن المشير هو الرجل الثانى وأحيانا الرجل الأول فى الدولة ؟! هل هى جريمة أن يكون الإنسان فى خدمة مثل هذا الرجل ؟! أليست خدمته هى خدمة الوطن نفسه ؟!

ضاعت المعايير واختلط الحابل بالنابل ، وكل ما يتمناه أن يخرج من هذا البلد تحت جنح الظلام إلى غير رجعة عند منتصف تلك الليلة ! لن يرتكب حماقة رجلى المشير اللذين ظنا أنهما لايزالان قادرين على الخروج من مصر طالما أن أوراقهما

مستوفاة ، ولهما من الهيبة ما يمكنهما من الرحيل الوقور المحترم ! لكن النتيجة أن صورتيهما نشرتا فى اليوم التالى فى الصفحة الأولى من « الأهرام » و « الأخبار » و « الجمهورية » تحت ما نشيت يقول :

« القبض على اثنين من المتسببين فى النكسة قبل هروبهما بلحظات » . و لم يكن الأمر هروبا بقدر ما كان الإصرار على اصطياد المزيد من كباش الضحية ! وقد تألق اسم صلاح خلف فى الخبر ضمن الفريق الذى قام بعملية القبض ! وها هو ابن السائق الخاص لأبيه يستمتع بالتشفى فى أسياده بالقبض عليهم أذلاء خانعين !! بل إن صورته نشرت فى جريدة « الجمهورية » مع الخبر ، ولا يعرف مجدى لماذا تذكر اليوم الذى نشرت فيه صورة سعد العنترى فى الصحف الثلاث بعد رفته من المدرسة الثانوية ؟!

ها هو سجن القلعة يبدو أخيرًا بأسواره العالية الكئيبة وجدرانه المتجهمة الداكنة التى تحتوى أباه الذى كان يملأ الدنيا طولا وعرضا !! كيف حاله ؟! لم يره منذ ذلك اليوم المشئوم ! كيف سيستقبله ؟! لا يحتمل أن يراه هكذا ! كيف سيقع عليه نبأ عزمه على الرحيل ؟! لا يستطيع أن يبقى يوما واحدًا ، فالإنسان لا يعيش حياته إلا مرة واحدة فقط !! لو كان يستطيع أن يرحل دون وداعه لفعلها ، ولكن شيئا داخله لم يستطع له دفعا أجبره على الزيارة ! كان أبوه دائما مركز الثقل الرئيسى الذى دارت حوله حياته !

أوقف السيارة إلى جوار رصيف السجن لكن الحراس المحيطين بالأسوار تحركوا فى مشية مشدودة نحوه وأمروه بالابتعاد فرضخ دون مناقشة ليبتعد بها إلى أحد الأزقة المحيطة بالموقع ، وعاد مترجلا ليظهر تصريح الزيارة الذى ساعده فى الحصول عليه أحد الأصدقاء القدامى الذين لعبوا لعبة صلاح خلف بإمساك العصا من النصف والسير على الحبل فى حرص بهلوان السيرك ! قرأ الحارس المطل من كوة البوابة الخشبية ذات المسامير الصدئة الضخمة التصريح ، ففتحت له البوابة ليدخل حجرة جانبية بها عدد من الضباط وأمناء الشرطة الذين أخذوا بطاقته الشخصية وكل أوراقه . ركبه الرعب عندما أوحى إليه شىء غامض داخله بأنه ربما ألقى مع

أبيه فصرخ متسائلا :

ــ لماذا كل هذا ؟

فأفحمه كبيرهم بأنها :

ــ إجراءات لا بد منها !

لكنه لمح نظرات الإشفاق والرثاء فى عيونهم . ها هو ابن حسين الطوبجى يأتى لزيارة أبيه المسجون كأى مجرم !! لم يحتمل مجدى لسعة هذه النظرات كسياط من لهيب ، لكنه فى الوقت نفسه استمتع بها فى أعماقه !! كيف ؟! لا يعرف !! لم يعد يعرف أشياء كثيرة حتى لو كانت ألصق ما تكون به ! قاده أحد الضباط عبر ممر حجرى وسط فناء السجن وسياط الشمس فتصبب العرق داخل ملابسه ، ثم دخلا ممرا داخل المبنى الرئيسى ، لفته العتمة والرطوبة ، وتعجب كيف يعرف الضابط طريقه الذى كاد أن يختفى وسط طيات الظلام المتكاثفة فى عز النهار ؟! أخيرا بزغ ضوء النهار فى نهاية الممر الذى أدى إلى سلم ذى درجات حديدية أحدثت صدى منتظما تحت أقدامهم الصاعدة إلى الدور الأعلى حيث ممر آخر بحذاء حجرات المسجونين . دخل الضابط بمجدى قاعة صغيرة بها مائدة مستطيلة وحولها بعض المقاعد الخشبية . أشار إلى مجدى بالجلوس :

ــ تفضل هنا .. لحظة واحدة وسأعود إليك !

خرج الضابط تاركا مجدى بمفرده .. منعه القلق من الجلوس فذرع القاعة جيئة وذهابا ، متأملا من بابها ونافذتها العريضة ذات القضبان الحديدية نوافذ الغرف المتراصة على الجانب الآخر من الممر . كان السكون قاتلا لدرجة أنه خيل له أنه يستمع إلى أنفاس أبيه ! لكنه سمع وقع أقدام على أرض الممر الحديدية فأخرج رأسه من الباب ليرى أباه وسط ضابطين وبعض أمناء الشرطة .. استراح بعض الشىء لأنه لم يجده فى ملابس السجن كما تصور وإنما كان يرتدى إحدى حلله الفاخرة الأنيقة . انطلق ليستقبله عند باب القاعة بالأحضان والدموع والقبلات ، ولأول مرة فى حياته يرى أباه باكيا ! هذا الرجل الذى كان صخرة صامدة عاتية ضد كل الأمواج ، يتدفق الآن بالدموع تحت ضربة الكارثة العارمة !

سارا سويا إلى داخل القاعة . احترم الضابطان محنتهما فوقفا بالباب وحولهما أمناء الشرطة . تساءل الأب بصوت متهدج :

— لى فى السجن أكثر من شهرين .. ولا أراك سوى اليوم ؟!

تلعثم مجدى متحاشيا نظرات أبيه التى طالما أخافته فى صباه :

— لم يسمحوا لى بالزيارة سوى أخيرا !

تحول بريق عينيه إلى ومضات من الشك القاتل :

— أمك تزورنى كل أسبوع بانتظام .. واشتكت من إهمالك الكامل لها .. فلم تعد تراك هى الأخرى !!

أجابه دون تفكير كعادته فى حضرته :

— أطاشت الكارثة بصوابى .. فلم أعد قادرا على التقدير السليم للأمور !

— بحيث طلقت هند ؟! أنت لم تسجن مثلى حتى تظهر بهذا الضعف ؟!

إنه يعرف رأيه مقدما فى كل ما سيقوله ، ومع ذلك كان لا بد من هذا اللقاء المتفجر . أشعل سيجارة بأصابع مرتعشة :

— رُفت من عملى .. ضاع مستقبلى .. حتى السفر منعت منه وأصبحت سجينا داخل مصر !

— وما ذنب هند ؟! كيف أواجه أباها المسجون معى هنا ؟! لم يعلق على الموضوع لكن نظراته تكاد تقتلنى كلما تقابلنا !! كل ما استطعت أن تفعله أنك فقدت احترام كل الأطراف المعنية !! الإنسان لا يغير مبادئه كما يبدل أحذيته طلبا للهرب .. طلبا للنجاة ! كنت تتصور أن فى إمكانك ركوب الموجة الأخرى التى أغرقتنا كلنا .. لكن هند كانت الضحية و لم ولن تحصل على المقابل الذى كنت تتمناه !

صمت الأب ليتأمل انفعالات ابنه الذى قال دون أن يرفع عينيه عن بعض الخطوط والأشكال الغائرة فى سطح المائدة الخشبية :

— لم يكن زواجا موفقا منذ البداية ! وكنا على وشك الطلاق قبل النكسة !!

— إنك .. كعادتك لا ترى سوى ظاهر الأمور ! لا تظن أننا انتهينا بالبساطة

التى يتصورها الجميع الذين لا يزالون يصدقون أجهزة الإعلام !! نحن فى انتظار المحاكمة على أحر من جمر لنقول ونعرى الحقائق التى ستضع الطرف الآخر فى نفس القارب الغارق ! فلن يفلت أحد من الإدانة !

تعجب مجدى لأبيه الذى لا يزال يملك اليقين بقدرته على توجيه دفة حياته ، أما هو فقد ضاع الطريق من قدميه وتمثل كل همه فى أن يستيقظ من الكابوس ليجد نفسه فى بلد آخر وأرض جديدة . لم يسترح الأب لصمت ابنه الكئيب فقرر إفراغ ما بداخله :

ـــ حتى أنت أصبحت لا تثق فيما أقول ! عموما لا يهمنى موقفك بقدر ما تهمنى مشروعاتك للمستقبل ! ماذا تنوى أن تفعل ؟!

قاده أبوه أخيرا إلى المنطقة الحرجة الوعرة . نظر خلفه ليجد ظهرى الضابطين يسدان الباب . سحب نفسا عميقا يستعين به على ما سوف يطلقه من كلمات لن يتقبلها أبوه لكن ما بيده حيلة . قال وهو يطلق الدخان الحبيس :

ـــ لم يعد لى مستقبل فى هذا البلد ؟!

ـــ دوام الحال من المحال !! لابد أنك فكرت فى مشروع ما ؟!

همس بنبرات متهدجة :

ـــ سأسعى لرفع اسمى من قوائم الممنوعين من السفر !!

ـــ وإذا فشلت ؟!

عاد إلى عادته فى الإجابة الفورية دون تفكير :

ـــ لن أعدم الوسيلة ؟!

ـــ ألم يكفك ما جرى لنا ؟!

ـــ المضطر يركب الصعب !

ـــ وتترك أباك فى محنته ! وأنت ابنه الوحيد ؟!

ـــ وهل فى إمكانى أن أقدم إليك أى نوع من المساعدة ؟! أصبح وجودى فى مصر كعدمه !

ـــ مجرد وجودك فى البلد عزاء كبير لى .. حتى ولو لم أرك !!

تراجع مجدى عن اندفاعه إذ اكتفى بالتلميح بالرسالة الثقيلة على القلب والعقل :

ـــ مجرد حلم أو وهم .. هيهات أن يتحقق !

ابتسم الأب وربت على ذراع ابنه الممدودة على المائدة :

ـــ وطالما أن الأمر لم يخرج عن نطاق الأحلام أو الأوهام .. فلنتكلم فى الواقع والمستقبل !!

ـــ ليس فى ذهنى شيء محدد الآن .. لا بد من انتظار ما تأتى به الأيام .. ولعلها تأتى بما يوقظنا من هذا الكابوس !!

ـــ الأيام لا تأتى إلا بثمار ما يصنعه البشر .. وعليك أن تصنع من الآن ما يمكن أن تأتى به الأيام !!

ـــ سأفكر .. وإذا وصلت إلى تصور محدد سأناقشه مع حضرتك !!

ـــ وهل ستأتى إلى زيارتى قبل وصولك إلى هذا التصور .. أم ستنتظر نزول الوحى والإلهام ؟!

أجابه وهو يتحاشى نظراته النافذة قدر الإمكان بإطفاء بقايا السيجارة :

ـــ سأحاول زيارتك بانتظام مع ماما !!

شد الأب على يد ابنه المتكورة فوق المائدة :

ـــ واحرص على حضور المحاكمة التى ستبدأ فى غضون شهرين .. ستجد أباك كالطود الشامخ وهو يضع كل واحد فى مكانه الطبيعى .. فمن مر بحصار الفالوجا .. وحمل رأسه على يده ليلة ٢٢ يوليو .. لن يرهب محاكمة سيكون التراشق فيها بالكلمات والاتهامات التى لا تستند إلى دليل مادى ملموس !!

ـــ إن شاء الله .. إن شاء الله !!

لم يعتد الأب الاستماع إلى مثل هذه التعبيرات من ابنه ، فأيقن أنه لم يعد هناك ما يقال ! أدرك أن الكارثة لم تكن بشعة فى حد ذاتها بقدر بشاعة ما عرته من حقائق لم يكن يعرفها عن الآخرين ، حتى عن ابنه ، فلذة كبده ! هل قامت القيامة حتى يفر الابن من أبيه ؟! إن ابنه يدبر فى نفسه أمرًا ، فهو أدرى به ! لكن إذا كان لا يرى

فى الوجود سوى نفسه فليس كل من أنجب ، أبا بمعنى الكلمة ! وليسلم أمره لله الذى نسيه طويلا فى خضم أضواء السلطة وأمجادها ، وليواجه ابنه مصيره إذا كان يصر على كتمان ما ينويه ! ولن يبدو أمامه بمظهر الأب الذى يستجدى حب ابنه الذى إذا لم يأت من تلقاء نفسه فليذهب بصاحبه إلى الجحيم ! فليست هذه مكافأته بعد أن دفع ابنه إلى ذرى المجد و لم يبلغ بعد الثلاثين من عمره ! بل وأطاح بكل من حاول أن يمسه من قريب أو بعيد !! وسعد بن العنتـرى كان أول ضحاياه !!

حشد الأب كبرياءه ونهض وهو يمد يده لابنه مستعيدا مركز ثقله القديم :

ــ سأسعد كثيرًا إذا زرتنى بانتظام !! ولا ترتكب ما يمكن أن تندم عليه !

سعد مجدى بدوره أن أباه هو الذى أنهى المقابلة ، فانتفض واقفا ليشد على يد أبيه متحاشيا نظراته . التفت الضابطان ليفسحا الطريق للأب الذى ترك ابنه ليعود للسير وسطهم على الممر المؤدى إلى حجرته دون أن ينظر إلى الوراء ، فأيقن مجدى أن تجربة السجن لم تمس جبروت أبيه ، وتمنى فى أعماقه أن يكتسب ولو ومضة من هذا الجبروت حتى يواصل به مسيرته المتعثرة !

اختفى الأب ليعود الابن أدراجه وقد تخفف من ثقل كبير على قلبه لولا الجملة الأخيرة التى نطق بها أبوه ، ونفذت فى صدره كالسهم المارق ، وطفحت على لسانه بمرارة طارئة ، وهو ينطلق بسيارته إلى المعادى حيث البنسيون الذى ينزل به صديقه اللبنانى الذى أعد له كل الإجراءات اللازمة للانطلاق من سجن مصر! أما نصيحة أبيه :

ــ ولا ترتكب ما يمكن أن تندم عليه ؟!

فيجب ألا يجعلها تؤثر على الخطوة المصيرية التى سيقدم عليها فى الساعات القادمة . فليس هناك مايندم عليه لأنه ليس هناك ما يمكن أن يخسره ! فليلق بالماضى وراء ظهره ، فبيروت الجميلة فى انتظاره ، ومعه من الدولارات المخبأة فى حقيبة صنعت خصيصا لهذا الغرض ، ما يمكن أن يجعل منه رجلا ثريًا بمعنى الكلمة ! وهناك سيثبت لأبيه أنه قادر على صنع مستقبله بعيدا عنه ودون مساعدته ، وعلى

توجيه دفة حياته مثله تماما !

انطلقت السيارة عبر طريق صلاح سالم الصديق الراحل لأبيه ! بدا الطريق فى صعوده وهبوطه ، فى التواءاته يمنة ويسرة كطريق الثورة تماما ، الطريق الذى مر بالنكسة كما يمر هذا الطريق بالمقابر المتناثرة عند سفوح منحدراته .. لكنه لن يسمح لطريق حياته أن يمر بكل ما من شأنه أن يسده . فتح مذياع السيارة فإذا بعبد الوهاب ينشد :

— كل مصرى ينادى ويقول يابلادى

فأغلقه دون تفكير ، وضاعف من سرعة السيارة حتى بلغ سور مجرى العيون وسط هالة من الأتربة الناعمة المتصاعدة امتدت حتى كورنيش النيل الذى سار الهوينى تحت أغصان الأشجار الضخمة الراسخة التى انحنت فى بعض أجزائه حتى لامسن صفحته تقبلها وتنهل من ريقها .

نهبت السيارة طريق الكورنيش وطوته طيا حتى انحرفت يسارا إلى المعادى لتهدئ من سرعتها فى الطرقات الضيقة الملتوية حتى وقفت عند نهاية طريق مسدود بحديقة مهجورة طغت عليها الأعشاب الصفراء ، والأشواك المدببة ، والفئران والهوام التى تحدث خشخشة هنا وهناك مع قدوم سيارة أو وقع أقدام .

دلف مجدى داخل الڤيللا الساكنة لتستقبله صاحبة البنسيون اليونانية مرحبة بقدومه ودقات أصابعها على غرفة الصديق اللبنانى الذى فتح الباب مبتهجا كعادته وجذبه من يده ليستأذن من السيدة اليونانية ويغلق الباب ليشرع فى الحال فى مهمته . قام بحلاقة شاربه الدقيق ، وخفف من كثافة حاجبيه مغيرًا من استقامة خطيهما بحيث أوشكا على ملامسة رموش عينيه عند طرفيهما . كذلك خفف من شعر فوديه وصبغهما بصبغة بيضاء جعلته يتعدى الأربعين خاصة عندما أضاف إلى بشرة وجهه بعض التجاعيد الشمعية التى ضايقته بعض الشىء ، لكنه أخبره بضرورة التعود عليها لعدة ساعات حتى لا تثير حركاته شبهات رجال الأمن والجمارك فى المطار .

تسلل رعب جديد إلى كهوف مجدى وهو يتابع ملامحه وهى تتغير فى المرآة المقابلة .

شعر كأنه ينسلخ من شخصيته القديمة ليدخل فى أخرى لا يعرفها ولا يطمئن إليها ، وربما عجز عن العثور عليها فى النهاية ! خاصة وأن الصديق اللبنانى اختار له اسمه الجديد : عبد العظيم الميت بحجة أن عائلة الميت من العائلات المعروفة فى ليبيا ، وبرغم اعتراضه على هذا اللقب المخيف الذى تحالف الآن مع تحذير أبيه :

ـــ لا ترتكب ما يمكن أن تندم عليه !

لكن حتى الندم لن يحصل عليه إذا صار ميتا بالفعل . ولم يخرجه من شوارد اليأس والشؤم سوى صوت الصديق اللبنانى المبتهج :

ـــ ها أنت قد أصبحت رجل أعمال ليبيًا بمعنى الكلمة ! استعد الآن لصورة الجواز !!

أجلسه على مقعد مديرا ظهره لجدار أبيض ، وسرعان ما ومضت عدسة التصوير مرتين دخل بعدهما إلى ركن صغير محاط بستار أسود لتحميض الفيلم والصور ، فلم يملك مجدى سوى أن يسأله وهو يشعل سيجارة جديدة :

ـــ إنك على أتم استعداد للقيام بالمهمة على خير وجه !!

أجاب من وراء الستار بلهجته اللبنانية المتدفقة بالحيوية الجزلى :

ـــ معظم المهام التى قمت بها كانت مهاما قومية غيرت تاريخ الوطن العربى ! قمت بتهريب زعماء وقادة ووزراء !!

سعد مجدى لمقارنته بالزعماء والقادة والوزراء فأطلق نفسا طويلا :

ـــ مثل من ؟!

ـــ مثل عبد الحميد السراج الذى ساعدت فريق المخابرات المصرية على تهريبه من سجن المزة فى دمشق .. وعبد السلام عارف الذى نفذ بجلده من بطش عبد الكريم قاسم فى العراق ! ولو لجأ إلىّ رجلا المشير اللذان قبضا عليهما فى المطار .. لكانا الآن بين ربوع سويسرا بدلا من عذاب المعتقلات والسجون !

سرت قشعريرة كهربية فى عروق مجدى فآلمته الطبقة الشمعية الشفافة على جبهته تحت ضغط سؤال صامت ، ممض، ملح:

ـــ هل يمكن أن يجرى له ما جرى لهذين البائسين ؟!

ثم طرد الهاجس المخيف بحجة أنه اتخذ كل الإجراءات الكفيلة بخروجه من مصر سالما غانما و لم يحذ حذو هذين الساذجين ! بل وتخيل نفسه زعيما هاربا إلى المنفى المؤقت لحين عودته إلى بلده متوجا بأكاليل الغار ليقود زحفه إلى آفاق المجد المبين !

خرج الصديق اللبنانى وهو يجفف يديه بمنشفة :

ــ ستكون الصور جاهزة فى ظرف ساعة !!

ثم فتح حقيبة أخرى أخرج منها بعض الساندويتشات وزجاجة ويسكى .

ابتسم مجدى معلقا وهو يطفئ بقايا السيجارة فى منفضة نحاسية أمامه :

ــ لم أر خبيرا مستعدا مثلك لكل شىء !!

ــ ولذلك فإن الوطن العربى فى حاجة إلى خبرتى واستعدادى من الخليج الثائر إلى المحيط الهادر !

جلسا حول مائدة صغيرة انكب عليها الصديق ليلتهم الطعام بشهية مفتوحة حسده عليها مجدى الذى لم يستطع سوى تناول لقيمات وكأسين من الويسكى خففا من الضغط الواقع على مخه مع تصاعد أبخرتهما . أنهى الصديق ما تبقى فى الزجاجة ثم استرخى فى مقعده قائلا فى دعابة :

ــ عليك أن تنام بعض الوقت .. فالساعات القادمة فى حاجة إلى أعصاب من حديد !

تضاعفت موجات القلق لتغمر كل دهاليز مجدى المعتمة برطوبة الخوف عند استماعه للجملة الأخيرة ، لكنه تظاهر بالتماسك قائلا :

ــ سأنام عندما أشعر بالحاجة إليه !

ــ براحتك !

قالها الصديق واستغرق فى النوم الذى تحول إلى شخير منتظم واطمئنان بالغ فى العينين المنطبقتين والشارب البنى اللامع الكث .. سرت فى وجدان مجدى دفقات وحشة قاتلة وتمنى لو أيقظ صديقه كى يهرب فى ثرثرته من مخاوفه . ذرع الغرفة جيئة وذهابا ثم استرخى على فراشه لكن أشواك القلق عادت به إلى مقعده ليجلس بذراعين مشدودتين وساقين شبه متصلتين ، ويتابع عقارب الساعة التى أوشكت

أن تتوقف . وظل على هذه الحال قرابة الساعة حتى توقف شخير صديقه وتململ فى مقعده لينهض مبتسما فى تساؤل :

ــ القلق يضر أكثر مما يفيد ! خذ الأمور ببساطة أكثر!

ثم نهض ليدخل إلى الركن المختفى وراء الستار الأسود ، ومجدى يتابعه بعينين وقعتا على وجهه فى المرآة المقابلة فأشاح به بعيدا إذ خيل إليه أنه ينظر إلى شخص آخر لا يعرفه . أدار ظهره للمرآة فى انتظار صديقه الذى خرج ومعه صورة جواز السفر التى قدمها لمجدى فخورا بمهارته كمصور أيضا . أمسك مجدى بها فى ضيق قلق حاول كتمانه بابتسامة باهتة تدعى الإعجاب فى حين أنه لم يحتمل صورة الشخص الآخر ! أخرج الرجل آلة صغيرة من حقيبته ليضغط بها على الصورة التى التصقت بصفحة الجواز ليبرز عليها خاتم « المملكة الليبية » .

فتح مجدى حقيبة اليد ليضع فيها جواز السفر ، وكان على وشك أن يخرج من الغرفة ليغسل وجهه لكنه تذكر أن غسيل الوجه لن يتم إلا بعد الوصول إلى بيروت . فعاد أدراجه ليرتب حقيبة ملابسه الكبيرة بمساعدة صديقه الذى كان يصدر صفيرا جزلا بأغنية فيروز « عائدون » ويراجع معه كل محتويات الحقيبة تحاشيا لنسيان أى شىء قد يشكل عقبة يمكن أن تهدم كل ما بناه .

مالت الشمس إلى الغروب فقال مجدى وهو يشعل سيجارة جديدة :

ــ أفضل أن نذهب الآن إلى المطار .. فالطريق إليه طويل !

ــ وأنا أيضا .. فأنا أريدك أن تعتاد جو المطار بشخصيتك الجديدة .. ومن الآن فصاعدًا أنت لا تعرف من لهجات العربية سوى اللهجة الليبية !!

فتح الصديق الغرفة ليرى صاحبة البنسيون مشغولة فى حديث تليفونى باليونانية ، فدخل ليحمل الحقيبة الكبيرة فى حين ترك الصغيرة لمجدى وهو يهمس فى حماس بالغ :

ــ أفضل وقت للخروج .. الآن ! عليك بالإسراع إلى الخارج فى حين أشاغلها بالمفتاح !

جذب مجدى من يده ليدفعه أمامه فى حين أسرع إلى السيدة تاركا لها مفتاح

الغرفة ، فأمسكت به دون أن تتوقف عن مكالمتها . هبط الصديق فى أعقاب مجدى الذى دخل السيارة ليترك مقعد القيادة لصديقه الذى ألقى بالحقيبة الكبيرة فى مؤخرة السيارة وهرع لقيادتها منطلقا بها قائلا :

— غدا تكون فى بيروت بسلامة الله .. وأكون أنا قد سلمت السيارة للسيدة والدتك :

— وماذا ستقول لها ؟!

— لن أحتاج إلى الكذب .. فلن يضيرك أن أقول الحقيقة !!

— وهل ستقول لها عن بيروت على وجه التحديد ؟!

— أتظننى بهذه السذاجة ؟! سأقول لها إنك سافرت إلى الجزائر ولن تعود منها إلا إذا رفع اسمك من قوائم الممنوعين من السفر !!

— وهل ستبقى طويلا فى مصر ؟!

— ليس أكثر من شهر .. أنهى فيه بعض المتعلقات ثم ألحق بك .. بعدها لن يعرف السأم طريقا إليك .. فأنت ثروة قومية بالنسبة لكل الأحزاب والصحف اللبنانية .. ناهيك عن الفاتنات الساحرات اللاتى سيملأن حياتك بهجة ونشوة .. لبنان به متسع للجميع .. وأنت لست أول سياسى أقوم بتوريده إلى هناك !

تضايق مجدى لاستخدامه كلمة « توريد » وكأنه يريد إذلاله بعد أن وقع فى شباكه ! لكن لم يكن هناك وقت لمثل هذه الكبرياء التى أصبحت رفاهية لا يقدر عليها . شعر بطعنة نجلاء تغوص فى حنايا صدره وهو يتذكر صورة أبيه الضامد الشامخ الذى لم تخدش تجربة السجن كبرياءه ! لكن سرعان ما عادت أمواج القلق لتكتسح أمامها كل مشاعر الكبرياء الجريحة والطعنة النجلاء ! كل همه الآن أن يهرب من سجن مصر قبل أن يطبق على أنفاسه ، وقبل أن يشمت فيه سعد العنترى غريم العمر . همس صوت ملح داخله فى إصرار مميت وهو يطفئ السيجارة فى منفضة السيارة :

— لن تنالها يا سعد يا عنترى ! لن تنالها أبدًا !!

انطلقت السيارة عبر الشوارع التى تساقطت عليها أردية الظلام التى خففت من

وطأة مشاعر مجدى بالتهديد، وهى المشاعر التى كان يمارسها على الآخرين دون أن يتصور فى يوم من الأيام أنها ستجثم على كاهله حتى تكاد أن تزهق أنفاسه . كان الإظلام التام لا يزال مطبقا ، واللون الأزرق الداكن هو سيد الألوان ، المتربع على زجاج النوافذ والأبواب والمداخل ومصابيح السيارات ! كيف ستبدو القاهرة من الطائرة ؟! بقعة من سواد ؟! بعد أن اعتاد أن يراها فى الليل حسناء مسترخية فى حضن الجبل والصحارى ، ترصع جسدها اللآلئ والماسات ذات الوميض الخاطف الذى يخلب الأبصار برغم الغلالة الترابية الشفافة التى تحيط بصدرها الذى يشقه النيل ، وأطرافها القابضة على الرمال !

صمت الصديق اللبنانى وكأن مهمته انتهت بتوصيله إلى المطار الذى بدت أضواء فناره فى نهاية الطريق المؤدى إليه . علت دقات قلب مجدى فتحسس تذكرة الطائرة وجواز السفر وتأشيرة الخروج والبطاقة الصحية الصفراء فى الحقيبة الصغيرة . لم تكن حركة السيارات أمام المطار ، وانطلاق الطائرات منه وإليه بالكثافة المعتادة ! انقبض قلبه عندما تذكر أن مكتب صلاح خلف قابع فى إدارة أمن المطار ! والعجيب أنه هو الذى سعى لدى أبيه كى ينقله إلى هذه الإدارة الحساسة حتى يسهل للأصدقاء والأقارب والأحباب مهمة الدخول والخروج من الدائرة الجمركية دون تفتيش ، ومع ذلك لم يلجأ أحد منهم إليه لاختبار مدى استعداده للخدمة ، إذ كان مجرد ذكر اسم حسين الطوبجى كفيلا برفع الأيدى بالتحية والترحيب !

توقفت السيارة ليهبط الصديق ويخرج الحقيبة الكبيرة من المؤخرة . بدا مجدى شاردا فى سيره إلى جواره وقد ساءل نفسه :

ـــ كيف وأين سيقضى الساعات الطويلة الثقيلة المتبقية على قيام الطائرة ؟! وهو الذى اعتاد الوصول قبل قيامها بساعة على أكثر تقدير ليقضيها فى استراحة كبار الزوار حيث يتناول الساخن فى الشتاء والبارد فى الصيف ؟!

أفاق من تساؤلاته الشاردة على صوت صديقه :

ـــ أنت فى أشد الحاجة إلى التركيز .. على الأقل حتى قيام الطائرة .. بعد ذلك

لك أن تشرد وتسترخى كما شئت !!

استدرك مجدى وهما يقتربان من نافذة شركة « طيران الشرق الأوسط » :

— لا تقلق .. فهذه ليست أول مرة أسافر فيها للخارج !

أخرج مجدى تذكرة الطائرة وجواز السفر للفتاة اللبنانية الجميلة الجالسة خلف النافذة لتتصفحهماثم تتصفح وجه مجدى الذى رمشت عينه اليسرى رغما عنه .. وفى الحال حمل العامل الحقيبة الكبيرة على الميزان لتجرى بعد ذلك على سير طويل .

أعادت الفتاة التذكرة والجواز إلى مجدى بابتسامة ساحرة سرت ببعض الراحة فى أعصابه المشدودة . عندئذ تبادل الأحضان والقبلات مع صديقه الذى بدا كما لو كان متلهفا على الفراق . وبالفعل أسرع عائدا أدراجه حتى خرج من باب المطار .

دخل مجدى من بوابة قاعة الانتظار ، وضربات الوحشة والقلق تكاد تسحقه وضابط الأمن يتفحص أوراقه وينظر من حين لآخر إلى وجهه . مرت اللحظات كدهر وإذ بالضابط يرفع يده كأنه يهم بالقبض عليه لكن الأوراق كانت فى يده فأمسك بها مجدى وهو يسترد أنفاسه المكتومة ويمسك بتلابيب شجاعته الهاربة خاصة وهو يمر بجهاز التفتيش الذاتى الذى لم يحدث فى حالته أى صوت إذ حرص على ألا يحمل معه أو فى حقيبة اليد أى شىء معدنى . فتح الحقيبة لرجل الأمن الذى لم يجد فيها سوى بعض الأوراق ونظارة سوداء فأغلقها ليسير مجدى إلى آخر ركن فى قاعة الانتظار ليجلس فى نشوة مفاجئة عندما تذكر أنه لم يضطر حتى لاستخدام لهجته الليبية إذ لم ينبس ببنت شفة عبر هذه الإجراءات ، وهو ما يبشر بالخير .

أراد أن يحتفل بشجاعته العائدة بمعظم الطمأنينة ، فطلب كأسا من الويسكى سرعان ما جاء بها النادل ومعها مزة من الخيار والفول السودانى وأعاد الكرة بكأس أخرى ، بل ونهض لشراء زجاجة كاملة من السوق الحرة وضعها بعناية بالغة فى حقيبة اليد ثم عاد إلى ركنه ليتابع المسافرين الذين التفوا حول الموائد يثرثرون بلغات ولهجات مختلفة ، التقط منها اللهجة الليبية فانزوى فى ركنه حتى لا يصادفه ليبى يهدم كل ما بناه ، وهو قاب قوسين أو أدنى من النجاح .

اقتربت عقارب الساعة من الحادية عشرة فأعلن الميكرفون :

— المسافرون إلى بيروت على طائرة الشرق الأوسط يتوجهون إلى الباب رقم ٣ .

نهض مسرعا وقد طغت سخونة الخمر فى عروقه على هواء القاعة المكيف ليجد نفسه خامس راكب فى الطابور الذى اصطف أمام الباب .

سار الطابور بطيئا لفحص الأوراق والكشف بجهاز التفتيش الذاتى مرة أخرى، وكلما ازداد الطابور فى بطئه، ازدادت دقات قلب مجدى سرعة حتى كاد أن يسمعها وهو يقف أمام الضابط الذى فتشه وفتش الحقيبة بعد أن تفحص أوراقه ببطء جعل الدماء تهرب من جمجمته، وأخيرا قدمها إليه وقد ركز عينيه على وجهه:

— مع السلامة !

لم يشأ مجدى أن يفتح فمه بكلمة . فالصمت يبدو طبيعيا أفضل من التمثيل مهما كان متقنا . أسرع حتى كاد أن يقفز داخل الأتوبيس الذى وقف فى انتظار بقية الطابور ، كان الظلام يلف ساحة المطار باستثناء بعض الأضواء الخافتة الصادرة عن طائرتين رابضتين يمينا وشمالا ، ولا بد أن طائرته الميمونة إحداهما . لم يصدق نفسه وهو على بعد أمتار من الطائر الأسطورى الذى سيحمله على جناحيه إلى جزيرة الكنز ! سيكون فى بيروت بعد ساعتين على أكثر تقدير ! هناك سيلقى بالماضى خلفه ، بكل أمجاده وكوارثه ، ليبدأ معلما وأستاذا لرجال الأحزاب اللبنانية الذين سيهرعون إليه طلبا للمشورة ! سيبدأ بمنتهى القوة التى عادت إليه يملك كل أسبابها ! حتى الحقيبة الكبيرة التى صنعت خصيصا لإخفاء الدولارات .. من الواضح أنها أرسلت إلى مخزن الطائرة دون تفتيش ! تنفس الصعداء ولسان حاله يقول له :

— سوف تثبت للعالم أجمع أن الضربات لا تصيبك وإنما تزيدك قوة ومجدًا وشهرة !

امتلأ الأتوبيس فانطلق صوب الطائرة الضخمة التى استكانت لسيارة التموين عند المؤخرة . أما المقدمة فقد توقف عندها الأتوبيس ليقفز منه مجدى ويصعد على السلم المعدنى كطفل شقى يريد أن يسبق زملاءه . وعند الباب

استقبلته المضيفة بزيها الأخضر الجذاب ووجهها الوردى الجميل والجيب التى تعلو الركبة بكثير لتكشف عن مفاتن ساقيها المرمريتين، فقال لنفسه:

ـــ هذه نفحة من نفحات الجنة الموعودة !

أجلسته فى أول مقعد فى الدرجة الأولى ، ومالت عليه لتضبط زاوية ظهر المقعد فكاد أن يقبلها فرحا ونشوة ! نظر خارج الطائرة فلم ير سوى طابور الركاب الصاعد على درجات السلم فى ضوء نوافذ الطائرة ، أما فيما عدا هذا فقد بسط الظلام سلطانه على كل الأشياء . انبعثت من ميكرفون الطائرة موسيقى هادئة ناعمة مع عطور المضيفات الفاتنات اللاتى تناثرن فى الممر الواقع بين المقاعد ، يرشدن الركاب إلى أماكنهم ، فتذكر مجدى ليلة العيد فى صباه المبكر .

جاء أتوبيس آخر ثم ثالث ، وتوالى صعود الركاب إلى الطائرة التى أوشكت مقاعدها على الامتلاء . فسمع مجدى صوتا طفوليا داخله يقول فى شقاوة منتشية وهو يشعل سيجارة احتفالا ببشائر النجاح المبكرة :

ـــ بعد لحظات تحلق الطائرة وينقشع الكابوس !

غادر آخر أتوبيس أرض الطائرة التى أغلقت أبوابها ، ودخل الطيار ومساعده كابينة القيادة . لكن المحركات لم تدر . عد مجدى اللحظات والثوانى لكن هدير المحركات لم يشنف أذنيه ! خرج الطيار من الكابينة ووقف بالقرب من الباب ، فلم يملك مجدى سوى أن يسأله :

ـــ خيرًا .. لماذا لم تدر المحركات ؟!

أجابه الطيار بلهجته التى تشبه تماما لهجة صديقه اللبنانى :

ـــ أبدًا .. لحظات وسوف نطير !

ثم تشاغل بالنظر من نافذة باب الطائرة ، فلم يملك مجدى سوى أن ينتظر فى نفس الاتجاه عبر الظلام المطبق ليسأله :

ـــ هل تنتظرون أحدًا ؟!

تجاهل الطيار سؤاله كأنه لم يسمعه ، وواصل النظر عبر نافذة باب الطائرة ، وهو ينظر إلى ساعة يده من حين لآخر ! فى حين شُدت عينا مجدى عبر الظلام بحثا

عن شيء غامض ، مجهول ، مخيف !

تحرك ضوء خافت انفصل عن أضواء المطار المكتومة داخل قاعته ، وابتدأ يكبر ويتضح دليلا على اقترابه من الطائرة! أصاب مجدى شلل مفاجئ فى تفكيره ! لقد ركب من قبل عشرات الطائرات ، ولم يحدث أن انتظرت طائرة شخصا أو شيئا بعد إغلاق أبوابها ! فماذا جرى ؟! هل هناك طرد معين أو رسالة مطلوب من الطيار توصيلها ؟!

أحس باختناق داخل الطائرة الفسيحة والضوء يقترب من الطائرة التى تحولت إلى مصيدة أوشكت أن تطبق على الفأر الأعزل المذعور ! ظهرت معالم الضوء المتحرك فإذ بها سيارة جيب توقفت عند السلم الذى لم يكن قد انفصل عن باب الطائرة بعد . هبط منها ضابط ومعه أمينا شرطة وشرطيان . أسرع الطيار ومعه مضيفتان لفتح الباب وأغمض مجدى عينيه ليزرح تحت وطأة كابوس تمنى أن يستيقظ منه ليجد نفسه فى أحضان أبيه . لكن الكابوس كان حيا ! وجد مجدى صلاح خلف بشحمه ولحمه : بريق عينيه الأسود ، وجهه الأسمر ، شعره الأكرت ، وشاربه الغليظ ، وصوته الأجش :

ـــ تفضل معنا يا سيد مجدى !!

تشبث مجدى بآخر معاقل وعيه وقوته فى لهجته الليبية :

ـــ سيادتك مخطئ .. اسمى ليس مجدى .. أنا عبد العظيم الميت .. رجل أعمال ليبى معروف بطول العالم العربى وعرضه !

نظر مجدى خلفه كأنه يستغيث بالركاب لكنهم تجاهلوا الأمر تماما وإن تابعوه من طرف خفى وصوت صلاح خلف يجلجل :

ـــ تفضل معنا يا سيد مجدى .. مجدى الطوبجى !! لن تجديك المقاومة .. فحركاتك وسكناتك مرصودة لنا منذ ٥ يونيو !

غامت المرئيات أمام ناظريه فنهض كالمنوم مغناطيسيا تاركا حقيبته إلى جوار مسند المقعد . سأله أمين الشرطة وهو يطفئ السيجارة فى منفضة المقعد :

ـــ حقيبتك ؟!

أوماً بالإيجاب ليحملها أحد الشرطيين . سار بين أمينى الشرطة اللذين أمسكا بذراعيه هابطين على سلم الطائرة حتى أدخلاه السيارة التى قادها الشرطى الآخر وإلى جواره جلس صلاح خلف . لم يتمالك مجدى نفسه فالتفت أمامه إلى صلاح هادرا بهمس صاخب :

ـــ من دون كل رجال الشرطة تأتى أنت يا صلاح يا خلف لتقبض علىّ ؟!

ـــ هذا واجبى ولا بد من القيام به على خير وجه !

ـــ لا ياسيد .. إنك ترفع شعار الواجب لتعض اليد التى ساعدتك ! سعد العنترى كان على حق ! أنسيت من الذى جاء بك إلى منصبك هنا ؟!

لم يتمالك أمين الشرطة الذى على يسار مجدى سوى أن لكمه فى فكه فصرخ فيه منتفضا :

ـــ أتضرب سيدك يا كلب ؟!

صاح صلاح فى أمين الشرطة :

ـــ لو فعلت هذا مرة أخرى فسأقدمك للمحاكمة !!

ـــ آسف يا فندم .. لا أستطيع احتمال أية إهانة موجهة لسيادتك !

ـــ دعه يقول ما يشاء طالما أنه لن يعوق مهمتنا !

شعر مجدى أنه على وشك أن يفقد وعيه وسط انتفاضات عاتية سرت فى أعصابه وشرايينه وعروقه ، والسيارة تقترب من واجهة المطار الزجاجية ذات الطلاء الأزرق الداكن ، فى حين ردد الأفق صدى هدير محركات الطائرة استعدادًا للإقلاع إلى جزيرة الكنز المفقود .

٩

توافد القادمون الجدد إلى المعتقل يوما بعد يوم ، لكن أضيفت إلى مجموعات الشيوعيين والإخوان والإقطاعيين السابقين ، مجموعة لم تعرفها معتقلات مصر وسجونها من قبل وهى المجموعة التى سارت فى ركاب المشير حتى غرقت فى النهاية فى مستنقع يونيو الذى لا قرار له . وبرغم ضيق حجرات المعتقل فإن أسرة حديدية صدئة أضيفت إليها بحيث عسكر فى كل حجرة اثنان من المعتقلين أحدهما قديم والآخر جديد ، ولكن كليهما من مجموعة واحدة كما خطط لذلك قائد المعتقل حتى تسهل الثرثرة بينهما ، فيسهل رصدها وبالتالى تبين الاتجاهات والتيارات الفكرية والعقائدية التى تحكم مسارات البلد بعد النكسة .

حرص سعد العنترى على إخفاء فرحته بالنكسة ، ساعده على ذلك قرار منع زيارات الأهل والأقارب الذى أصابه باكتئاب شديد لانطفاء شمعة الأمل التى كان يعيش على ضوئها المتبقى من زيارة شويكار وأبيه له . كانت النكسة أو الكارثة سلاحا ذا حدين بالنسبة له إذ شفت غليله من الثورة عامة ومن آل الطوبجى خاصة ، والذين لا يعرف ما الذى جرى لهم على وجه التحديد وإن كان واثقا من أنهم أول من نزلت بهم الضربات ، خاصة وأن القائد أصبح متحفظا للغاية بعد الكارثة بل و لم يتبادل معه أى كلام منذ ذلك الحين سوى تحيات عابرة فى الصباح أو المساء وبالصدفة المحضة ، وذلك برغم تفاؤل سعد أول الأمر بفوز جناح عبد الناصر على جناح عبد الحكيم ، فقد تطوع منذ بداية العام لنقل كل أخبار الزملاء إلى القائد الذى كان ينقلها بدوره إلى مكتب عبد الناصر ، وكان أمله أن يتم الإفراج عنه بمجرد حسم الصراع ، لكن يبدو أن العميل لا يمكن أن يتحول إلى حليف !
و لم يتوقف الأمر على تلاشى الأمل فى الإفراج عنه ، بل امتد ليمنع زيارات الأهل والأقارب ، وحاول أكثر من مرة أن يفتح الموضوع مع القائد لكنه لم يمنحه أية

فرصة بحجة الانشغال بالوافدين الجدد الذين ازدحم بهم المكان . ومع ذلك ظل سعد يحمل فى داخله تقديرا خاصا للقائد الذى لم يسمح حتى الآن بأن يشاركه فى حجرته وافد جديد يعكر عليه صفو انفراده بنفسه مع الذكريات والخواطر والآمال البعيدة .

عاد حقد سعد على الثورة ليسد عليه كل منافذ التنفس ، لدرجة أن إحباطه صور له أنه لن يخرج من هذه المصيدة حيا . قرأ « الميثاق » وحفظه عن ظهر قلب واستطاع أن يصبح واحدا من أفضل شراحه ، ومحاضرة مجدى الطوبجى أكبر دليل على ذلك ! ومع ذلك كانت مكافأته أن حرمت عليه زيارات الأهل !! فهل يستمر فى عمالته للنظام لو طلب منه حتى يأمن شره الذى لا حدود له أم يتوقف كى يستعيد احترامه لنفسه الذى فقده مع كل الأسلحة المشروعة التى يمكن أن يدافع بها عن نفسه ؟! لكن يبدو أنه كان مجرد ورقة فى يد النظام الذى انتهى من استخدامها فى حين ظن أنه بكل هذه الحيل الفكرية والألاعيب الميثاقية سينجح فى استخدام النظام فى تحقيق أهدافه وأولها الإفراج عنه !

أقسى تجربة يمكن أن يمر بها الإنسان أن يعجز عن تصور أية صورة ولو وهمية للمستقبل ! أن تتحول الحياة بكل رحابتها وانطلاقاتها وتطلعاتها إلى زقاق ضيق ، مسدود ، خانق ، معتم كالكابوس الحى !! انتابت سعدًا نوبات من الضيق والاختناق حتى كاد يصرخ فى وجه كل من يقابله ، لكن مجاهد عطيه أفهمه أن المعتقل فى ظل هذا القائد الكريم قد تحول إلى فندق لا بأس به وإن كانت الإقامة فيه جبرية ، وعليه أن يشكر الظروف التى أتاحت له فرصة الاعتقال مع رجل مثله لم يفتح غرفة التعذيب مرة واحدة منذ تسلمه إدارة المعتقل ، بل وأباح زيارات الأقارب .

كان سعد يظن أن التواجد فى مثل هذا المكان ، أبشع أنواع التعذيب ، لكنه بدأ يدرك أن هناك دائما أشياء أسوأ وأبشع مما يتصور ، وأن مجرد التواجد الآمن المستقر ، جنة قد يحلم به غيره ولا يجدها ، ولذلك دعا من أعماق قلبه أن يستمر القائد فى إدارته للمعتقل ، وأن يحبط كل محاولاته للانتقال منه ، خاصة وأن

عبد الناصر يثق فيه ثقة شخصية ، وقد لا يأتمن غيره فى إدارة هذا المكان الذى رادت خطورته بعد النكسة . وعلاقته بعبد الناصر ترجع إلى عمله ملازما تحت قيادته فى حرب فلسطين ووقوعه معه فى حصار الفالوجا ! أى منذ أيام الصبا الباكر !

لكن سعدًا لم يرتح لهذا التفسير المطمئن ، إذ أن علاقته الوطيدة بعبد الناصر قد تدفعه إلى نقله إلى مكان أكثر خطورة وحيوية طالما أن ثقته فيه بلغت هذا الحد ! عندما جاء سعد إلى المعتقل لأول مرة وسمع عن حجرة التعذيب ، وعن الأهل الذين لا يعرفون أين الابن والأب أو الأخ وقد يموت من الإرهاب والتعذيب دون أن يعرف أحد أين دفن ؟! سمع كل هذا وغيره ، والرعب الخفى يسرى فى عروقه مسرى الدماء ؛ لكن بمرور الأيام نسى أو تناسى كل ما سمعه ، بل وأخذه على محمل التهويل والتخويف ! فقد سُمح لزوجته وأبيه بزيارته ، صحيح فى أضيق الحدود بناء على توصية قديمة لحسين الطوبجى كنوع من التكفير لكن نصف العمى ولا العمى كله ! وكانت مهابة القائد كفيلة بضبط الموقع وربطه دون مشكلات تذكر . وكان المعتقلون يكنون له التقدير على اختلاف اتجاهاتهم ، وكأنهم جنود تحت إمرة قائدهم . فقد كان قائدا بالفعل وليس مأمورا تقليديا لمعتقل ! حرص على إنشاء مكتبة خاصة بالمعتقل ، واستدعاء المحاضرين لربط المكان المنعزل بقضايا الساعة المطروحة بين مختلف فئات الشعب ، بل وكان فى بعض الأحيان يقيم لهم ما يشبه حفلات السمر ، وفى معظم الأحيان كان يتناول طعامه من نفس طعامهم حتى يشرف بنفسه على جودته ومذاقه . فقد كان يؤمن فى قرارة نفسه أنه يتعامل مع ضحايا أقدار قدر لها أن تتصادم فى لحظة عنيفة من لحظات الزمن ، ولم يرد أن يتحالف مع القدر ضدهم حتى لا يكون هو والزمان !!

فى بعض لحظات الصفاء الذهنى أيقن سعد أن إرساله إلى هذا المعتقل بالذات ربما كان نتيجة لاشتراكه فى لجنة الدعوة والفكر فى الاتحاد الاشتراكى أيام عمله فى محل الشواربى ، وأنه عندما تكاثفت عليه الضغوط من آل الطوبجى المستندين إلى حائط المشير ، لجأ جناح عبد الناصر إلى إرساله إلى هذا المعتقل كامتصاص مؤقت

لهذه الضغوط ، مع توصية القائد عليه بصفة شخصية ! لكن لو كان هذا الظن صحيحا فلماذا لم يفرج عنه بانتهاء دولة المشير ؟! لم يعد أحد فى هذا الزمان قادرا على بلوغ بر اليقين فيما يتصل بأى شىء ! أصبحت الحياة خضما صاخبا من التخمينات والتخمينات المضادة ، من الظنون الملطفة لحرقة البال ونقيضها بنفس الحرقة العنيفة . لم يعد يدرى ما سوف تأتى به اللحظات القادمة !! حطمت العاصفة الهوجاء شراع السفينة ودفتها ، وأصبحت تحت رحمة هباتها على سفوح جبال الأمواج وقممها الهادرة !

أثار حرص القائد على عدم مشاركة نزيل جديد لسعد فى غرفته لغطا بين القدماء أو الجدد على حد سواء . وعاد اتهامه بالعمالة يطل من العيون الصامتة من جديد بعد أن تلاشى منذ صدامه مع مجدى الطوبجى فى المحاضرة الشهيرة التى انتهت بتهديد القائد له بالويل والثبور وعظائم الأمور أمام الجميع ، وبات ليلته تلك على أشواك الضياع الممض والحيرة الملتهبة . لكن سرعان ما تلاشى الاتهام عندما وقع ما أقنع النزلاء أنهم قادمون على متابعة مواجهة درامية بالغة الإثارة والعنف ولا يعرف مداها سوى الله !

فى تلك الليلة أوى سعد إلى فراشه متشبثا بأطياف شويكار التى لم يعد يعرف عنها شيئا ، وبأحلام الصبا السعيد فى بيت أبيه العامر ، هربا من الواقع الجاثم على كاهله كالكابوس ، ومتذكرا جملة علقت فى ذهنه منذ أيام الدراسة الثانوية التى لم يكملها : ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل ! لكنه لم يستطع أن ينسى أو يتناسى مجدى الطوبجى الذى يبدو أنه حفر وجوده داخل كيانه فى قالب من حديد منصهر ! لدرجة أنه كان يزوره فى المنام فى بعض الفترات مرات أكثر من زوجته ، فكرهه فى صحوه ومنامه ! وكثيرا ما حاول أن يطرد شبحه من أفكاره وخواطره قبل النوم لكنه كان يفرض نفسه عليه كما كان يفعل منذ أيام الدراسة الثانوية ، ويتسلل من شوارده اليقظة إلى أحلامه الناعسة فيراه وقد أمسك بمسدس يطلق نيرانه على رأسه وعينيه وصدره فتتدفق منه الدماء ساخنة كالنافورة وسط ضحكاته ، وفى كابوس آخر يستجمع سعد قواه الخائرة لتسرى قوة الحديد فى

أصابعه الغائرة القابضة على عنق مجدى بعينيه الجاحظتين ، ولسانه المتدلى ، ووجهه المتورم حمرة ، وعروقه المنتفخة حتى يلفظ أنفاسه الأخيرة ، وفى كابوس ثالث يهرب سعد فى سيارة قديمة الطراز ، بطيئة الحركة عبر الطريق الصحراوى الذى كادت معالمه أن تختفى هربا من مجدى الذى يطارده فى عربة سوداء جبارة توشك أن تطبق عليه من الخلف ، عربة مثل تلك التى أتى فيها للمحاضرة الشهيرة! يلتفت سعد إلى الخلف مذعورا ليجد مجدى يطبق بسيارته على سيارته ويسوى بها الطريق فلا يبقى لها أثر مثل معالم الطريق التى ضاعت تماما !

وبعد كل كابوس كان سعد يستيقظ منتفضا وأحيانا صارخا فى فراشه وهو يفرك عينيه ويضيء النور مع دقات قلبه التى تكاد تقفز به من ضلوع صدره ، ولسانه يلهج لاهثا فى همس مبحوح:

— اللهم اجعله خيرًا ! اللهم اجعله خيرًا !

ثم يطفئ النور ويتلو آية الكرسى حتى يزوره النعاس الهادئ مع ضوء الفجر المتسلل فى حنو بالغ .

هكذا كانت حاله قبل النكسة ، خاصة بعد محاضرة مجدى الطوبجى التى جعلته ينام على فراش من أشواك ورءوس رماح متألقة كجمرات النار ! لكن بعد الكارثة وسقوط دولة المشير كثرت انتصارات سعد على مجدى كلما تجرأ وطارده فى أحلامه ! كان يدرك أن أسرته لا بد أن يكون قد نالها من الكارثة نصيب الأسد ، لكن كيف ؟! ود لو دفع سنوات من عمره ليعرف ماذا وقع لهم على وجه التحديد ، ومجدى على وجه الخصوص ! ود لو فاتح القائد فى هذا الموضوع وأخذ من وقته أقل من دقيقة ، لكن الغموض أصبح سمة كل التصرفات والتحركات ! وغلالة النفوس التى أضناها الزمن !!

تسلل النعاس أخيرا فى تلك الليلة إلى جفون سعد المتثاقلة ، وشبح مجدى يتراءى عبر أفق الصحراء الذى أضاء بنور ذابل مثل مصباح غرفته المتهافت . كان مجدى قد تعثر فى سيره الوئيد بظهره المنحنى تحت سرير علا أسياخه الحديدية صدأ لطخ قميصه الحريرى الأبيض ، فأحدث تعثره قعقعة مثل هزيم الرعد الذى امتزج

بقهقهات سعد الذى كاد يسترخى على قفاه من شهوة الثأر التى ارتعش بها جسده الذى ظل يهتز حتى تسلل من انطباقة رموشه ضوء ذابل وكأن حجرته قد فتحت وأضيئت لتكشف عن شبح مجدى الطوبجى قابعا على فراش إلى جواره ، فراش مثل ذلك الذى كان يحمله على كاهله عبر أفق الصحراء ، ولطخ قميصه الحريرى الأبيض بصدأ أسياخه الحديدية !

توارى النعاس فى لحظات خرجت عن ركاب الزمن وسقطت من دقاته ، ورموش سعد تنفرج مثل ستار ترتفع عن مشهد كابوس ضاعت فيه الحدود بين اليقظة والحلم ، بين الماضى والحاضر ، بين الصبا والرجولة ، بين الأمل والألم ، بين الصعود والهبوط ، بين الانطلاق والسقوط ، بين الحياة والموت !

تقلب سعد فى فراشه لينام على جانبه الأيمن ليرى المصباح الذابل مضاءًا ، وهو يعلم علم اليقين أنه أطفأه قبل بلوغه الفراش ! ثم وجد باب الحجرة مفتوحا وهو يعلم علم اليقين أنه أغلقه كعادته كل ليلة ! لكن الأمر لم يقتصر على المصباح المضاء والباب المفتوح بل بلغ آفاقا تمنى سعد أن تكون كابوسا سرعان ما يستيقظ منه منتفضا كما اعتاد من قبل فى ليال طويلة وكثيرة !

استدار لينام على جانبه الأيسر فسمع صوتا يصرخ فى همس ذبيح خيل إليه أنه صوته :

ــ غير معقول !! أنت من دون الناس جميعا ؟! لا .. كل شىء مرسوم ومقصود تماما !! حلم أم علم هذا ؟!

تحالف الضوء الذابل مع الهمس الذبيح ليفتح سعد عينيه ويرى شبح مجدى الطوبجى قابعا على فراش احتل الضلع المقابل من الحجرة إلى جوار الحوض ، وينظر إليه نظرات طافحة بالحمرة ، ومحاصرة بهالات سوداء سرت فى وجهه بكل مرارة اليأس التى عرفها العالم منذ بدء الخليقة ! جلس سعد فى فراشه لعل الكابوس ينقشع ، لكن المشهد كان متجسدا وراسخا كجبل المقطم الذى أطل عليه كما يطل على القاهرة كلها ! لهج بتساؤل جاء خافتا مكتوما من أغواره السحيقة وأعماقه المظلمة :

ــ غير معقول !! أنت من دون الناس جميعا ؟! كيف أتيت إلى هنا ؟! من الذى جاء بك إلى حجرتى ؟!

استجمع مجدى قواه الخائرة ونبراته المرتعشة :

ــ لم أعد أعرف شيئا منذ لحظة القبض علىّ !! لم يعد لى اختيار أو إرادة !! هم الذين جاءوا بى إلى هنا لنتولى تعذيب أنفسنا بنفسنا !! فإذا أردت أن تنفذ ما رسموه لنا فسأدافع عن نفسى حتى الموت !!

ــ لا أريد أن أسمع صوتك أو أرى وجهك .. فهل تعتقد أنك تستطيع أن تشاركنى الحجرة ؟!

ــ هم الذين قبضوا علىّ ؟! وهم الذين اختاروا لى هذا المعتقل ؟! وهم الذين ألقوا بى فى هذه الحجرة بالذات !! فأى اعتراض لك على ذلك يكون موجها إليهم ! فهم أولو الأمر !!

ــ عجيب أمرك ! لا زلت على سلاطة لسانك !

ــ أعلم أنك تعيش أسعد لحظات عمرك الآن ! فلم يتذوق أحد قبلك لذة التشفى والشماتة مثلك ! لكننى أعلم أيضا أنك قوى ومسنود .. فأنت عميل للسلطة الجديدة .. ويمكنك أن تنكل بى .. لكننى لن أقف مكتوف اليدين .. بل سأصل معك إلى نهاية المطاف .. سأدافع عن نفسى حتى الموت !! موتك أو موتى ! فقد منحنى اليأس قوة أعنف من التى منحتك إياها السلطة !!

تجمع الماضى داخل سعد فى لحظة واحدة لينفجر مثل قنبلة ذرية ألقاها طيار مجنون فى غفلة من أولى الأمر ظنوا أن كل شىء يسير طبقا للخطة المحكمة . قفز سعد من فراشه كطلقة رصاص صارخا :

ــ ستكون نهايتك على يدى هذه الليلة !!

أطبق بأصابع فولاذية على عنقه . قاومه مجدى بصراخ مخنوق ، ونظرات جاحظة ، ولسان كاد يتدلى من بين شفتين علتهما صفرة ، ومقاومة واهنة ،

وكلمات لاهثة متقطعة :

ــ اقتلنى ! لم تعد عندى أدنى رغبة فى الحياة !

استعاد سعد وعيه فاسترخت أصابعه على عنق مجدى :

ــ كنت السبب فى طردى من المدرسة وتشريدى ثم اعتقالى .. لكنك لن تتسبب فى إعدامى !! حياتى لن تكون فدية لحياتك !!

ارتمى على فراشه ومجدى يتحسس عنقه بيديه :

ــ صلاح خلف هو الذى اعتقلك .. واعتقلنى أنا أيضا !!

فار الدم مرة أخرى فى رأس سعد لتتجمع أبخرته فى قمته ويهجم ثانية على عنق مجدى الذى عاجله بلكمة فى وجهه فترنح على فراشه :

ــ كاذب ! كاذب ! صلاح خلف كان مجرد أداة فى يدك !

تحفز مجدى للدفاع عن نفسه ، لكن صفرة وجهه والهالات السوداء حول عينيه أنبأت بما مر به فى الأيام الأخيرة :

ــ لست خائفا منك حتى أكذب عليك !

طفح الماضى مرة أخرى بغشاوة على عينى سعد فقفز بكل ثقله على مجدى الذى حاول رفسه لتدور معركة ضارية باللكمات والركلات واللطمات والصرخات التى أضيىء على أثرها الممر الذى ردد صدى صيحات عسكرية ، وإذا بالقائد يقف عند الباب المفتوح يراقب محاولات رجاله فى فض الاشتباك بين النمرين الجريحين اللذين ارتميا لاهثين وسط حبات العرق الممتزج بالدم عند الشفة السفلى لسعد ، والمتألق على كدمة حمراء أسفل وأعلى عين مجدى اليسرى . صاح القائد بنبرات تردد صداها فى الحجرات المجاورة التى يبدو أن النائمين فيها قد استيقظوا :

ــ لا تتعجلوا التعذيب ! فهنا توجد حجرة للتعذيب لم أفتحها حتى الآن ! لكن يبدو أننى سأضطر إلى ذلك ؟!

كان سعد على وشك أن يقول للقائد معاتبا :

ــ أهذه نتيجة خدماتى لكم ؟! ألا يوجد مكان آخر فى المعتقل لهذا الكلب سوى غرفتى ؟!

لكنه استدرك مستعطفا :

ــ سيادتك أدرى بما بيني وبينه ! أرجوك ابعدنى عنه أو ابعده عنى ! فأنا لا أستطيع أن أتحكم فى نفسى كلما رأيت وجهه أو سمعت صوته !!

ثم نهض سعد واقفا وقد استند إلى أعمدة الفراش الصدئة مظهرا كل آيات الاحترام والتقدير والرضوخ والطاعة للقائد الذى قال وهو يتابع مجدى الذى وقف بدوره فى مهانة لا مثيل لها :

ــ هل تعرفنى كيف أنهض بمسئولياتى ؟!

ذهل سعد للهجة القائد ذات الصرامة المفاجئة لكنه حشد كلماته بكل نبرات الذل والهوان :

ــ العفو يا فندم .. العفو !! نحن رهن إشارتك فى كل ما تأمر به !!

ــ لا أريد أن أغير أسلوب قيادتى للمعتقل فى آخر أسبوع لى هنا !! كنت أبا وأخا للجميع .. ولا أريد أن أتحول إلى جلاد فى الأيام القليلة المتبقية لى هنا !

ثم وجه كلامه إلى مجدى الطوبجى الذى ركز عينيه على الأرض :

ــ أعتقد أنك تعلم بالتفصيل عما يدور فى المعتقلات الأخرى ؟!

لم يرفع مجدى عينيه وإنما اكتفى بكلمات حائرة مبعثرة :

ــ من سوء حظى يا فندم .. أننى أتيت إلى هنا فى نفس الأسبوع الذى سنحرم فيه منك !!

استدار القائد فى طريقه إلى الباب :

ــ أية مشكلات ومتاعب جديدة .. سأطبق لوائح المعتقل بحذافيرها .. ولقد أعذر من أنذر !

ثم خرج وخلفه رجاله ليجد النزلاء متناثرين فى الممر خارج حجراتهم المفتوحة وعلامات الاستفهام والتعجب تتراقص فى عيونهم التى هجرها النوم لكن صيحة القائد ألزمتهم أماكنهم فى لمح البصر .

عاد السكون ليطبق على المكان برغم الهدير الفائر داخل سعد ومجدى الجالسين على الفراشين المتقابلين . وضع مجدى رأسه بين يديه فى حين تحسس سعد شفته

السفلى الجريحة :

— سأعتبرك غير موجود .. فكفانى ما أصابنى منك !!

— وأنا لا أريدغير ذلك.. فكفانى المصير الذى يربط بينى وبينك برغم أنفى ؟!

— المصير حجة واهية !! فلم يكن طردى من المدرسة .. أو اعتقالى أو وضعك حارسا على محل الشوارلى من صنع القدر !! كان من تخطيطك مع أبيك وصلاح خلف .. لكن يبدو أن من يتطاول ويتصور فى نفسه القدرة على القيام بدور القدر .. لا بد أن يبطش به القدر فى النهاية !!

لم يرد مجدى وإنما لاحظه سعد وهو يهتز برأسه بعنف مكبوت بين يديه وسرعان ما خرج نحيبه ذبيحا كطفل ضال يتيم ! اجتاحت سعد رغبة غريبة غامضة فى الضحك الذى انطلق فى سلسلة متقطعة من القهقهات الخاوية فى سخرية مريرة سرعان ما انقلبت إلى بكاء حار !!

١٠

— مصيبة !! لم أحتمل غيابك عنى وأنت فى المطار !! فكيف أحتمله وأنت بعيد عنى وسط الصحراء التى لا أول لها ولا آخر ؟!

— يا حبيبتى الغياب واحد .. سواء أكنت فى نفس المدينـة أم فى وسط الصحراء !!.

— على الأقل كان يمكننى الاتصال بك تليفونيا!!

— ويمكنك أيضا الاتصال بى فى موقعى الجديد .. وأعدك بأن كل وقت فراغ لى سأقضيه فى الحديث معك !!

— وكنت تأتى لقضاء نهاية الأسبوع معى على الأقل !!

— وسأفعل هذا أيضا .. فلم يعد المكان مجهزا بالسيارات القوية فحسب .. بل بطائرة هيلوكوبتر للانتقال السريع !!

— لا أقول هذا لأعوقك عن واجبك !! وإنما لحرقة قلبى على حياتنا الزوجية التى لم تعد تجمع بيننا مثل كل المتزوجين !! فى أيام الخطبة كنا نتقابل مرات أكثر وأطول !

ابتسم صلاح ببريق عينيه الأسود وهو على وشك الانتهاء من عشائه :

— حتى نشتاق لبعضنا بعضا أكثر !!

ابتسمت بدورها ابتسامتها العذبة الساحرة وهو تربت على يده :

— ألم تسمع أم كلثوم وهى تغنى : واحشنى وانت قصاد عينى ؟!

أمسك بيدها ليقبلها فى حنان ساخن سرى فيها :

— إذًا .. لماذا تخشين الغياب إذا كانت الوحشة واحدة ؟!

سحبت يدها من بين أصابعه تحت وطأة سحابة من الكآبة :

— لا أعرف لماذا كان قلبى يؤكد لى دائما أن الاختيار سيقع عليك برغم

اعتقادك أنهم يبحثون عن ضباط غير متعاطفين أساسا مع المعتقلين حتى يسوموهم أشد أنواع العذاب .. فى حين كنت أنت على الحياد بالنسبة لكل الأطراف المعنية ؟!

ـــ بعد قيامى بالقبض على مجدى الطوبجى لم أعد على الحياد !!

ـــ ولهذا اختاروك لهذا المعتقل بالذات ؟!

ابتسم ابتسامة لم تخل من شبح مرارة :

ـــ ولكى أكون مع رفيقى العمر !! لكن رب ضارة نافعة !! فقد سبقت كل زملائى فى الحصول على رتبة المقدم فى وقت قياسى لمجرد انتقالى إلى هذه الوظيفة الجديدة !! كما أننى سأحتل مكانا كان يشغله لواء جيش سابق وصديق حميم لعبد الناصر شخصيا !!

لم تكن شهية لواحظ مفتوحة للعشاء مثلما كانت مفتوحة للحديث :

ـــ وهل إدارة هذه الأماكن غير مرتبطة برتبة معينة ؟!

ـــ إنها أماكن استثنائية بطبيعتها .. وبالتالى لا تخضع لقاعدة معينة .. فمثلا كان المأمور السابق للمعتقل يسمى نفسه قائدا لاعتزازه بعمله كضابط تحت قيادة عبد الناصر فى حرب فلسطين .. ثم عمله قائدا فى حرب ٥٦ .. ثم فى حرب اليمن فى ٦٣ .. ولذلك لم يعجبه لقب المأمور وأحاله إلى قائد !

ـــ لكن كيف يكون صديقا حميما لعبد الناصر ؟! وله هذه الأمجاد !! ويعينه مجرد مأمور لمعتقل ؟!

ـــ مجرد تعيين عبد الناصر له شرف كبير .. فالكل يتمنى مثل هذه الثقة .. كما أن هذا المعتقل يعتبر ممثلا لكل اتجاهات الرأى العام والجماعات السياسية فى مصر .. ولذلك فهو مقياس حساس ومفيد فى رسم الاستراتيجية الأمنية للبلاد .. ولا يمسك به سوى أهل الثقة !!

ـــ كل هذا يشكل مسئولية خطيرة عليك أن تواجهها بكل الحذر والدقة !

ـــ أصبح الحذر والدقة جزءا من طبيعتى .. فأنا لن أتبع أسلوب رجل منحه عبد الناصر حرية التصرف من أجل بلوغ أسرار واتجاهات اتفقا عليها .. سأنفذ

اللوائح والتعليمات والأوامر بحذافيرها !

— وهل ينطبق هذا على سعد العنترى ومجدى الطوبجى ؟!

— إنهما التحدى الحقيقى لى ! فقد أكد لى رئيسى عندما أبلغنى بنبأ النقل والترقية أن الأصل الأرستقراطى للقائد السابق للمعتقل جعل معاملته لينة لمن ينتمون إلى نفس الأصل .. وقد تغيرت السياسة الآن بحيث يجب على الجميع أن يشعروا بأن هناك سلطة واحدة فقط .. وأن بطشها يمكن أن يصل إلى أى إنسان فى أى مكان !

بدت مسحة من الحزن المهين على نبرات لواحظ المتسائلة فى حيرة :

— وهل كان أصلنا المتواضع السبب فى اختيارك لهذا المنصب حتى تبطش بكل من هو أعلى منا من أمثال سعد العنترى ومجدى الطوبجى ؟!

قبلها فى خدها قبلة سريعة جزلى :

— يا ست الكل .. لا تأخذى الموضوع بهذه الحساسية !! فأنا لن أبطش بأحد .. وإنما سأقوم بواجبى على خير وجه كعادتى دائما !! وسأكون المأمور الذى يتمنى الجميع رضاءه حتى لو كانوا من أهل القمة السابقين أو اللاحقين !!

— وإذا عاملك سعد ومجدى على أنك ابن السائق الخاص لأسرتيهما .. فماذا سيكون الحل ؟!

لاحظ القلق الدفين عليها بين ثنيات ألفاظها فقبل يدها :

— أية إهانة توجه لمأمور المعتقل موجهة إلى السلطة نفسها بكل رءوسها ورموزها .. ومن يظن فى نفسه القدرة على توجيه مثل هذه الإهانة عليه أن يتحمل عواقبها الجسيمة !! فلا يزال قطار الثورة قادرا على أن يمزق تحت عجلاته كل من يحاول الوقوف فى طريقه وعلى قضبانه الحديدية !! ولا بد أن يصل رعد الثورة إلى كل الآذان .. البعيدة والقريبة على حد السواء .. ومن يصم أذنيه عن سماع الرعد لن يهرب بجلده من الصاعقة عندما تهبط عليه !!

لأول مرة تراه لواحظ فى هذا الضوء الحاد ! إنه يتكلم بثقة وقوة كالقادة والزعماء دون أى حرج أو حساسية . امتزج إعجابها به بحبها له فجرفها طوفان من

المشاعر الحارة المتدفقة فنهضت لتقف إلى جواره وقد احتضنته فى جلسته ، فأجلسها على ساقيه واحتواها بذراعيه هامسا :

ــ أصل عبد الناصر المتواضع لم يمنعه من أن يكون زعيم العرب كلهم .. وواحدًا من أبرز زعماء العالم !!

احتوت عنقه بذراعيها وهمست بشفتيها الغليظتين اللافحتين لخده وعنقه :

ــ وهل تنوى أن تصبح مثله ؟!

ــ على الأقل .. فأنا أتتبع خطاه !

أنزلها من على ساقيه ثم نهض ليحملها على ذراعيه إلى غرفة النوم حيث كانت وفاء مستغرقة فى مهدها . انحنى صلاح بلواحظ حتى مددها على الفراش ثم انحنى ليقبل وفاء فى جبينها فابتسمت كما لو كانت فى حلم سعيد . راقبته لواحظ فى وجد جارف وهى مسترخية فى غلالتها البيضاء الشفافة التى تبرز كل ما يعشقه فى جسدها . هرع إليها ليسترخى إلى جوارها فى نشوة غامرة تألقت فى وميض عينيه الأسود بابتسامة حالمة وهمسة حانية :

ــ ربما كان المعتقل المكان المثالى لإتمام رسالتى للماجستير .. فالمطار بحركته الدائبة ليل نهار ومتاعبه التى لا تنتهى .. لا يتيح لى فرصة الدراسة الهادئة المتأنية .. بدليل أننى لم أكتب صفحة واحدة حتى الآن !

دفنت رأسها بين أحضانه الساخنة متسائلة فى همس :

ــ لا أرى ضرورة لمثل هذه الدراسة .. فلن تحصد منها أكثر مما حققت !

ــ أمثالنا لا يملكون سوى سلاح العلم !

ــ وأنت لست جاهلا .. فأنت خريج كلية الشرطة .. وحامل ليسانس فى الحقوق !

ــ لا بد أن تنظرى أبعد من اليوم الذى تعيشينه ! حتى لو حصلت على رتبة اللواء سأحال إلى المعاش .. ربما فى الخامسة والأربعين إذا لم تمد مدة الخدمة .. عندئذ سألزم عقر دارى أو أبحث عن مقهى .. وأنا لم أتعود أن أعيش لا شغلة ولا مشغلة !!

ـــ هل ستُدَرّس فى الجامعة بعد حصولك على الماجستير أو حتى الدكتوراه ؟!

ـــ هذا احتمال .. لكن موضوع رسالتى يتيح لى خبرات متعددة .. فدراسة دور رجل الشرطة فى مكافحة جرائم المال .. تمكننى من عالم المال والتجارة .. وأنا لست أقل من كبار الضباط الذين قاموا بمشروعات تجارية ناجحة بعد خروجهم إلى المعاش .. كما أن مكافحة جرائم المال لا تنطوى على العنف الذى تتميز به الجرائم الأخرى .. بل تعتمد على العلم والخبرة والدهاء .. وأنت تعلمين أننى لا أميل بطبيعتى إلى العنف !!

قبلت الشعيرات المتكاثفة على صدره العارى :

ـــ وهل تعتقد أن عملك فى المعتقل لن يحتاج إلى العنف ؟!

ـــ أرجو الله ألا ألجأ إليه .. لكن للضرورة أحكاما .. وحماية نفسى والحفاظ على صورتى عند الرؤساء لا يمكن التهاون فيها بأية حال من الأحوال .. لن أتساهل مع أى إنسان مهما كان على حساب حياتى ومستقبلى ! فقد علمتنى الحياة أن الذى لا يساعد نفسه لن يساعده الآخرون .. بل ربما داسوا عليه فى طريقهم !!

انكمشت فى صدره وذراعاها تلتفان حول جسده :

ـــ لكنك علمتنى أن العنف سلاح ذو حدين .. ويمكن أن ينقلب على صاحبه بنفس البطش الذى استخدمه مع الآخرين !

احتواها منتشيا بحرارة جسدها التى تسرى فى صدره حتى قدميه :

ـــ هذا إذا استخدمه كهدف فى حد ذاته لإشباع ميوله السارية !! أما إذا لجأ إليه كوسيلة .. مجرد وسيلة لتحقيق النظام والانضباط والمهابة ووضع الأمور فى نصابها .. فإنه سيستخدمه بقدر وبحرص داخل حدود لا يتجاوزها .. ثم يهجره بمجرد تحقيق هدفه .. ولذلك فأنا أفضل أن أسميه فى هذه الحالة حزما وحسما وليس عنفا !!

زادت من قبضة ذراعيها حول خصره :

ـــ ألا تلاحظ أن الكلام فى العمل والسياسة يستغرق كل وقتنا كلما التقينا .. فى حين أننا لا نتكلم فى الحب والغرام على الإطلاق ؟!

ضحك ضحكة جزلى اهتز لها شاربه الغليظ فوق شفتيه الداكنتين :

ــ السياسة أكثرها كلام .. بل هى أحيانا كلام فى كلام .. أما الحب فعمل وممارسة أروع من أى كلام !!

استمدت نشوة جارفة منه فانتقلت إليها عدوى ضحكته الجزلى :

ــ وأين هى هذه الممارسة ؟! يبدو أنك أصبحت عضوا عاملا بمعنى الكلمة فى الاتحاد الاشتراكى .. تقول ولا تعمل !!

أبعدها عنه ثم انهال على جسدها بالقبلات الملتهبة التى انطبعت بشفتيه ولسانه على شفتيها وعنقها ونهديها وبطنها وساقيها وهى تتلوى بفعل الشحنات المتفجرة تباعا وقد تخلصت من غلالتها لتغطى جسدها بجسده الحبيب ، لكن من أعماق آبار الرغبة الكامنة والمتصاعدة إلى الرأس المنتشى الثمل بأبخرة مخضبة بلفحات لاتقوم، دوى رنين بدا خافتا لأول وهلة، لكنه سرعان ما تكرر ليعلو ويعلو ، وليفيق الاثنان على دقات التليفون اللعين ، فيهرع صلاح والعرق يتصبب من جسده المشتعل بالرطوبة الناضحة بلهيب تحت الجلد ليمسك بالسماعة فى ضيق :

ــ ألو .. أيوه يا فندم .. ألو ....

لكن وفاء كانت قد استيقظت فى بكاء متصل فهرعت إليها لواحظ لتحتضنها وتهدهدها دون جدوى ، فى حين بدا صلاح عاجزا عن سماع الطرف الآخر بوضوح ، فأسرعت لواحظ بها إلى غرفة أخرى مظلمة لعلها تعود إلى نومها .

ــ أيوه .. وهو كذلك .. سأكون مستعدا فى الفجر .. مع السلامة !

وضع السماعة ليجلس على طرف الفراش فى حين عادت إليه لواحظ حاملة بين ذراعيها وفاء التى تحول بكاؤها إلى عويل ونشيج ، رافضة بكل إصرار أن ترضع من ثدى أمها التى قالت والضيق يمسك بخناقها :

ــ لن تنام قبل ساعات .. فقد نامت لمدة طويلة ..ليفزعها التليفون برعبه .. لا بد أن ننقله من غرفة النوم !!

ــ وأنا بعد ساعات سأكون فى مطار غرب القاهرة ..الهيلوكوبتر فى انتظارى إلى مقر عملى الجديد !

جلست إلى جواره وهى تندب حظها :

ــ ليس لنا فى الطيب نصيب !

احتواها فى جلستها بذراعه اليمنى فى حين حاول بيده اليسرى مداعبة وفاء وهدهدتها لكنها واصلت نشيجها وعويلها ورفساتها فى إصرار أغرقهما فى دوامة من اليأس والضيق والإحباط .

ــ لا أدعى أننى أحبك .. بل فى الحقيقة أمقتك وأحقد عليك من صميم قلبى .. ومع ذلك لا أنوى أن أدخل معك فى صراع جديد .. لكن السؤال الذى ظل يطاردنى طوال ست سنوات دون أن أجد أية إجابة عليه : لماذا كل هذا الحقد والاضطهاد والمطاردة ؟! لماذا الإصرار على طردى من المدرسة وتحطيم مستقبلى برغم تفوق العلمى ؟! لماذا الإصرار على مطاردة شويكار فى محاولات مستميتة لتطليقها منى لمجرد أنها أحبتنى وتزوجتنى بحكم انتمائها إلى نفس طبقتى ؟! لماذا التخطيط للإلقاء بى فى المعتقل وتعيين أبيك حارسا على محل الشوارِبى ؟! لماذا الإسراع إلى إلقاء محاضرات علينا بهدف التشفى فىّ والسخرية منى ؟! هل ضاقت كل المعتقلات فى وجهك فلم تجد غير هذا المعتقل لتبشر فيه بعقيدة الميثاق ؟! هل كنت تتصور أن يلقوا بك فى هذا المعتقل بالذات وفى حجرتى على وجه الخصوص ؟! لو خطر هذا ببالك فى لحظة تكشف وصدق لما فعلت ما فعلت !!

صمت سعد للحظات يسترد فيها أنفاسه المبهورة فى جلسته على فراشه فى مواجهة مجدى الذى أدار له ظهره على الفراش المقابل متظاهرا بالنوم . واصل سعد حملته التى لم تهدأ منذ مجىء مجدى إلى غرفته فى تلك الليلة الرهيبة الغريبة :

ــ أعرف أنك لست نائما ! سأواصل إلقاء هذه الأسئلة حتى أجد إجابة شافية عنها !

نهض مجدى منتفضا فى فراشه ليقول دون أن يواجه نظرات سعد :

ــ هل يعقل أن أستيقظ كل صباح على هذه الأسئلة ؟! أرجوك ارحمنى !!

ــ ليس قبل أن تجيب على أسئلتى !! تريدنى أن أرحمك من مجرد أسئلة .. وأنت لم ترحمنى من بؤرة الجحيم التى دفعتنى إليها لتستمتع بعذابى وضياعى وذلى وسجنى !!

ـــ قلت لك ألف مرة .. النفس أمارة بالسوء !

ـــ إجابة عامة لا تشفى غليلى !

ـــ مجرد وجودى معك فى هذه الزنزانة عذاب ما بعده عذاب كنت أفضل الحكم بالإعدام علىّ عن أن أموت كل لحظة أعيشها هنا معك .

ـــ لا تحاول أن تلف وتدور لتتهرب من الإجابة ! لن أتركك حتى لو أصابنا الجنون نحن الاثنين !!

تردد مجدى بعض الشيء ثم أخرج من جيب البيجاما الباهتة علبة سجائر ليشعل واحدة ويطلق نفسا طويلاً تصاعد إلى السقف :

ـــ موافق .. لأخلص نفسى من هذا الجحيم .. لكن بشرط ..

توقف قليلا لينظر بعينين حمراوين إلى سعد الذى قال :

ـــ تفضل .. أشرط !!

ـــ بشرط ألا تلجأ إلى العنف الجسدى .. فكفانا ما نحن فيه من مصائب !

ـــ وهو كذلك .. العنف الجسدى لا يعنى سوى القضاء علينا أنا وأنت .. وأنا لن أفرط فى حياتى من أجلك مهما كانت الدوافع .. تفضل .. أنا منصت إليك !

سحب مجدى نفسا عميقا أطلقه على شكل سحابات متماوجة من الدخان الصافى الشفاف ، ثم أزاح حشرجة فى حلقه :

ـــ منذ أن ربطت المقادير بيننا وأنا أراك تتصرف وكأنك من طينة أخرى غير طينة البشر ..الأنف الشامخ والعنجهية التى تحاول إخفاءها لكنها كانت مكشوفة دائما فى عينى .. كنتم تنظرون إلى الضباط الأحرار على أنهم أبناء السوقة والعوام .. فهذا أبوه بوسطجى وذاك أبوه باشكاتب وهكذا .. فى حين أن معظمهم من الطبقة الأرستقراطية والأسر الإقطاعية .. حتى أكثرهم تطرفا إلى اليسار .. نحن مثلا .. عائلة الطوبجى من أصل تركى .. جاء الجد الأكبر لنا من الأناضول منذ حوالى ثلاثة قرون .. ولنا أرض من أجود الأراضى الزراعية فى المنوفية والغربية .. وطبق علينا قانون تحديد الملكية مثلكم تماما ..

قاطعه سعد والدم الساخن يتصاعد إلى رأسه :

— وعندما طبق عليكم القانون .. لم يجد ما يحدده .. فقد وزعتم الفدادين على الأسرة فردًا فردًا .. لدرجة أنك أنت نفسك كنت تمتلك خمسين فدانا و لم تتجاوز الثامنة من العمر .. أما نحن فقد هبط قانون تحديد الملكية كالصاعقة علينا ثم سقط قانون التأميمات علينا ليصبح أبى موظفا.. مجرد موظف عند أبيك الذى لم يضع فى اعتباره أبدًا أن أبى هو الذى أنشأ المكتب وأداره وظل يملكه حتى أخذ منه عنوة فى لحظة غادرة من الزمن !

تابعه مجدى وهو يدخن بشراهة جعلت سعدًا يفتح النافذة على مصراعيها ليطرد هواء الصباح طيات الدخان المتكاثف . كانت شهية مجدى قد انفتحت لأول مرة للحديث المسهب فلم يعبأ بتحرش سعد وقال :

— المهم .. ولا بد أن أعترف بهذا .. كان فى داخلى شىء غامض يدفعنى دائما إلى إثبات تفوق عليك فى كل شىء !!

— حتى لو استخدمت أسلحة غير شريفة ؟!

اهتز سعد فى جلسته على طرف الفراش اهتزازات عصبية ، فتراجع مجدى حتى التصق ظهره بالجدار الجيرى المتآكل :

— سألتزم الصمت لو فكرت فى استخدام العنف !!

— أنا لست بلطجيا !! تفضل !!

— ليست هناك أسلحة شريفة وأخرى غير ذلك .. الحياة صراع .. والبقاء للأقوى .. لمن يملك الأسلحة !

— وظللت هكذا حتى فقدت الأسلحة فى غفلة من الزمن .. وألقى بك هنا ؟!

— لست أنت الوحيد الذى غدر بك الزمن !!

— أنتم الذين غدرتم بنا .. ولأن الغدر يجرى فى دمائكم .. فقد غدرتم ببعضكم البعض عندما لم تجدوا من تغدرون به !!

— طبعا .. لك الحرية فى أن تقول ما تشاء .. لكن لا بد أن تعلم أن صلاح خلف هو الذى خطط لحملة الشوارىي واعتقالك ووضع محلك تحت الحراسة !!

— تحت حراسة أبيك ؟! أليس كذلك ؟!

— كان أبى حارسا على محلات كثيرة غيره .. ولم يكن محلك هو المقصود بالذات !

— وعندما أصر أبوك على طردى من المدرسة برغم توسلات أبى إليه .. ألم أكن أنا المقصود بالذات ؟!

— أعترف لك أن أبى كان معذورًا فيما فعله !! فكنت قد صورت له الأمر على أنك كنت تنوى قتلى بالفعل .. بسبب الحقد الذى تكنه لنا !

— وتكون النتيجة أن أطرد من جميع مدارس الجمهورية ؟!

— كانت الثورة فى تلك الأيام فى قمة جبروتها وبطشها .. لدرجة أن وزير التربية والتعليم .. وكان عضوا فى مجلس قيادة الثورة .. قال لأبى إن الناس لا بد أن يعرفوا أن الثورة إذا قالت للشىء: كن فلا بد أن يكون وفورًا !

— لا زلت أتذكر هذه الحكمة الذهبية .. كانت معلقة فى إطار خشبى وبالحبر الشينى فى أحد ممرات المدرسة !! لكن جبروت الثورة لم يمنع الجنود اليهود من أن يستحموا الآن فى مياه قناة السويس .. ويدكوا مدنها بالمدافع من حين لآخر .. وسماؤنا مفتوحة لطائراتهم حتى أسوان !!

— وكيف عرفتم هذه الأخبار وأنتم فى هذه العزلة ؟!

— كان القائد يسمح بالصحف والمجلات من حين لآخر .. فلا يعقل ألا نعلم ما يعلمه العالم كله فى وضح النهار !!

أوشك عقب السيجارة على أن يحرق أصابع مجدى ذات الأظافر الصفراء الداكنة فأسرع بمد ذراعه وإطفائها فى قاعدة النافذة الخشبية :

— وها هو يترك المعتقل اليوم لمن لا نعرف ما سوف يفعل بنا !!

— لكن لماذا شارك صلاح خلف أو خطط كما تقول لإغلاق محلى واعتقالى ؟!

— الحقد هو الدافع الأساسى الذى حاول أن يخفيه دائما بافتعال الرقة والسماحة !!

شرد سعد ببصره فى بياض الجدار المتآكل وكأنه يجتر الذكريات :

— فعلا .. كأننى أراه الآن .. فى صباح ذلك الاثنين المشرق فوجئ تجار الشواربى بقوات الأمن تحاصرهم فى هجمة عاصفة تم فيها القبض على معظمهم وإغلاق محلاتهم بالشمع الأحمر .. وتوجيه تهم التهريب والاتجار فى الممنوعات .. والتهرب من الضرائب .. وتدمير الاقتصاد القومى .. والتعامل مع العدو بعد أن أثبتوا فى محاضرهم أن كل السلع المضبوطة بدون ماركة هى من صنع إسرائيل .. وكان صلاح خلف أحد قادة الهجوم .. وكان محلى ضمن المحال التى وقعت فى نطاق تفتيشه وقيامه بجرد كل كبيرة وصغيرة .. متجنبا النظر إلى وجهى .. ومدعيا التفانى فى القيام بواجبه بصرف النظر عن أية اعتبارات شخصية أو خواطر قديمة . ولم يكتف بتشميع المحل بالشمع الأحمر بل قام رجال الأمن بتنفيذ أمره وألقوا القبض علىّ .. ثم قذفوا بى إلى داخل عربة البوليس وكأننى مجرم عتيد يهدد الأمن القومى بالانهيار !

صمت سعد ليلتقط أنفاسه المبهورة فطفحت السعادة على نبرات صوته لاستمالته أخيرا إلى وجهة نظره :

— كان أداء الواجب هو الشعار الذى يغطى به أحقاده علينا ! نسى أننا نحن الذين جعلنا منه ما هو عليه الآن .. لحم كتفيه من خير أسرتك ! ومستقبله كله نتيجة لتخرجه فى كلية الشرطة التى ألحقه بها أبى ! وكان جزاؤنا القبض عليك ثم علىّ واعتقالنا هنا فى هذه الزنزانة التى كدنا نتقاتل فيها حتى الموت ! لو تعرف مدى المهانة التى لقيتها على يديه عندما ألقى بى من الطائرة وقبضه علىّ .. فسوف تدرك أن قصتك قد كررها معى بحذافيرها تقريبـا !! لو عرفت أنه هو الذى أشعل نار حقدى عليك منذ أيام الدراسة لالتمست لى العذر! كان فى إمكانه أن يفض الشجار الذى نشأ بينى وبينك فى فناء المدرسة لكنه ذاب كفص ملح حتى تتفاقم الأمور .. ويستمتع بمتابعة أحدنا وهو يقضى على الآخر .. لعله ينفرد بالمنتصر فى النهاية ويقضى عليه كما فعل معى ! كان كلانا ضحيتين غبيتين ساذجتين له .. فى حين كنا نتصور أننا بطلان فى حلبة صراع تاريخى !

— ماذا قال لك عنى ؟!

أشعل مجدى سيجارة جديدة أطلق نفسها مع كلماته :

— لا أستطيع أن أتذكر كل ما قاله على مدى سنوات طويلة .. لكن ما أتذكره الآن أنه كان دائم القول بأنك تمن عليه لأنه كان يرتدى ملابسك وأحذيتك المستعملة .. ووالدتك تطعمه من طعامكم .. وأنه تخلى عنك بمجرد أن أدار لكم الزمن ظهره .. وأصبح خادم السادة الجدد .. ونسى كل فضل وخير لكم عليه !

بدا سعد وكأنه تذكر شيئا مطمورا بين طيات الماضى :

— لكنه كان يحاول فى المدرسة دائما إصلاح العلاقات بيننا .. لكن عندما كان يفشل كان يضطر إلى الانحياز إلى صفى !

لم يشأ مجدى أن يترك ثغرات لينفذ منها سعد :

— هذا عندما كنت ابن ولى نعمته .. أما عندما أصبحت أنا ابن ولى نعمته فكان من الطبيعى أن ينحاز إلى صفى .. فأمثال هؤلاء مثل الكلاب يلهثون وراء العظمة حيثما كانت .. بصرف النظر عن السيد الذى يمسك بها !! وكان كل منا يفرح بتبعيته لنا .. فى حين أننا فى الواقع كنا تابعين له !! فقد استخدمنا بدهاء وخبث فى تحقيق ما بلغه الآن !!

— وكيف تفسر قدرته على الاستمرار والترقى برغم أنه لا يملك ظهرا يستند إليه ؟!

— أعتقد أن السر فى قدرته هذه يرجع إلى أنه لا يملك هذا الظهر ! فهو يعتمد على نفسه .. ونفسه لا يمكن أن تتخلى عنه .. أما نحن فسقطنا عندما انهار الظهر الذى كنا نستند إليه !

— فعلا .. كان كل اعتماده على عقله وذكائه وتفوقه العلمى! يكفى أنه كان أول دفعته فى كلية الشرطة !

— وكنت أنا آخر الناجحين فى دفعتى بكلية الحقوق .. ومع ذلك كنت أول من عين فى وزارة الخارجية ! فانحزت إلى جناح المشير الذى كان أبى ينتمى إليه وهو الجناح الذى كان له الفضل فى تعيينى .. وعندما سقط الجناح مكسورا كان لا بد

أن أسقط معه !! أما صلاح خلف فكان حبيب الكل وصديقهم المفضل بحركاته الناعمة وكلماته المعسولة .. سواء مع رجال الرئيس أو رجال المشير أو رجال أى مركز قوى آخر !! كان لديه البديل دائما ! وهذه ميزة من مميزات من ولدوا بلا ملعقة ذهبية فى أفواههم !

ضحك سعد ضحكة مبتورة أعقبها بكلمات تمزج المرارة بالسخرية :

ـــ أما أنت يا مجدى .. فقد نجحت فى سلب الملعقة الذهبية من فمى منذ الصبا .. وأعتقد أننى مدين لك بهذا !! إذ أننى خضت السوق واكتسبت خبرات تجارية واقتصادية لا تتأتى لحاصل على الدكتوراه فى هذا الميدان.. ولو قدر لى الإفراج والرجوع إلى تجارتى لأصبحت السوق كلها فى أصبعى مثل الخاتم !!

أشاح مجدى بوجهه تجاه النافذة المفتوحة على الخلاء الأصفر الذى لا تقطعه سوى أسوار الأسلاك الشائكة المكهربة:

ـــ لم يعد أحد قادرا على تبين الخير من الشر !! على كل حال رب ضارة نافعة ! كنت أجرى جرى الوحوش .. وها هى نتيجة الجرى !!

كان سعد على وشك أن يقول له :

ـــ لكن إيذاء البشر شر بكل المعايير مهما جاءت النتائج على غير المتوقع!

لكن الميكروفون أعلن فى الطرقات والممرات :

ـــ الكل يتواجدون بعد ساعة فى القاعة الكبرى للقاء سيادة المأمور الجديد !

أنصتا إلى الأمر ثم قفز مجدى من فراشه وهو يتحسس ذقنه النابتة فى ضراوة :

ـــ سأحلق .. نسينا أنفسنا وجرفنا الحديث .. وكاد الإفطار يفوتنا !

نهض سعد بدوره قائلا :

ـــ سأرتدى ملابسى فى دقائق !

وفى دقائق خرجا من الحجرة سويا لأول مرة وسارا وسط دهشة العيون وتعجبها حتى قاعة الطعام ليتناولا الإفطار على مائدة واحدة وهما يتجاذبان أطراف الحديث التى لم تلتقطها الموائد المحيطة لكن الجالسين تابعوا المشهد من طرف خفى أحيانا وعلنى أحيانا أخرى كأنه فيلم صامت مثير حتى انتهيا من الإفطار وخرجا

مع الخارجين إلى القاعة الكبرى التي اصطفت فيها المقاعد بنفس النظام الذى اتبع من قبل فى محاضرة مجدى الطوبجى الأخيرة ! تبادل سعد ومجدى النظرات الناضحة بالسخرية المريرة وهما يختاران مقعدين فى منتصف الصف الخامس إذ كانت الصفوف الأمامية قد احتلت عن آخرها .

سرت همهمات بين الجالسين تتساءل عن شخصية المأمور الجديد ، فلم تتلق ردا شافيا سوى أن أحد النزلاء شاهد الطائرة الهيلوكوبتر وهى تهبط على الأرض التى مهدت حديثا كمطار صغير لها ، ومنها هبط شاب أسمر الوجه وغليظ الشارب ، سار بخطوة مشدودة فى حلته العسكرية حتى بوابة المبنى الرئيسى حيث كان القائد فى انتظاره ليصطحبه إلى مكتبه .

تبادل مجدى وسعد النظرات لكن مجدى لم يملك سوى أن يبوح بمخاوفه الطارئة :

ـــ أصبحت أعانى من عقدة الوجة الأسمر والشارب الغليظ والشعر الأكرت !

ضحك سعد ضحكة عابرة مبتورة :

ـــ لم يذكر أحد الشعر الأكرث !!

ـــ من يخف العفريت .. يطلع له !!

ـــ هناك ملايين المصريين من ذوى الشعر الأكرت !

ـــ ربنا يستر !

ـــ تفكيرك ذهب بعيدا جدا !

ـــ بعد ما جرى لى أصبح كل شىء جائزا !!

ابتسم سعد فى مرارة :

ـــ بعد كل هذا الصراع .. آن لأفكارنا وآرائنا أن تتطابق !!

فجأة وقف ثلاثة من أفراد الأمن بمدافعهم الرشاشة عند مدخل القاعة يسارا فشدت العيون إليها بخيوط غير مرئية ، وإذ بالقائد يدخل ويده فى يد صلاح خلف . صدرت شهقة مكتومة من مجدى فى حين جحظت عينا سعد وهو يستدير هامسا لمجدى فى تساؤل ذاهل :

ـ هل ترى ما أرى ؟! لا أصدق عينى !!

أجابه مجدى وهو يتابع صلاح خلف بعينين زائغتين وشفتين منفرجتين :

ـ ألم أقل لك ؟! كل شيء أصبح جائزا !!

جلس صلاح خلف فى نفس المقعد الذى جلس فيه مجدى من قبل إلى جوار القائد الذى افترشت وجهه ابتسامة عريضة ، والذى قيل إنه انتقل إلى القاهرة ليتولى منصبا خطيرا فى المخابرات أو المباحث وربما كان منصب المدير . قال القائد :

ـ يشرفنى ويسعدنى أن أقدم إليكم قائدكم الجديد المقدم صلاح خلف .. فقد آن الأوان لنفسح المجال للقيادات الشابة كى تنهض بمهامها القومية .. إذ أن من أسباب النكسة أن الثورة لم تجدد دماءها بعناصر فتية تملك فى يدها عنصر المبادرة .. ومن هنا كان إعصار يونيو الذى كان يمكن رده على أعقابه ومطاردته حتى عقر داره لو أتيحت الفرصة للدماء الجديدة بدلا من تلك التى جفت فى العروق اليابسة !

صمت القائد للحظات لمح فيها وميض التراشق بالنظرات بين صلاح من جهة وبين كل من مجدى وسعد من جهة أخرى ، ثم استأنف حديثه :

ـ لكن صمود الشعب وإصراره على بقاء القائد على قمة المسئولية .. أكد للعدو أن ما حدث كان استثناء للقاعدة التى لا بد أن تعود لتسود مرة أخرى .. فنحن خسرنا معركة لكننا لم نخسر الحرب !! وبقاء القائد فى موقعه أكبر دليل على ذلك حتى يستأنف مسيرة التحرير وإزالة آثار العدوان ! ونحن كلنا معه وحوله قلبا وقالبا !

مد القائد يده إلى كوب ماء أمامه ليرشف منه قطرات ثم قال :

ـ ولا بد أن تعرفوا أن وجودكم هنا هو مجرد مرحلة طارئة عابرة يحتاج فيها الوطن إلى وحدة الصف ووحدة الهدف فى آن واحد ! فالوطن فى أشد الحاجة إلى سواعد وعقول كل أبنائه .. والثورة لا تنظر إليكم من منطلق الخصومة والعداء إذا خلصت النيات .. فقد أصبحت السفسطة العقائدية والجدل الفكرى العقيم من معوقات الهدف الذى يجب أن نتحرك إليه صفا واحدا حتى نحققه فى أقرب وقت

ممكن .. فلا صوت يعلو على صوت المعركة كما قال زعيمنا وقائدنا .. وأى جهد أو تحرك لا يسعى إلى إزالة آثار العدوان هو خطوة لصالح العدو الرابض على الضفة الغربية لقناة السويس .. والذى أكد بعد معركة رأس العش أن ما حدث فى الخامس من يونيو كان استثناء من كل قوانين الكون ولن يتكرر أبدًا ! ولذلك فإن قضايا ما يسمى باليمين وما يسمى باليسار لا يمكن أن تجعلنا نختلف حول هدف إزالة آثار العدوان .. فهذه كلها رفاهية فكرية لا نقدر عليها الآن !!

أشعل القائد سيجارة فإذ بمجدى يشعل أخرى دون تفكير وقد تعلقت عيناه بصلاح فى حيرة متحجرة تنطق بكل شىء وبلا شىء فى الوقت نفسه . استأنف القائد حديثه :

— إن الوطن يفتح أحضانه لكل من يراجع أفكاره وينضم إلى الصف الواحد من أجل الهدف الواحد .. وعفا الله عما سلف كما قال زعيمنا وقائدنا الذى أكد أن الحرية كل الحرية لأبناء الشعب ولا حرية لأعداء الشعب ..

تتابعت كلمات القائد ومعها خواطر سعد الشاردة التى ذكرته بأنه حفظ الميثاق عن ظهر قلب وأصبح واحدا من شراحه ، وعمل عميلا لجناح عبد الناصر حتى اعتقد أنه أصبح عضوا فى التنظيم الطليعى وعلى وشك الإفراج عنه بين لحظة وأخرى . ومع انهيار دولة المشير وعودة عبد الناصر للإمساك بزمام الأمور فى البلد ، ظن أنه سيعود إلى القاهرة لتولى منصبا مرموقا فى الاتحاد الاشتراكى ! ومع فجر كل صباح كان يرهف السمع لوقع أية أقدام لعلها بشير الإفراج والحرية ! لكن شيئا من هذا لم يقع ، بل وزاد الطين بلة أن زيارات زوجته وأبيه منعت تماما ، وانقطعت عنه أخبار الأسرة كلها بحجة الاحتياطات الجديدة فى أعقاب النكسة ! وكانت مكافأته أنه استيقظ ذات ليلة ليجد مجدى الطوبجى رفيقه فى حجرته وكان أولى بهم الإفراج عنه طالما أن الذى خطط للإلقاء به فى المعتقل قد ألقى به هو الآخر فيه ! كان المفروض أن يحل محله . لكن مجىء صلاح خلف اليوم ليدير المعتقل وكأنه لا يوجد فى الكون ضابط غيره ليقوم بهذه المهمة دلالة واضحة على أن هذه الثورة لم ولن تهادنه فى يوم من الأيام ، وأن المأساة لم تكن متمثلة فى مجدى الطوبجى أو فى

صلاح خلف بقدر ما تمثلت فى الثورة . فكل هؤلاء مجرد أدوات فى يدهـا تستخدمهم أو تلقى بهم وقتما تشاء .. لكن حتى هذا الشرف لم يستطع أن يناله ، إذ أن الأدوات ممكن أن تحقق مكاسب شخصية ولو بسيطة فى فترة الرضا عنها .. أما هو فقد خدم وأضاء أصابعه العشرة شموعا للجناح المنتصر وها هى النتيجة !! ومجىء صلاح خلف لا يبشر بأى خير ، فهو لن يعاملهم معاملة أكرم من تلك التى تلقوها على يدى هذا القائد المحنك الحكيم الذى كان بمثابة الأب لمعظمهم فى أحيان كثيرة !!

أفاق سعد من طوفان خواطره الشاردة على صوت القائد وهو يقدم صلاح خلف الذى بدا عليه بعض الارتباك عندما ساد الصمت فى انتظار كلماته التى خرجت مترددة بعض الشيء لكنها تدفقت:

ـــ فى الواقع ليس هناك ما يمكن أن يقال بعد ما قاله سيادة القائد ..

ثم ابتسم وهو ينظر إليه فى دعابة :

ـــ وأنا إذا كان اسمى صلاح خلف فإننى أرجو وأتمنى أن أكون خير خلف لخير سلف !!

ابتسم القائد بدوره وهو يشعل سيجارة جديدة فتذكر مجدى الطوبجى أن عقب السيجارة على وشك أن يحرق أصابعه فألقى به تحت نعل حذائه ليطحنه بعصبية زائدة سرت فى ساقه المتصلبة. أردف صلاح قائلا :

ـــ لكننى لا أطمع فى لقب القائد .. فهذا شرف لا أدعيه !! ورحم الله امرءًا عرف قدر نفسه .. ولذلك فأنا مجرد مأمور لهذا المعتقل .. أقوم بواجبى الذى أتمنى أن يكون على خير وجه .. لا أحيد عن اللوائح والقوانين والأوامر والتعليمات التى تحكمنا جميعا والتى تجنبنا أية متاعب محتملة !

ثم نظر إلى سعد ومجدى على وجه التحديد :

ـــ كلكم عندى إخوة .. وما دام الجميع يتساوون فى الأخوة فهم بالتالى يتساوون فى الحقوق والواجبات .. وهذا هو الدرس القيم الذى تعلمته من أستاذى الذى يشرفنى أن أخلفه .. تعلمت منه أن الجميع سواسية كأسنان المشط .. وأن

الخواطر الشخصية إذا تسربت إلى أساليب التعامل .. ضاعت كل المعايير الموضوعية !

تبادل سعد ومجدى نظرات جانبية كوميض البرق ، وهواجس قلبيهما تنذر بأوخم العواقب مع كلمات صلاح التى سبحت وسط سحابات متكاثفة من الكآبة الرمادية فى فضاء القاعة الموحشة :

ـــ إننى لست سجانا .. ولا أحب أن أقوم بدور السجان .. ولا أحب أحدكم أن يجبرنى على القيام به .. فأنا عاشق للحرية .. الحرية التى من حق كل أبناء الشعب .. ولن تكون من نصيب أعداء الشعب كما قال قائدنا وزعيمنا !

فارت ينابيع المرارة فى عروق سعد وهو يستمع إلى لسان حاله :

ـــ عشت إلى اليوم الذى أراك فيه يا صلاح يا بن عم خلف تشرفنا بأننا فى منزلة الإخوة عندك .. وبأنك عاشق للحرية التى ستمنحها لمن تشاء وتمنعها عمن تشاء !! ألم يحن لهذا الزمن الأغبر أن ينقشع ؟!

استطرد صلاح منهيا حديثه :

ـــ أعتقد وأرجو أن أكون قد أوضحت نفسى .. لن أطيل عليكم أكثر من هذا .. فالطائرة فى انتظار سيادة القائد لتنقله إلى منصبه الجديد الذى نرجو له فيه كل التوفيق والنجاح !

نهض القائد ليشد بحرارة على يد صلاح الذى عانقه ، فنهض الجميع بدورهم ليسيروا خلفهما حتى بوابة المبنى الكبير التى توقفوا عندها ليستأنف القائد تحية الوداع لصلاح ثم يسير بمفرده إلى الطائرة الرابضة على الدائرة الأسفلتية الناعمة ليصعد على السلم الصغير الذى ارتفع بدوره مع الباب الذى أغلق . دار المحرك الكبير ليصنع دوامة ذات قطر واسع من الرمال الناعمة التى هاجت لتلطم العيون الشاخصة فى إحباط تصاعدت أمواجه العاتية حتى بلغت قممها الفائرة أنفى سعد ومجدى مع صعود الطائرة التى دوى محركها بصوت كالرعد المنتظم الذى لا تبدو له نهاية وشيكة داخل القلوب الواجفة والرءوس المتراصة !

١٢

مرت الأيام كأقدام من رصاص تخطو فى رمال ناعمة متحركة . أغلق المأمور مكتبه و لم يعد يتعامل مع المعتقلين إلا من خلال رجاله المدججين بالمدافع الرشاشة كأنهم على أهبة الاستعداد لهجوم عاصف كاسح . حاول سعد العنترى مقابلته لكن الحارسين أمراه بتقديم شكواه إلى السكرتير للبت فيها عندما يحين دورها . طاش صواب سعد و لم يعد يدرى ماذا يفعل ؟! أصبح استمرار الحال من المحال ! القلق يقتله ليل نهار على زوجته وأبيه وأسرته بعد أن انقطعت الأخبار عنه تماما . حتى الصحف والمجلات التى كان يسمح بها من حين لآخر انقطعت تماما هى الأخرى بعد أن كانت صفحات الوفيات هى مصدر الاطمئنان الوحيد طالما أنها خالية من أسماء الأقارب ! وأصبحت الصلة الوحيدة بينهم وبين العالم الخارجى أو عالم الأحياء ذلك الميكروفون الكئيب الذى لا يذيع الآن سوى التعليمـات والتحذيرات والإنذارات ، والعقوبات التى تقع على المخالفين ، والأخبار التى تؤكد أن النظام قد استعاد زمام المبادرة ، وأن العدو الإسرائيلى يعانى الأمرين من حرب الاستنزاف التى تشنها عليه قواتنا المسلحة الباسلة وفى طليعتها منظمة سيناء .

لم يكن سعد العنترى يتصور فى يوم من الأيام أن يصبح مجدى الطوبجى متنفسه الوحيد عندما يتبادلان كلمات التعزية والمواساة والصبر على المحنة التى لا يبدو لها انفراج ! صحيح أنه لم ينس ما فعله فيه مجدى الطوبجى ، فقد حُفر فى عقله وقلبه بحروف من حديد منصهر، لكن الضرورة تفرض أحكامها ، والمرونة تقتضى أن تحب ما بين يديك طالما أنك عاجز عن الحصول على ما تحب . ومع ذلك كان لسان حاله يلعن الزمن والحظ والثورة ومجدى الطوبجى وصلاح خلف حتى أوشك أن ينفجر وجدانه باللعنات .

تفاعلت شحنات اليأس والاكتئاب والإحباط والضياع فبدأت بـعض

المشاحنات من حوارات عادية أعقبها إنذار تكررت إذاعته فى الميكروفون ، وكان ينتهى دائما بجملة : لقد أعذر من أنذر ! وظن صلاح خلف أنه حسم الموقف بمنتهى البساطة وهو فى برجه العاجى الذى لا يطل منه على عباد الله الذين يرجون رحمته ! لكن المشاحنات تحولت إلى انفجارات بلغت قمتها بين معتقل شيوعى وآخر إخوانى تبادلا الكلمات والضربات والركلات والإصابات فى العين والأنـف والشفاه التى تورمت وسالت من كدماتها بعض الدماء ! و لم يكن الجدل بينهما السبب الحقيقى وراء هذا الشجار الدامى بقدر ما كانت تفاعلات اليـأس والاكتئاب والإحباط والضياع التى تزامنت مع قدوم المأمور الجديد الذى تجسد فى وجوه الخفى فى مكتبه ، كل ما هو كريه ومقيت خاصة فى نظر سعد العنترى الذى لم ينس أبدًا أنه ابن السائق الخاص لأبيه الذى كان يحن عليه بفضلاته من الملابس والأطعمة ، بل و لم يستطع سعد أن يخفى هذه الحقيقة عن باقى النزلاء بعد أن كان مجاهد عطيه ثم مجدى الطوبجى الوحيدين اللذين يعرفانها . فقد أراد سعد أن يحتك بصلاح بأية طريقة لعله يحرك الموقف الذى يصر صلاح على تجميده وتمييعه ! لكن صلاح خلف أصر على اختفائه فى البرج العاجى حتى وقع الشجار الدامى أو الاختبار الحقيقى لهيبته وقدرته على إدارة الموقع الشائك المتفجر ، فاضطر إلى الهبوط وحضور تنفيذ عقوبة الجلد التى حكم بها على المذنبين ، خمس عشرة جلدة ، لكل منهما، بعدد سنوات الثورة . واختار عشرين نزيلا يمثلـون كل التيارات السياسية والطبقات الاجتماعية حتى يكونوا شهودا للدرس العملى لكل من تسول له نفسه أن يثير الشغب أو يهدد أمن الموقع ، فلا صوت يعلو صوت المعركة ، ولارحمة لمن يحاول إعاقة إزالة آثار العدوان !!

وكان سعد العنترى ومجدى الطوبجى ضمن الممثلين لهذه التيارات والطبقات ، لكن سعدًا أذهل مجدى عندما صارحه بأنه سيتحدى الأمر برفض حضور تنفيذ الحكم حتى لا يمنح صلاح خلف متعة مشاهدة الرعب والإذلال فى عينيه . حاول مجدى أن يثنيه عن عزمه فألح عليه :

ـــ ستكون فرصة لتقابله وتخبره بمطالبك الملحة !

— لا فائدة !! أمثال صلاح خلف آلهة لمن هم تحت رحمتهم وعبيد لرؤسائهم !! لن يفعل صلاح خلف شيئا يشغل به بال سادته فى القاهرة!! سيثبت لهم دائما أننا كم مهل لا خوف منه على الإطلاق .. وأننا بين أصابعه كالخاتم حتى ينال ترقية جديدة !!

— ألا تخاف من عقابه ؟! إنك بهذا تتحداه أمام الجميع !!

— لا مفر !! فقد منحنى سلاح اليأس البتار .. سأستخدمه مهما كانت العواقب ! لم يعد هناك ما أخاف عليه !! نحن نعيش فى منطقة محايدة بين الحياة والموت .. حتى راحة الأموات رفاهية لا نقدر عليها !!

— هنيئا لشويكار بحبك لها! كل جنونك هذا بسبب انقطاعك عنها! أما أنا فليس لى من أذهب إليه بعد أن قضت حماقتى على كل الصلات !

تضايق سعد لذكر مجدى لشويكار بهذه البساطة ومع ذلك قال :

— لن أتراجع عن قرارى ! ولن أسمح له بإذلالى أكثر من هذا !! فكل شىء له حدود ! ظللت طوال عمرى أنتظر المبادرة من الآخرين .. فلم أتلق منهم سوى الضربات المتتابعة التى كان علىّ أن أتحملها دون ذنب جنيته !!

أشاح مجدى بوجهه بعيدا .فلاشك أنه كان فى طليعة من وجهوا أقسى الضربات إلى سعد منذ شجار المدرسة الدامى . لاحظ سعد أن رسالته بلغت مجدى فأردف قائلا :

— والآن آن الأوان أن أمسك بزمام المبادرة بيدى مهما كانت النتائج !

— وما السلاح الذى ستستخدمه ؟! إنك لا تملك أى سلاح بالمرة فى حين أنه يملك كل الأسلحة المشروعة وغير المشروعة !!

عاد سعد إلى شكوكه فى نوايا مجدى الذى ربما أراد بمثل هذه الأسئلة معرفة نواياه كى يجد ما يمكن أن يبيعه لصلاح ! وهذا ليس بالشىء الجديد عليه ! فقد سبق له أن باع زوجته وأسرته ، فما أسهل عليه أن يبيع غريم عمره لعل الصفقة تعود عليه بامتيازات قد يكون الإفراج من بينها !! لكن سعدًا لم يكن لديه ما يخفيه فعلا ،إذ أنه لم يكن يعرف على وجه التحديد ما الذى يمكن أن يواجه به صلاح

خلف ، فقال فى سلاسة تلقائية :

— طالما أن الإنسان حى فلن يعدم السلاح الذى يمكن أن يستخدمه !

— تتكلم بدافع من يأسك ومحنتك !! أى سلاح تتكلم عنه ؟!

— مجرد أننى موجود .. سلاح فى حد ذاته !

لم يفهم مجدى كلمات سعد فرثى لحاله، لكنه خشى من أن يكون سعد جادا فيما يقوله فيجلب المتاعب على نفسه وعليه أيضا بحكم الحجرة المشتركة ، والزمالة التى شهدها الجميع فى الفترة الأخيرة من خلال التواجد المشترك فى كل مكان ! على الأقل فإن مجدى سوف يتهم بالتواطؤ معه أو التستر عليه إذا وقع منه ما لم يستطع الإبلاغ عنه مسبقا ! خاصة وأنه قدم طلبا إلى سكرتير صلاح خلف بنقله من حجرة سعد الذى ظهرت عليه أعراض البحث عن المتاعب ! قدم مجدى الطلب فى تكتم شديد حتى يؤكد لصلاح أنه ليس مع سعد فى سلة واحدة ، وحتى إذا لم ينفذ طلب النقل وهو ما وقع حتى الآن ، فإنه به ينبهه ألا يأخذه بجريرته إذا وقع منه ما يؤدى إلى الاحتكاك العلنى !

قطع الميكروفون السكون المشحون بين سعد ومجدى بآخر الأوامر :

— على النزلاء الذين تم اختيارهم لمشاهدة تنفيذ عقوبة الجلد أن يتوجهوا الآن إلى قاعة التنفيذ !

ثم كرر الميكروفون النداء ثلاث مرات كعادته . قال مجدى لسعد فى استسلام خانع :

— أما أنا فسأذهب !! كل الأمور أصبحت تستوى الآن !!

خرج مطاطئ الرأس ، مشتت النفس وسط تساؤلات حادة كالأسلاك الكهربية التى تحيط بالمكان :

— هل يجرؤ صلاح خلف على جلد ابن ولى نعمته ؟! هل يمكن أن يتراجع سعد فى اللحظة الأخيرة ويرضخ للأمر بالحضور ؟! لماذا تصر الأقدار على الجمع بين ثلاثتهم ؟! هل سيأتى يوم يسقط فيه صلاح بدوره كما سقط هو وكما سقط سعد من قبل فى هاوية لا قرار لها ؟! هل هناك خطة جهنمية خفية رسمت لصهرهم فى بوتقة

واحدة ؟! كانت المحطة الأخيرة لقطار الثورة فى الخامس من يونيو حين وحيث توقف تماما .. فما معنى الذى يجرى الآن ؟! هل الثورة نار إذا لم تجد ما تلتهمه فإنها تلتهم نفسها فى النهاية ؟! عجيب أمر هذه الثورة ! كان من المفروض أن تصبح رمادا بعد سقوطها العظيم ليس أمام جحافل النازى أو جيوش الحلفاء وإنما عند أقدام عصابات صهيونية من شذاذ الآفاق !! ومع ذلك تصر على التهام كل من يسقط فى طريقها من أبنائها ! وأولهم هو وأبوه الذى لا يعرف حتى الآن ماذا جرى له فى المحاكمة ؟! وأى حكم صدر عليه ؟! وهل يقوم الآن بتقطيع الأحجار فى أبى زعبل تحت سياط الشمس والحراس وهو الذى حمل رأسه على كفه ليلة الثانى والعشرين من يوليو ؟! هل هذه هى مكافأته ؟! فى حين يكافأ ابن السائق الخامل ، الخانع ، الذليل ، شبه الأمى بأن يصبح مأمورا لمعتقل هم سجناؤه ؟! أى منطق ؟! وأية عدالة ؟! وأى معنى إذا كان هناك لأى شيء أى معنى ؟!

أفاق مجدى من تساؤلاته الحادة الشاردة على وقع أقدام الزملاء على الممر الحجرى المؤدى إلى باب حجرة التنفيذ التى بدت شبه معتمة من الداخل ، مع روائح أتربة أو رمال عفنة ، وشبكات عنكبوت نسجت فى الأركان والزوايا ، وحول العروسة الخشبية التى بدت كتمثال خشبى لامرأة بدينة فى صدرها فتحة تتسع لرأس المحكوم عليه بالجلد!

اصطفت المقاعد أمام العروسة فى حين وضعت بعض المقاعد الوثيرة على يمينها .

اختار مجدى مقعدا فى آخر صف حتى يتوارى عن نظرات صلاح ، فربما مرت اللحظات دون التدقيق حول من حضر ومن لم يحضر ! ليس خوفا على سعد وإنما خوف على نفسه ! وسرعان ما أتوا بالمحكوم عليهما بين أيدى الحراس الذين ربطوا الأول إلى العروسة التى تدلى من فتحتها رأسه ، وخلعوا قميصه ليصبح ظهره العارى جاهزا لتلقى السياط ، فى حين وقف المحكوم عليه الآخر يتابع المشهد بعينين زائغتين محاولا التماسك حتى لا ينتفض جسده بارتعاشات لا لزوم لها !

دخل صلاح خلف وحوله حاشيته من المساعدين والحراس ليجلس فى صدر المقاعد الوثيرة على يمين العروسة ، فجلس الحاضرون بعد وقوفهم احتراما

للمأمور . وقف ملازم شاب ليقرأ الحكم الذى شرع فى تنفيذه رقيب ضخم الجثة كتمثال قد من نحاس رصاصى . كانت ضربات السوط الجلدى المضفر تهبط على الظهر فتترك خطوطا ومثلثات ومربعات تجمع بين الحمرة الباهتة والقانية ، والمجلود يزوم ويتأوه محاولا التجلد حتى لا يصبح موضع سخرية زملائه بعد أن تتحول المحنة إلى مجرد ذكريات تروى على سبيل الإثارة أو الطرافة ! أما صلاح فقد وضع على وجهه قناع التجهم والكآبة حتى يخفى هو الآخر ما يعتمل داخله من ضيق عظيم وإحباط مرير ! فقد وجد نفسه ، برغم أنفه ، يتورط فى مثل هذا الموقف الذى يتابعه لأول مرة فى حياته !

كانت كل جلدة تلسع الظهر العارى تصرخ فى أسماعه بفشله فيما نجح فيه سلفه الذى كان يملك من الحرية والسلطة والعلاقات الحميمة ما يجعله يتصرف بثقة وعدم خوف من متابعة السلطات ومحاسبتها له ! ومن عدم تطبيق الأوامر واللوائح بحذافيرها ! أما هو فلا يملك سوى هذا التطبيق الحرفى حماية لنفسه ! هل ارتدى حلة أوسع من حجمه بكثير ؟! وإذا كان المكان أكبر وأضخم منه فلماذا اختاروه له هو بالذات ؟! هل هناك خطة جهنمية تحرص على استمرار الصدام بينهم مهما باعدت بينهم ظروف الحياة ؟!

كان فى أول الأمر مستمتعا بإمارته للمعتقل الذى يحتوى كلا من سعد ومجدى على وجه الخصوص ! لكن يبدو أن مجرد وجودهما كان قيدا خفيا على تصرفاته ، ودافعا إلى انعزاله عن النزلاء ، ففقد معهم كل الصلات الإنسانية التى يمكن أن تمتص أية صدمات محتملة !! لكن الأمر لم يكن بالبساطة التى تصورها فى البداية . فها هى الصدمات تتوالى لتتأكد بعينى رأسه من رفض سعد للأمر الصادر إليه بحضور تنفيذ الحكم !

ندم صلاح فى أعماق نفسه على توجيه الدعوة إلى سعد ومجدى اللذين يبدو أنهما يجسدان فى أعماقه تحديا خطيرا أراد أن يواجهه ويحسمه ، لكن الضربة طاشت ودخل منطقة وعرة بإعلان سعد تحديه السافر له ! فما الحل ؟! إن الظاهر يؤكد أنه سجان سعد ومجدى ، فى حين يؤكد الباطن بنفس القوة أنه سجينهما !

ويبدو أنه كتب على ثلاثتهم أن يقوم كل منهم بدور السجان والسجين بتناوب عجيب ، بصرف النظر عن الموقع الفعلى الذى يحتله كل منهم !

أفاق صلاح على صوت الملازم الشاب وهو يعلن الانتهاء من تنفيذ الحكمين ، والحراس يجرون الضحيتين ، ونظرات الحاضرين تتفجر باللعنات ، وتهبط على وجه صلاح بسياط النقمة والغضب التى لا تقل فى بشاعتها عن سياط الجلد على الظهر العارى . أزاح حشرجة فى حنجرته وصاح بصوت حرص على أن يكون متزنا :

ـــ ينقلا إلى العيادة لإجراء العلاج اللازم !!

لكن اللفتة التى ظن أنها إنسانية لم تغير من جهامة العيون وكآبة الوجوه المنتظرة خروجه لتخرج بدورها هربا من وجهه وتحاشيا له فى حين كان يظن أنه هو الذى يتحاشاهم ترفعا وتعاليا ! قرر فى الحال أن يفك الحصار المضروب حوله وأن يحطم جدران السجن التى تكاد تخنقه ، خاصة وأنه يملك الأدوات الممكنة لذلك . أشار لأحد مساعديه وهمس فى أذنه ثم خرج مسرعا فى خطوته العسكرية التى حرص على أن تبدو واثقة فى طريقه إلى مكتبه ، وسرعان ما كان مجدى الطوبجى فى أعقابه فرحا بالاستدعاء الذى لم يتوقعه أبدًا ! دخل المكتب لينحنى ويشد على يده فى حرارة سرت بالارتياح فى عروق صلاح الذى ندم على عزلته وخوفه من ماضيه مع سعد ومجدى ! فها هو الماضى ينقشع كضباب شفاف تحت شمس الواقع المحترقة ، ويسرع مجدى إلى الانحناء ناسيا أنه ابن حسين الطوبجى ولى نعمته الذى ألحقه بكلية الشرطة بصفته ابن سائقه الخاص ! أشار له بالجلوس فجلس أمام مكتبه سعيدا لمجرد السعادة :

ـــ لم ألتق بسيادتك منذ مدة بعيدة !!

استمتع صلاح بلقب السيادة خارجا من بين شفتى مجدى الطوبجى ، ولكن ذكاءه سرعان ما أكد له أن للنفاق أكثر من ألف وجه ، وأنهما لو تبادلا الأدوار لكان لمجدى الطوبجى معه شأن مختلف تماما . قال بلهجة حرص على أن تبدو متحفظة :

— منذ ليلة المطار !

تهدج صوت مجدى ليرتدى ثوب الاعتذار :

— لا تؤاخذنى ! كانت ليلة رهيبة فقدت فيها أعصابى وتفوهت بما لا يليق وظننت أن سيادتك ستنتقم منى هنا .. لكننى أدركت أن العفو من شيم الكرام !

— يبدو أن المعتقل قد نجح فى الربط بينك وبين سعد بأواصر الصداقة التى فشلت أنا فى زرعها بينكما طوال سنوات عديدة ؟!

— ما فى القلب .. فى القلب .. وللضرورة أحكام !

— لماذا لم يحضر سعد تنفيذ الحكم ؟!

أدرك مجدى أن صلاح خلف يحاول أخذه على غرة حتى لا يترك له فرصة التأنى فى ترتيب الأفكار لكنه لا يعلم أن أيام المعتقل جعلته يقلب كل الاحتمالات على كل الوجوه مستعدا لها بكل الإجابات ، وعليه فقط أن يضغط على الزر المناسب داخله لإخراج الإجابة المناسبة :

— حاولت إقناعه بأنها ستكون فرصة لمقابلة سيادتك وتقديم طلباته الملحة .. لكنه أصر على الرفض !!

بدا على مجدى وكأنه يبحث عن علبة سجائره فى جيبه :

— هل تسمح لى بأن أدخن ؟!

قدم صلاح علبة السجائر الكبيرة على مكتبه ، فانتفض مجدى ناهضا ليأخذ سيجارة ويشعلها بيد صلاح التى امتدت بالولاعة ، ولسانه يلهج :

— شكرا .. شكرا !! هذا كرم لا أستحقه !

— وما هى طلباته ؟!

— إنه لا يعرفها على وجه التحديد .. لكنها تتراوح بين الإفراج عنه لاعتقاده أنه اعتقل ظلما .. وبين السماح لأسرته بزيارته والاطمئنان عليها كما كان يحدث فى الماضى !!

— لو كانت الأوامر والتعليمات تسمح بذلك لما تأخرت لحظة واحدة ! لكن ما رأيه فى أسلوب إدارتى !! لابد أنه يلعن فى السر .. وفى كل لحظة .. اليوم الذى

أتيت فيه إلى المعتقل !!

أطلق مجدى نفسا قصيرا فى حرج :

ــ وفى العلن أيضا . يقول إن أمثالك آلهة لمن هم تحت رحمتهم وعبيد لرؤسائهم ! فسيادتك لن تفعل شيئا تشغل به بال سادتك فى القاهرة لتثبت لهم دائما أننا كم مهمل لا خوف منه على الإطلاق .. وأننا بين أصابعك كالخاتم حتى تنال ترقية جديدة !!

ــ وهل قال هذا الكلام أمامك فقط .. أم فى حضور نزلاء آخرين ؟

ــ لا أستطيع أن أجزم .. لكننى سمعته منه بحكم اشتراكنا فى نفس الحجرة !

ــ ولماذا لم تخبرنى به على الفور ؟!

ــ لأننى سمعته منه قبل ذهابى لحضور تنفيذ الحكم مباشرة .. كذلك فإنه ليس من السهل لقاء سيادتك .. فقد قدمت طلبا لمكتب سيادتكم منذ أسبوع لنقلى بعيدا عنه فى حجرة أخرى .. ولا أعرف مصير طلبى حتى الآن !!

ــ من الآن فصاعدا .. مكتبى مفتوح لكم على مصراعيه فى أى وقت تشاء .. سواء بالنسبة لسعد أو النزلاء الآخرين !!

أحنى مجدى رأسه فى خشوع :

ــ كنت دائما فى خدمة النظام وسأظل !!

ــ ما مدى علاقة سعد بباقى النزلاء ؟!

ــ الشيوعيون لا يحبونه بل ويقاطعونه .. أما الإخوان فلا يميلون إليه بعد أن حاولوا استمالته إليهم .. لكن إهماله للصلاة والصوم جعلهم ينفضون عنه .. أما الباقون فكانوا يتحاشونه لاعتقادهم أنه جاسوس القائد السابق عليهم !

ــ وماذا قال سعد أيضا ؟! ألا يخاف من العقاب ؟!

تخلص مجدى من كل محاذير الحساسية والحرج ، فأطلق نفسا طويلا واسترخى بعض الشىء فى مقعده :

ــ حذرته بالفعل لكنه قال إنك منحته سلاح اليأس البتار .. فحتى راحة الأموات رفاهية لا نقدر عليها !!

— وماذا ينوى أن يفعل بالضبط ؟!

— قال إنه لن يسمح لك بإذلاله أكثر من هذا !! فكل شيء له حدود !! فقد ظل طوال عمره ينتظر المبادرة من الآخرين .. فلم يتلق منهم سوى الضربات المتتابعة !! وبالطبع كان يقصدنى أنا على وجه التحديد !!

تضايق صلاح لاختفاء ألقاب السيادة من حديث مجدى ، لكنه تجاوزها إلى سؤاله :

— ألم تقنعه بأنه يأخذ الأمور بصفة شخصية أكثر من اللازم ؟!

— كان مصرا على أنه آن الأوان أن يمسك بزمام المبادرة بيده مهما كانت النتائج برغم أننى حاولت إقناعه بأنه لا يملك أى سلاح لمثل هذه المبادرة !!

— هل تعتقد أنه يرمى لخطة معينة رسمها و لم يتبق سوى تنفيذها ؟!

— لا أعرف .. فقد قال لى كلاما غريبا !!

— ماذا قال على وجه التحديد ؟!

— قال : طالما أن الإنسان حى فلن يعدم السلاح الذى يمكن أن يستخدمه .. أى أن مجرد وجوده .. سلاح فى حد ذاته !!

— كيف ؟!

— هذا هو كل ما قاله ! بعد ذلك صدرت الأوامر فى الميكروفون بالتوجه إلى حجرة تنفيذ الأحكام !!

ومض البريق الأسود فى عينى صلاح ، وحك شاربه الغليظ بأصابعه ثم وقف منهيا اللقاء :

— ما جرى بيننا من حديث .. سر من أسرار الدولة .. أما عن نقلك من حجرة سعد .. فلا تهتم .. سأنقله هو بعيدا عنك .. فمن يضطرنى إلى اتخاذ إجراءات لا أحبها فلا يلوم إلا نفسه !! لن أتراجع لحظة فى تطبيق القانون حتى لو كان على

عنق أخى !!

انحنى مجدى وهو يشد على يد صلاح ثم تراجع إلى الخلف وفتح الباب ليخرج منه ويغلقه . جلس صلاح على مقعده الجلدى الحلزونى ولسان حاله يقول فى سخرية مريرة ارتسمت على عينيه وشفتيه :

— لا يزال سعد العنترى يظن أنه ابن العنترى بك الذى لا يتراجع فى أى قرار يتخذه !! ولا يزال يملك القدرة على السماح أو المنع !!

كان حديث النزلاء دائرا حول جرأة سعد العنترى التى أدت به إلى تحدى أمر المأمور بحضور عملية الجلد ، وإن كان رأى مجاهد عطية أنها الجرأة الناتجة عن اليأس وليست المتولدة عن الشجاعة . وضرب الجميع أخماسهم فى أسداسهم فى محاولات ملحة للتكهن بالخطوة التالية التى سيتخذها المأمور لمواجهة هذا التحدى الذى يمكن أن يمهد لعصيان قد يفجر المعتقل كله . لكن كل التكهنات لم تكن مقنعة تماما نظرا لمعرفة الجميع بعلاقة العمر القديمة بين سعد وصلاح . فالجلد يكاد يكون مستحيلا وكذلك أنواع التعذيب الأخرى مثل خلع الأظافر وكى الجلد والوقوف على أطراف أصابع القدمين فى خزان الماء حتى لا يموت المعذب غرقا إذا وقف على قدميه كباقى البشر !

أما مجدى الطوبجى فلم يستطع أن يواجه نظرات سعد الذى يبدو أنه خمن ما فعله مجدى مع صلاح ، فقد كان كالمريب يكاد يقول خذونى ! وفر عليه سعد مشقة المواجهة فتجنبه بدوره وأصبح الحديث قاصرا على تحية الصباح ، خاصة وأن سعداً كان مشغولاً بما يدور داخله من أفكار متصارعة حول الاحتمالات القادمة ، وبعد أن أصبح حديث المعتقل كله . لم ينكر بينه وبين نفسه بشائر الزعامة التى لم يستشعرها منذ تحديه لمجدى الطوبجى يوم المحاضرة التى جاء ليلقيها عليهم ، وهى المشاعر التى خففت من مخاوفه الغامضة من السكون السائد الآن والذى لا بد أن يسبق العاصفة !

وسرعان ما هبت العاصفة ! أعلن الميكروفون صدور الحكم على المدعو سعد العنترى بالحبس الانفرادى لمدة أسبوع عقابا له على إهماله حضور عملية الجلد طبقا للأمر الصادر إليه . اهتز سعد للنبأ ليس خوفا من الحكم وإنما لعجز تفكيره عن بلوغ الخطوة التالية التى يمكن أن يرد بها على صلاح خلف ، وهو الذى أكد لمجدى

أنه آن الأوان ليمسك بزمام المبادرة بيده مهما كانت النتائج !

أبدى مجدى أسفه لصدور الحكم ولام سعداً لأنه لم يرضخ لنصيحته الأخوية حتى يتجنب كل هذه المتاعب . ولم يهتم سعد بالرد عليه وهو يستسلم تماما للحارسين المدججين بالمدافع الرشاشة اللذين قاداه إلى غرفة نائية متاخمة لقاعة التعذيب ، وهناك ألقيا به على حصيرة مهترئة لا تكاد تغطى الأرض الحجرية المتربة الناضحة برائحة العفن . ولم يكن هناك مصدر للإضاءة سوى كوة أعلى الجدار ، تغطى دائرتها الضيقة شبكة من القضبان الحديدية الصدئة عرضا وطولا . أما السكون المطبق داخل الحجرة فقد جعل سعداً يستمع إلى دقات قلبه وسط شهيقه وزفيره وهو يتأمل الدلو شبه المحطم والذى لا بد أن يستخدمه كمرحاض وسط طوابير النمل التى سارت فى نظام عسكرى صارم من وإلى الشقوق والفتحات المتوغلة بين المربعات الحجرية التى تغطى الأرضية ، والعناكب التى تنسج خيوطها فى الأركان والزوايا .

ماذا يمكن أن يفعل بعد أن بلغ به الذل نهاية المطاف ؟! كان هذا هو السؤال الملح الذى لا بد أن يجد له إجابة ، وإلا انفجر من الداخل ومات ميتة الكلاب ! لم يعد سلاحا فى مواجهة هذه المحنة الجديدة سوى نفسه ووجوده كما قال لمجدى الطوبجى ! لكن كيف يصنع من وجوده سلاحا ؟! إنه ليس أحقر من جحافل النمل وجماعات العناكب التى تواصل تحدى الصحراء المحرقة المحيطة بها فى إصرار وبسالة ! لكن كيف ؟! إنه ليس نادما على تحديه أمر المأمور بعدم حضور الحكم ، فلم يعد هناك ما يمكن أن يحرص عليه ! إنه يؤمن أن أشجع الشجعان هو من بلغ مرحلة اليأس المطلق التى بلغها بالفعل ، لكن كيف يحول هذه الشجاعة إلى سلاح يدفنه فى صدر خصومه ؟

قفز سعد ليمسك بقضبان الكوة فلم ير سوى الصفرة التى أغرقت الكون كله حتى خط الأفق تحت الزرقة الملتهبة بهجير القرص الذهبى الذى يعشى الأبصار فى غضب منصهر من بوتقة احتوت ملايين السنين . هبط سعد ليجلس القرفصاء فى عتمة القاع ولا يزال قرص الذهب المنصهر مطبوعا فى حدقتيه . هل يمكن أن يقضى

سبعة أيام فى هذا القبر ؟! وماذا سيكون منظره عند باقى النزلاء عندما يخرج ؟! لن يحصل منهم سوى على نظرات الرثاء والعطف والإشفاق والتحسر ! وهو على استعداد أن يموت بدلا من أن يتلقى هذه السهام المسمومة فى كل لحظة ! فالموت مرة واحدة خير من الموت ألف مرة فى اليوم الواحد ! سيثبت لصلاح خلف أن معدن آل العنترى لا يتغير سواء أكانوا على قمة المجتمع أو فى قاع زنزانة ! لكن كيف ؟! كيف ؟!

تردد السؤال فى أعماقه آلاف المرات فى لحظات خاطفة ، ومض فيها برق أضاء عتمة الأعماق التى دوت بقصف رعد أعقبه وميض السلاح الذى سيشهره فى وجه صلاح خلف مهما كانت النتائج المترتبة عليه . سيضرب عن الطعام حتى الموت !! فإذا كانت حياته قد أصبحت رخيصة إلى هذا الحد فليمنحها هو المعنى والقيمة والثمن ، وليعرف صلاح خلف أن الأمور ليست بالبساطة التى تصورها ! سيجعل من نفسه الكابوس الذى يؤرقه ليل نهار ، وسيثبت له عمليا أنه ليس كما مهملا كما توحى إليه ثقته فى نفسه التى لا بد أن تهتز عندما يعلم رؤساؤه فى القاهرة أنهم أرسلوا إليهم من سيفجر بركان التمرد والعصيان بدلا من إرهابهم وكبتهم !

شعر سعد بوقع أقدام رتيبة خارج الباب الموصد فعرف أن الحراس سيتناوبون حراسته ! دق بقبضة يده على الباب حتى أجابه الحارس :

ــ ماذا تريد ؟!

ــ قل لأسيادك ألا يرسلوا لى طعاما .. فقد قررت الإضراب عن الطعام حتى الموت !

ــ هذا ليس شغلى !! عندما يأتونك بالطعام قل لهم ما تريد !!

عاد سعد إلى جلسة القرفصاء لكن بظهر مسترخ إلى الجدار هذه المرة ، وابتسامة ساخرة فى عينيه وعلى شفتيه . لقد عانى طوال عمره من الثورة التى أشعلت النار فى أسرته وحياته ، ويبدو أنه آن الأوان ليشعلها بدوره فى كل من أذلوه حتى لو احترق معهم . فلم تترك له الثورة منفذًا يتنفس منه بل طاردته حتى أوصلته إلى موقف شمشون : علىّ وعلى أعدائى !! إذ يبدو أنها عندما عجزت عن إلقاء

إسرائيل فى البحر ، فقد قررت أن تلقى بأعدائها القدامى التقليديين فيه على سبيل التعويض وعدم التراجع عن مبدأ أعلنته على الملأ !

لكن ما أمتع أن يتحول الإنسان إلى ثائر !! إنه يعذر الآن ثوار يوليو الذين أخذتهم العزة بالإثم بعد نجاح انقلابهم وظنوا فى أنفسهم القدرة على أن يقولوا للشىء كن فيكون ! فالثورة إحساس يزيح فى طريقه كل العقبات والحواجز طالما أن صاحبه قد حمل رأسه على كفه كما فعل حسين الطوبجى ليلة الثانى والعشرين من يوليو ! وها هو دور سعد العنترى قد جاء ليفعل نفس الشىء ! بل إن انفراده بنفسه قد أتاح له أن يعيد قراءة صفحات حياته فى ضوء جديد ، ويشحذ من عزيمته التى أهملها طويلا !

يجب عليه أن يكون الرجل الذى أحبته واحترمته شويكار ! صحيح أنه لم يفكر فيما يترتب على قراره على وجه التحديد ، لكنه يعلم شيئا واحدا فقط : أن ما يفعله هو من أجل شويكار وأسرته ! ذلك أن الحياة بعيدا عنها دون أمل قريب فى رؤيتها ولو للحظة هى الموت بعينه ! وقد قرر مواجهة الموت فى عقر داره بدلا من الانتظار تحت رحمته فى كل لحظة ! فماذا هم فاعلون وعلى رأسهم سيادة المأمور ؟! كان زمام المبادرة دائما فى يدك يا صلاح يا خلف ، والآن سأنتزعه منك فماذا أنت فاعل ؟!

ترك سعد قياده للتأملات والخواطر والشوارد والذكريات والتحديات والمخاطر حتى غلبته إغفاءة تكور على أثرها فى بيجامته التى انطبعت عليها خطوط الحصيرة المهترئة المتربة ، لكنه استيقظ على بعض اللسعات فى ساقه فوجد بعض النمل قد امتطاها ، فخلع الشبشب وانهال على النمل والعناكب حتى تساقطت الجثث التى جمعها فى أحد الأركان . وهيأ نفسه مرة أخرى للنوم لكن الباب فتح ليدخل الحارس حاملا صينية عليها الغذاء التقليدى لكن سعداً أشاح بيده :

— عد بالصينية مرة أخرى ! لن أتناول شيئا !

— يعنى مُضرب ؟!

تعجب سعد لذكاء الحارس التلقائىّ فأكد له :

— حتى الموت !

ضحك فى سخرية لم يحاول إخفاءها :

ـــ كُل ! كُل ! كثيرون قبلك قالوا هذا الكلام .. لكنهم فى اليوم التالى صرخوا طالبين الطعام ! لكنهم لم يحصلوا عليه إلا بعد تقبيل الأحذية !

ـــ سأثبت لهم أننى مختلف !!

ـــ كان غيرك أشطر ! عموما سأترك الصينية وسأعود لأخذها بعد ساعة !

ثم خرج وأغلق الباب خلفه ! شعر سعد أن إرادته أصبحت فى صلابة الفولاذ لدرجة أن نفسه عافت الطعام فأدار له ظهره . كان يمر بلحظة من اللحظات التى يكتشف فيها الإنسان قدرات فى نفسه كانت خافية عليه ، قدرات يمكن أن تعيد إليه احترامه لذاته والذى فرط فيه كثيرا تحت وطأة الضربات المتتالية ! صحيح أن الضربة التى يخطط لها من النوع السلبى الذى يدفع صاحبه ثمنها من صحته وربما حياته ، لكنه لا ينسى أن غاندى استطاع أن يهز الإمبراطورية البريطانية فى عنفوان سطوتها بمجرد الصيام والعصيان المدنى ! وطالما ذكره أبوه أن غاندى اعترف بأن سعد زغلول كان أستاذه فى الوطنية ، و لم يكن اسمه سوى تيمن بسعد زغلول ! وها هو يسير على درب الأستاذ وتلميذه : فالمعتقل لا يقل بشاعة عن المنفى بل يبدو أبشع لأن النفى إلى الداخل لا يحمل أمل العودة إلى الوطن والمرتبط بالنفى إلى الخارج . أما الصوم أو الإضراب عن الطعام فلا بد أن يهز الإمبراطورية الثورية التى قامت فى مصر منذ الثانى والعشرين من يوليو . وكل ما يتمناه أن يمنحه الله القدرة على مواصلة السير فى هذه الطريق الوعرة التى لم يعد له سواها !

فتح الباب بعد ساعة ليجد الحارس الصينية كما هى لم تمس ، فحملها وهو يتمتم :

ـــ ذنبك على جنبك !

وأغلق الباب مرة أخرى ، لكن بابا جديدا فتح فى جبهة صلاح خلف الذى بلغه النبأ فتظاهر بعدم المبالاة معلقا :

ـــ غدا يأكل ! فالجوع كافر ! عموما قدموا له العشاء قبل غروب الشمس ولنر !

قدموا له العشاء طبقا للأوامر ، لكن الشمس غربت وعادت الصينية كما هى ليتصاعد قلق صلاح ، بعد أن أصبحت الصينية العائدة المليئة حديث النزلاء الذين أعلن بعضهم ندمه لسوء ظنه بسعد فى حين أعلن البعض الآخر شكه فى قدرته على مواصلة الإضراب ، لكن الجميع سعدوا بالمأزق الحرج الذى وقع فيه المأمور على غرة ، وتمنوا أن يواصل سعد صومه قدر طاقته إذ أصبح من المستحيل أن تسيرُ الأمور على ما هى عليه ! أما سعادة مجدى الطوبجى فكانت لا توصف إذ أنه نجح فى توريط كل من سعد وصلاح فى مأزق لا يعرف كلاهما كيف يخرجان منه ؟! وكانت إجاباته على أسئلة صلاح حول سعد تمهيدا لذلك دون أن يفطن صلاح إلى إدراك مجدى للهدف الخفى الكامن وراء الأسئلة !

مر اليوم الثانى والثالث ليصبح سعد العنترى بطل المعتقل دون منازع ، لدرجة أن غيرة خفية دبت داخل مجدى الطوبجى إذ كيف يجمع سعد بين المرونة الفائقة فى الماضى والصلابة الفولاذية الآن ؟! وها هو اسمه قد أصبح حديث الصباح والمساء ، بل إنه أجبر صلاح خلف على أن يذهب إليه فى اليوم الرابع حتى يقنعه بالعدول عن الإضراب .

فتح صلاح باب الزنزانة ليرى سعدًا متكورا فى هزال شديد وقد امتزج شحوب وجهه بشعيرات ذقنه النابتة . اجتاحت صلاحاً موجة عارمة من الاكتئاب والإحباط وهو يلمس بيجامة سعد التى لم تعد بيضاء، فى محاولة لإيقاظه ! ركع إلى جواره ليتأكد من أن أنفاسه لا تزال تتردد ، لكنها كانت ضعيفة واهنة . هزه فى رقة هامسة :

ـــ سعد !! سعد !! أنا صلاح يا سعد !!

لم يستجب سعد فهزه صلاح فى رعب عنيف . مد جسده وفتح عينيه دون أن تفترق رموش الأجفان . سارع صلاح إلى سؤاله :

ـــ ما هذا الذى فعلته يا سعد ؟! لماذا تريد الانتحار ؟!

ارتسمت سخرية واهنة على وجهه الشاحب فاستجاب لها صلاح بابتسامة :

ـــ لماذا أجبرتنى على هذا الموقف الذى كنا فى غنى عنه ؟! هل تؤمن بأن

المصائب لا تأتى إلا من الحبايب ؟!

اتسعت ابتسامة صلاح لكنها سرعان ما انحسرت وسعد ينظر إليه نظرات قاتلة ! لم يعد يخاف الموت الذى أرعبه شبحه فى بدايات الصوم ! صحيح أنه لم يعد قادرا على تحريك جسده دون مساعدة أحد ، لكنه شعر بأن روحه أصبحت فى منتهى القوة والحيوية . أدرك أن كل قنوات الضعف الإنسانى تنبع من الخوف من الألم والموت ، فإذا استطاع الإنسان أن يقهرهما فإنه بذلك يصبح أقوى الأقوياء كما فعل الشهداء عبر التاريخ . لم يجد صلاح مفرا من أن يعترف بهزيمته :

ــ على كل حال .. سننقلك الآن إلى غرفتك .. وسيرعاك الطبيب إلى أن تسترد صحتك !

فتح سعد شفتيه الجافتين ، والتوى لسانه الأبيض بينهما :

ــ لن أخرج من هنا قبل انقضاء مدة العقوبة !

أجهدته الكلمات الواهنة المتقطعة لكن صلاحاً سارع بالسؤال :

ــ لماذا ؟! ماذا يدور فى عقلك بالضبط ؟!

عادت الكلمات الواهنة المتقطعة القاطعة لنياط القلوب :

ــ لأننى ابن مطيع للنظام !

ــ وأنا بصفتى ممثلا للنظام هنا .. أقول لك إن العقوبة انتهت !!

برغم كل شىء تدفقت حمية الأفكار من عقل سعد إلى لسانه :

ــ وطالما أن الحكم خطأً فلماذا أصدرته ؟!

ــ أنت الذى أجبرتنى عليه !!

ــ كيف أجبرك على شىء وأنا لا حول لى ولا قوة ؟!

ــ وأنا الآن أجبرك على العودة إلى غرفتك !

ــ ليس قبل أن تنتهى مدة العقوبة !!

ــ إذاً .. فلتنه صومك !!

ــ ليس قبل انقضاء مدة العقوبة !!

ــ المدة انقضت الآن !

— ليس قبل أن تعترف بخطئك .. سواء عند إصدار الحكم أو الآن عند إنهاء العقوبة !! فحياة الناس ليست لعبة !!

— أتظن أنك بصومك هذا قادر على إذلالى ؟! الماضى انتهى ولن يعود !!

— إذاً .. لماذا جئت ؟! لم أطلب العون من أحد !!

تذكر صلاح كل صور الإذلال والمهانة عندما كان يتحرك مع أبيه وسط آل العنترى كالخدم أو العبيد . صاح صلاح بصوت مبحوح :

— سأتركك لمصيرك ! لقد قمت بواجبى تجاهك والجميع شهود على ذلك !!

نهض واقفا ليستدير تجاه الباب المفتوح خلفه ويشير إلى الطبيب الذى دخل مع حارسين أمسكا بسعد الذى استسلم لهما وهما يعريان فخذه لحقنة الطبيب الذى غمدها فيه ثم طهر موضعها بقطعة من القطن المبتل بالكحول .

خرج صلاح وعقله وقلبه يتفجران باللعنات على كل شىء . هل يمكن أن يموت لمجرد العناد ؟! وماذا يمكن أن يكون موقف الرؤساء فى القاهرة لو حدث هذا لا قدر الله ؟! صحيح أن بعض المعتقلين يموت من التعذيب ثم يدفن فى مكان مجهول كأنه لم يكن !! لكن سعداً استطاع أن يجعل من نفسه قضية ! كذلك فإن علاقته بالقائد السابق علاقة وطيدة وقد أوصاه عليه قبل رحيله !! وهو معروف فى أوساط التنظيم الطليعى والاتحاد الاشتراكى ولجنة الدعوة والفكر وله فيها كثير من المتعاطفين معه ، وأى مساس بحياته لا بد أن يستغله منافسوه فى الداخلية لصالحهم بعد أن سبقهم كلهم فى الترقيات !! كذلك من الصعب تجاهل علاقة الصبا والشباب المبكر بهذه البساطة ، فهى محفورة فى أعمق أعماقه ، ويمكن تفسير سلوكه الحالى على أنه قضى عليه بحكم الحقد الطبقى الذى لم يتخلص من عقده المترسبة فى أعماق ماضيه !

جلس صلاح إلى مكتبه واضعا رأسه الذى يكاد ينفجر بين كفيه ! لماذا قبل المجىء لتولى هذا المنصب الكريه ؟! ولكن هل كان من الممكن أن يرفض ؟! ولماذا اختاروه له بالذات ؟! هل بسبب كفاءته كما ادعوا أم بسبب علاقته الخاصة بكل من سعد العنترى ومجدى الطوبجى ؟! ولماذا ؟! كلها علامات استفهام تتراقص أمام

عينيه دون إجابات شافية !!

لم يخرج من هذه الدوامات إلا على دقات فتح الباب على أثرها ليدخل الطبيب بسماعته التى لا تزال معلقة فى عنقه :

— تم الكشف عليه يا فندم .. النبض ضعيف والقلب على وشك الهبوط .. الحقنة مجرد عامل مساعد .. لكن لا بد أن يأكل .. فأنا لا أستطيع أن أتحمل مسئوليته !!

كان للفظ « المسئولية » وقع حاد على أعصاب صلاح المشدودة ، فسأله دون تفكير :

— وإذا أصر على الإضراب عن الطعام ؟!

— لا بد من إبلاغ المسئولين فى القاهرة حتى نخلى مسئوليتنا !! فهو ليس معتقلا من المعتقلين العاديين !

— كيف عرفت هذا ؟!

— منذ أكثر من عام كان قد أصيب بالمصران الغليظ .. فاستدعانى القائد السابق وأوصانى به خيرا لأنه ليس مغضوبا عليه تماما !

— وهو كذلك .. سأتخذ الإجراءات اللازمة .. شكرا !

خرج الطبيب ليترك المأمور غارقا فى دوامات لا تنتهى من الحيرة ! إذا كان هذا هو هدف سعد العنترى فلا بد أنه من الدهاء بحيث يحسب له ألف حساب ! هل يصل به الإصرار على الانتقام إلى تعريض حياته نفسها للخطر ؟! هل يهدف إلى تطبيق مبدأ « علىّ وعلى أعدائى » ؟! الآن يدرك صلاح معنى كلمة سعد لمجدى : سلاح اليأس البتار !

ردد باب المكتب دقات دخل مجدى الطوبجى على أثرها ، ناظراً خارج الباب قبل أن يغلقه فى توجس وخيفة :

— سمعت مجاهد عطية يقول لبعض المعتقلين إن الرجولة تحتم عليهم الإضراب عن الطعام حتى يتم إنقاذ سعد العنترى !!

فعلتها يا سعد يا عنترى وأصبحت زعيما لثورة قادمة وأنت ابن الإقطاعيين ألد

أعداء الثورة ! جمع صلاح شتات أفكاره سائلا مجدى :

ـــ وهل استجابوا لدعوته ؟!

ـــ كانوا خائفين من التصريح بآرائهم .. لكن ما فى عقولهم وقلوبهم كان مرسوما على وجوههم خاصة عندما قال لهم :

ـــ عار علينا أن يثور الإقطاعى البورجوازى فى حين نجلس هكذا كالنساء العاجزات واضعين خدنا على كفنا فى انتظار ما تأتى به المقادير !

تماسك صلاح حتى لا يتعرى أمام مجدى :

ـــ ليس الأمر بهذه البساطة ! سأتخذ ما أراه مناسبا ! ولا تأتى إلى هنا مرة أخرى! عندما أحتاج إليك سأرسل إليك من يأتنى بأخبارك ! فأنت ورقة مهمة لا أريد لها أن تحترق !

استراح مجدى للجملة الأخيرة بعد أن اجتاحه القلق عندما أمره بألا يتردد على مكتبه مرة أخرى . قال :

ـــ وهو كذلك يافندم ! عن إذنك !

خرج ليتوغل صلاح فى دوامات الحيرة بحثا عن بر الأمان والقرار الصحيح ! فالاتصال بالرؤساء لإبلاغهم من شأنه أن يشوه صورته المثالية ! وعدم إبلاغهم يمكن أن يؤدى إلى مشكلة قد يصعب حلها ! ولا يبدو أن سعد العنترى سيتراجع إذ أن الوهن الذى حط عليه قد عطل عنده مصادر الخوف والقلق والتشبث بالحياة فأصبح كالسائر فى نومه إلى حتفه ! إذاً لا بد من الاتصال بالقاهرة قبل أن تتفاقم الأمور أكثر من هذا ! ومع ذلك تردد لعل اللحظات القادمة تحمل بين طياتها المتكاثفة أملا جديدا !

ظل حتى مساء ذلك اليوم المتثاقل يتابع أخبار سعد لحظة بلحظة ومعه محاولات مجاهد عطية لإعلان العصيان ، لكنه اطمأن بعض الشىء لدرجة أنه شك فى كلام مجدى الطوبجى الذى جاءه به فى الصباح ، لكن وقع فى العشاء ما جعل الحقائق تبدو كالكابوس ، إذ وقف مجاهد عطية فى قاعة الطعام ليعلن إضرابه عن الطعام تضامنا مع سعد العنترى وإنقاذا له ، فإذ بكثيرين يخرجون فى أعقاب مجاهد للاعتصام

بغرفهم مضربين عن الطعام فى حين بقى قليلون لتناول بعض اللقيمات حتى ينفوا عن أنفسهم تهمة التواطؤ !

قضى صلاح ليلته ساهرا فى مكتبه ! أصبحت كل الإجراءات التقليدية التى يجب أن يتخذها عاجزة تماما عن احتواء الموقف الجديد ، وكل الخطوات العنيفة التى يمكن أن يقدم عليها منذرة بعواقب وخيمة قد تؤدى إلى قتلى وجرحى يصعب حصرهم ! ومع إشراقة الصباح جاءته الأنباء بدخول سعد العنترى فى غيبوبة ، فلم يمنع صلاح نفسه من أن يجتاحه الرعب وهو المحصن بالحراس وأفراد الأمن ، ولم يجد بداً من الاتصال هاتفيا بالرؤساء الذين لم يشفوا غليله ، فقد أمروه بانتظار ردهم بعد التشاور فى الأمر الذى لا بد من تصعيده إلى أعلى مستوى !

ظل صلاح إلى جوار التليفون طوال اليوم بلا طعام كالمعتصمين تماما. لم يستطع أن يبتلع لقمة واحدة ، فى حين أشرف بنفسه على إعطاء الطبيب حقنه أخرى لسعد جعلته يهتز ويفتح عينيه، لكنه سرعان ما عاد إلى غيبوبته ! فكر صلاح فى نقله إلى غرفته لكنه خشى من فتح فوهة البركان الهادر بحممه فى سكون مخيف!

كم بدا صلاح صغيرا ضئيلا فى نظر نفسه قبل نظر الآخرين ! كان يتصور أن إدارته للمعتقل ستكون فترة استجمام يستطيع فيها أن ينجز رسالته للماجستير ، لا خطوة إلى قاع جحيم لا يعرف الآن كيف يخرج منه ، وربما قضى على مستقبله الذى لا يملك غيره فى هذه الحياة ! فهو يجلس الآن إلى جوار التليفون كمن ينتظر النطق بالحكم عليه وليس على المضربين المعتصمين ! تذكر خوف أبيه يوم هدده العنترى الكبير بطرده من خدمته يوم اصطدمت سيارته بسيارة ضابط كبير فى السنوات الأولى للثورة ! الآن يطارده سؤال ملح :

— هل سيظل رهين خوفه حتى وهو فى السلطة ؟!

ثار صلاح على نفسه ثورة عارمة مكبوتة ، ولعن كل آماله وآلامه فى جلسته الذليلة إلى جوار التليفون الذى لم يدق إلا فى المساء بعد أن مضى على الإضراب العام يوم بأكمله . أمسك بالسماعة ودقات قلبه تكاد تشوش على الصوت البعيد على الطرف الآخر كأنه آت من كوكب فى مجرة بعيدة عنه ملايين السنين الضوئية

وهو يرد منتفضا مع كل كلمة :

— حاضر يا فندم ... تحت أمرك يا فندم ...... وهو كذلك ...... سأنفذ كل ما تأمر به سيادتك .... مع السلامة يا فندم !

لم ينم صلاح ليلته التالية . فقد ظل يجتر تفاصيل المكالمة : وصول هيلوكوبتر فى الصباح .. وعليها طبيب ومأمور جديد للمعتقل .. الطبيب لمباشرة نقل سعد العنترى إلى القاهرة .. والمأمور ليحل محله إذ تقرر عودته على نفس الطائرة مع سعد ! تذكر لواحظ فمرت به لحظة سعادة خاطفة سرعان ما تلاشت إذ أنها لا يمكن أن تتصور عودته بهذا الشكل المهين الذى ربما فتح الباب لإهانات متتابعة قد تقضى عليه فى نهاية الأمر . لكنه مع كل ذلك استراح لخروجه من هذا الجحيم بطريقة أو بأخرى ، فلم يعد يعبأ بالمعتصمين ولا بإبلاغهم بالميكروفون آخر التطورات لعلها تنفس عن مرجل الغضب الذى أوشك على الانفجار !

فى الصباح استيقظ المعتصمون على هدير محرك الطائرة وهى تهبط وسط دوامة عاتية من الرمال الثائرة ، فتعلقت العيون بها من النوافذ المظلمة الضيقة . توقفت عن الهدير ليسرع إليها صلاح فى انتظار الهابطين . كان المأمور الجديد فى مقدمتهم وقد بدا أكبر سنا من صلاح ، ثم الطبيب وخلفه اثنان من الممرضين يحملان نقالة ! توجهوا جميعا إلى حجرة الحبس الانفرادى التى دخلها الطبيب وخلفه وقف طبيب المعتقل . بعد فحص شامل لسعد الذى لم يعد يشعر بشىء ، دخل الممرضان ليحملاه على النقالة التى سارا بها حتى الطائرة ليرفعاه إلى داخلها . نظر الطبيب إلى المأمور الجديد نظرات لم يلحظها صلاح الذى أوشك على السقوط فى غيبوبة هو الآخر تحت وقع كلمات الطبيب القاتلة :

— سبقنا الموت إليه !

فإذ بصلاح يدق كفا بكف فى صوت ذبيح :

— لا حول ولا قوة إلا بالله ! لا حول ولا قوة إلا بالله !

أسرع المأمور الجديد إلى الميكروفون ليقدم نفسه ويعلن النهاية المأسوية لرفيقهم نتيجة لعناد كان يمكن تجاوزه سواء من جهته أو من جهة المأمور السابق . وتعهد

المأمور الجديد بلهجة أبوية أن ما حدث لن يتكرر ، وسيعيش الجميع أسرة واحدة متحابة حتى يوم الإفراج بإذن الله . وبابه مفتوح فى الليل والنهار لكل من لديه شكوى أو حاجة !

رفع الممرضان النقالة التى تحمل جثمان سعد الذى غطى بملاءة بيضاء إلى الطائرة وخلفهما صعد الطبيب وصلاح فى كابوس حى لا يفيق منه ولا يريد ، بل تمنى أن يتحول الكابوس إلى غيبوبة مثل تلك التى انتقم بها سعد منه ومن نفسه ! هل كان يمكن أن يتصور أن تصل الأمور إلى هذه النهاية المفجعة ؟! وأن ينظر إليه الناس على أنه قاتل سعد العنترى ؟! وسعد العنترى على وجه التحديد ؟!

دار محرك الطائرة لتعود الدوامة الرملية فى الدوران والفوران حولها . جلس صلاح خلف القائد لا يريد ولا يجرؤ أن ينظر خلفه إلى جثمان سعد العنترى الممدد تحت الملاءة البيضاء والذى جلس إلى جواره الطبيب الذى أزاح الغطاء من على وجهه ، ناظرا إلى صلاح الذى بدا وكأنه لا يعى ما يدور حوله ، فلم تفارق عينا الطبيب وجه سعد المغمض العينين والغارق فى شحوب صفرة الموت !

بعد ما يقرب من الساعة والنصف هبطت الطائرة فى مطار ألماظه حيث كانت عربة إسعاف فى الانتظار وإلى جوارها عربة شرطة ! توقف المحرك لتهبط النقالة التى ابتلعتها فوهة عربة الإسعاف المفتوحة لتنطلق بها فى حين سار صلاح بأقدام من رصاص إلى سيارة الشرطة التى اندفعت بضجيج مستفز لأعصابه وهو ينظر إلى المرئيات من النافذة ولا يراها برغم الشمس المبهرة التى افترشت الطريق إلى مبنى الداخلية فى لاظوغلى !

١٤

سار صلاح خلف فى ممر شبه معتم برغم الشمس الساطعة خارج مبنى الداخلية . كان كالسائر فى نومه المضطرب بالكوابيس المتلاحقة خلف الضابط الذى اصطحبه إلى أحد المكاتب الفاخرة الرحبة ذات الطراز الإنجليزى القديم والذى تجلى فى المقاعد الجلدية الوثيرة . تركه بمفرده فى انتظار المسئول الكبير الذى تحددت مقابلته له . تصفح صلاح جدران المكتب فوجد صورة صخمة لجمال عبد الناصر أعلى المكتب ، ثم هبط بعينيه ليقرأ اللافتة النحاسية الصغيرة الموضوعة على المكتب وهو يكاد يشهق :

ــ لواء مصطفى صقر !! لواء مصطفى صقر !!

إنه قائد المعتقل السابق بعينه ! أم أنه مجرد تشابه فى الأسماء ؟! لا إنه ليس كذلك !! إنه هو بعينه !! فقد كان مرشحا لمباحث أمن الدولة أو للمخابرات العامة ويبدو أن الأختيار وقع عليه لتولى الأولى !

استراح صلاح بعض الشيء لكن صورة جثمان سعد العنترى تحت الملاءة البيضاء لا تزال تلح على عقله حتى أصابته بالشلل ! هل يعقل أن يكون ما مر به فى الأيام الخمسة الماضية وقائع حقيقية أو حقائق واقعية ؟! لأول مرة لا يستطيع عقله أن يستوعب أحداثا خاضها بالفعل ! كل ما حاول أن يفعله أنه أدى واجبه فى حدود الأوامر واللوائح والتعليمات ، فهل كان عليه أن يترك الأمور تجرى على هواها لمجرد أن أحد المعتقلين قرر الإضراب عن الطعام ؟! كان سعد العنترى كمن وضع عنقه على قضبان القطار حتى يقع اللوم على كاهل القطار إذا فصل عنقه عن جسده ! إنه مقتنع تماما بذلك ، ومع ذلك فهناك بؤرة صديدية فى أعماقه المظلمة بدأت تنضح بإفرازتها الملوثة على أفكاره وخواطره وتأملاته حتى أحالت وجوده إلى جحيم مقيم !

فتح الباب لينتفض صلاح واقفا للرجل الهادئ الواثق من نفسه وهو يدخل مبتسما ليشد على يده ثم يجلس وفى أعقابه صلاح :

ــ ماذا جرى لك يا صلاح ؟! تكلمنى أمس بالتليفون مرتين دون أن تعرف من أنا ؟!

استراح صلاح للهجة العتاب الحانية :

ــ آسف يا فندم !! كنت فى حالة يرثى لها !!

ــ لا أحب أن أسمع مثل هذا الكلام من ضابط !

ــ وجدت نفسى فى موقف لا يمكن التراجع فيه !

ــ لكننى عرفت أنك عرضت على سعد العنترى فى زنزانته أن ينقل إلى غرفته حتى يرعاه الطبيب إلى أن يسترد صحته .. لكنه رفض الخروج منها قبل انقضاء مدة العقوبة !

ــ طالما أن سيادتك عليم بكل ما دار .. فأنا على استعداد لمواجهة أية لجنة تعقد للتحقيق معى !!

ــ حتى لو شكلت هذه اللجنة .. فأعتقد أنها لن تجد قرينة ضدك !!

ــ يكفينى العذاب الذى أنا فيه !!

أشعل اللواء سيجارة وقدم العلبة لصلاح الذى اعتذر بعدم التدخين :

ــ لم أعرف أنك بهذه الحساسية ! إنك فى الحرب عندما تواجه عدوك الذى لا تعرفه .. لا بد أن تسارع إلى قتله .. والا أمطر فرقتك بوابل من رصاص !!

نظر صلاح إلى قدميه ونقوش البساط الوثير :

ــ أعرف أننى تسببت فى قتل سعد العنترى ! فهو لم يكن عدوى بأية حال من الأحوال !

أطلق اللواء نفسا طويلا من دخان شفاف :

ــ لكنه بفعلته هذه قرر أن يقضى عليك !!

ــ لقد قضى على نفسه !!

ــ إنك لا يمكن أن تكون مسئولا عن شخص يخيرك بين أن تقوم أنت بعمل أو

بتنازل يفرضه عليك وبين أن ينتحر لرفضك الإذعان له ! فإذا لم يكن هناك مناص من الاختيار بين القرض والرفض.. فلا بد أن تختار الرفض دون أدنى تأنيب من ضميرك !

سرت بعض تيارات المياه الصافية الباردة فى أعصاب صلاح الملتهبة ، فغمرت قلبه بحب هذا الرجل العظيم !

— الله وحده يعلم ماذا كان يمكن أن يحدث لو امتدت إقامتى هناك يوماً واحداً !

— لا أخفى عليك أننى كنت أحد الرافضين لحصولك على هذا المنصب بالذات !!

أخيرا طفح السؤال الملح على السطح لعله يجد إجابة شافية هذه المرة :

— إذًا .. لماذا وقع الاختيار علىّ ؟! كنت موفقا للغاية فى عملى بالمطار !!

— لم يكن الجناح المتشدد معجبا بأسلوب إدارتى للمعتقل .. واتهمنى بأننى أدلل المعتقلين فى وقت تحتاج فيه الجمهورية العربية المتحدة كلها إلى صرامة شديدة لمواجهة آثار العدوان وإزالتها .. ولا أخفى عليك فلم أحاول أن أدافع عن منهجى وأسلوبى بعد أن سئمت وجودى هناك .. خاصة وأن هذا الجناح أكد للرئيس أن خبراتى الطويلة والعميقة يمكن الاستفادة بها فى مواقع أكثر حيوية وخطورة .. فـوقع عليك أنت الاختيار لعدة أسباب منها دقتك فى تطبيق الأوامر والتعليمات .. وهى التى عرفت بها طوال حدمتك فى المطار .. كما أن لك تاريخا طويلا مع اثنين من المعتقلين يمثلان قطاعا حساسا فى الوضع الحالى .. خاصة مجدى الطوبجى وغيره من شلة المشير الذين شرفوا المعتقل فى أعقاب النكسة !!

توقف اللواء ليسحب نفسا طويلا أعقبه بإطفاء السيجارة فى المنفضة النحاسية أمامه ، فلم يملك صلاح سوى أن يقول :

— هذا التاريخ الطويل..هل كان يعنى أننى سأكرم وفادتهما أم سأنكل بهما؟!

— قيل إنك عانيت الأمرين من كليهما منذ أيام الصبا .. ومن الطبيعى أنك ستنتقم منهما خير انتقام !

أمسك التشنج بتلابيب نبرات صلاح :

ـــ الله وحده يعلم أننى كنت أؤدى واجبى فقط .. كما أننى لم أعان الأمرين منهما فى صباى إذ علمنى أبى أن أتعامل مع الواقع كما هو وليس كما أحب أن يكون .. والآن سيقول الجميع إننى وضعت خطة للانتقام من سعد ونجحت فى تطبيقها إلى حد قتله !

ـــ مشكلتك الحقيقية أنك تعلمت التعامل بمهارة مع الأوراق والخطط والتحريات .. لكنك لم تتعلم إدارة البشر على مستوى جماعى .. هناك اعتبارات بشرية تختلف من شخص لآخر .. وربما من موقف لآخر بالنسبة للشخص الواحد .. وهى اعتبارات لا تخضع بالنص للوائح والبنود والتعليمات ولكن للخبرة والممارسة والدراسة والتفكير والخيال .. ولذلك كان المعتقل كله فى إصبعى كالخاتم .. و لم يحدث أن دللت أحدهم كما اتهمونى .. بل كانت يدى حديدية ولكن فى قفاز حريرى !

ـــ كان لا بد أن أتعلم كل هذا قبل أن أتورط فى مثل هذا المأزق !!

أشعل اللواء سيجارة أخرى :

ـــ كان من ضمن أسباب ورطتك رفع شعار تسليم المراكز الحساسة للقيادات الشابة لتجديد دم النظام .. وأنا بطبيعتى ضد رفع الشعارات وتطبيقها بطريقة عشوائية .. وصارحتهم بأن القضية تكمن فى الكفاءة وليس السن .. لكننا كعادتنا عندما نتحمس لفكرة ما نرفض تماما الاستماع إلى أى رد عليها !!

ـــ عموما أنا تحت أمر سيادتك فى كل ما تحكم به علىّ !!

ـــ تغيرت كثيرا يا صلاح !! من يرك الآن لا يصدق أنك نفس الشخص الذى جاء إلى المعتقل ليديره بيد من حديد !!

ـــ إذا لم أتعلم من الدروس التى تمر بى .. فلا يصح أن أظل فى هذا الموقع على الإطلاق !

مع سحابات الدخان استفسر اللواء عن موضوع لم يخطر ببال صلاح الذى عاد إلى عينيه السوداوين بريقهما اللماح :

ــ عرفت أنك سجلت رسالتك للماجستير فى كلية الحقوق عن دور رجل الشرطة فى مكافحة جرائم المال ؟!

ــ هذا صحيح يا فندم .. لكننى حتى الآن لم أستطع التفرغ لها .. وكنت أظن أن المعتقل سيمحنني وقت الفراغ الكافى !!

ــ سأقوم بترشيحك للعمل معى هنا فى مباحث أمن الدولة .. فقد قبضنا على شبكة هذا الأسبوع لتزوير الدولار الأمريكى والجنيه المصرى بكميات مهولة .. وكشفت التحقيقات أن مدير الشبكة يهودى كان يعيش فى مصر ثم تركها بعد العدوان الثلاثى عام ٥٦ .. ويقيم الآن فى انتويرب ببلجيكا لكنه دائم التنقل إلى تل أبيب .. أى أن إسرائيل تواصل معنا الحرب على كل الجبهات .. وأعتقد أن وقتك فى دراسة الأوراق والتحريات والشبهات بالإضافة إلى دراستك الأكاديمية فى هذا المجال ستجعل منك خير من يقوم بمثل هذه المهام !!

اجتاح الحرج الممتزج بالخجل وجه صلاح الأسمر :

ــ هذه ثقة أرجو أن أكون جديرا بها !!

ــ اختيارى على أساس الكفاءة .. لا السن .. وأرجو ألا يؤثر ما حدث فى الأيام الأخيرة فى ثقتك بنفسك !!

ــ لولا إحساسى القاتل بالذنب لكان كل شىء على ما يرام !

ــ لا أحب التكرار .. خذ راحة يومين أو ثلاثة .. وعندما تشعر أنك استعدت لياقتك .. تعال لنتفق على المهام التى ستوكل إليك !

نهض صلاح مؤديا التحية العسكرية بحماسة طارئة برغم التعب الذى بدأ يحل عليه :

ــ رهن إشارة سيادتك فى كل ما تأمر به !

نهض اللواء ليشد على يده وتنتهى المقابلة بخروج صلاح من المبنى العريق إلى الشارع الغارق فى ضياء الشمس الذى يعشى الأبصار ، وضجيج أبواق السيارات المخلفة وراءها سحابات متصاعدة من الأتربة الشفافة . أشار صلاح لإحدى سيارات الأجرة التى توقفت ليركبها وصوت غريب يتساءل فى أعماقه :

ـــ هل يعقل أن سعد العنترى قد مات فعلا بهذه البساطة ؟! هل كان انتحاره نتيجة فعلية للحكم عليه بالحبس الانفرادى أم أن هناك أسبابا خفية لا يعلمها ؟! هل يمكن أن يستسلم للموت بهذه السهولة بل يقبل عليه وهو المقبل على الحياة يحاورها ويناورها برغم كل الضربات التى تلقاها ؟! كيف ستستقبل لواحظ هذه الأنباء المأسوية التى لا بد أن تطمس نشوة اللقاء غير المتوقع ؟!

آه .. إن رأسه يكاد ينفجر ولا يعرف لنفسه مهربا يلوذ به من وطأة علامات الاستفهام المدببة كالسهام النارية ، والشوارد المعتمة التى تحاصره كالأسلاك الشائكة الكهربية وسط صحراء شاسعة محرقة !

١٥

كاد صلاح خلف يموت وفى نفسه شيء من سعد العنترى برغم مرور حوالى عام فشل فى تهدئة براكينه التى كتمها بعيدا عن كل الناس ، حتى لواحظ التى عجزت عن استعادة صلاح العفوى ، التلقائى ، المنطلق ، المتفائل . كان موفقا فى مهمته الجديدة التى أتاحت له لأول مرة التقدم فى دراسته التى جمعت بين النظرية والتطبيق ، ومع ذلك فقد القدرة على السعادة لدرجة أن الحياة أوشكت على أن تصبح وجودا بلا معنى وبلا مذاق . كانت البؤرة التى كمنت فى أعماقه منذ رحيل سعد العنترى تنضح من حين لآخر بصديدها الذى يطفح على لسانه بمرارة لم يعرفها من قبل ، وحيرة متراقصة وسط علامات استفهام لا تريد أن تنطمس ! فقد حاول تتبع أية أخبار عن آل العنترى على البعد لكنه لم يحظ بما يشفى غليله ! تابع صفحات الوفيات فى الصحف الثلاث فلم يأت له ذكر سواء فى أعقاب موته أو فى تمام الأربعين أو بمناسبة مرور عام على رحيله . وفسر الأمر بحظر نشر مثل هذه الأنباء حتى لا تثير تساؤلات لا لزوم لها . لكنه تفسير لم يشف غليله لأن خبر موته أعلن فى التو واللحظة على زملائه فى المعتقل !! كذلك لم يحاول أحد من آل العنترى الاتصال به سواء على سبيل الاستفهام أو التحرى أو العتاب أو حتى السباب والتهديد !! كما أنه لم يجرؤ على أن يذهب إلى الشواربى ليرى ما حل بالمحل أو يتصل بشويكار لتقديم العزاء ! ومع ذلك ظل فى داخله خاطر ملح يدفعه إلى مواجهة أصحاب الموقف حتى لو قتلوه انتقاما من مصرع سعد !

أخيرا عقد العزم على القيام بتحرياته الخاصة لأنه لم يعد يحتمل لهيب النار الذى تتصاعد ألسنته داخله يوما بعد يوم ، بعد أن ظن أن الأيام كفيلة بالتئام الجروح مهما كانت عميقة وملتهبة كما قال له اللواء . سيذهب أولا إلى محل الشواربى وليكن ما يكون ! فكم تردد من قبل فى القيام بمثل هذه المحاولة ترددا طال حتى احتقر نفسه

فى النهاية !! يجب عليه أن يذهب لمقابلتهم كى يقص عليهم كل التفاصيل بمنتهى الأمانة والإخلاص ، ولهم أن يحكموا بما يشاءون ! ولكن عليه أولا أن يتخلص من تلك الشحنة التى أبهظت كاهله طوال هذا العام مهما كان رأيهم فيه ! خاصة وأن لواحظ شجعته أخيرا على هذه الخطوة لعله يتخلص من كل عوامل الاكتئاب والإحباط والتشتت والشرود التى ظلت تلازمه منذ الحادث المشئوم ، بـل وعرضت عليه اصطحابه إليهم إذا كان فى وجودها معه ثمة فائدة ! لكنه أكد لها أن الجبن لم يصل به إلى هذا الحد . خاصة وأن دخوله الشوارلى بدون الحلة العسكرية التى لم يعد يرتديها فى وظيفته الجديدة لن يلفت إليه الأنظار !

كانت نسمات الخريف الحانية تهب معبقة بعطر الفاتنات اللاتى يذرعن الشارع جيئة وذهابا أمام المحال التى استعادت رونقها مع عودة الإضاءة الساطعة إلى شوارع القاهرة . فقد كان الشغل الشاغل للسلطة أن تبدو الحياة فى القاهرة بالذات وكأنها تسير سيرتها الأولى ، برغم الإظلام التام على جبهة القناة ، ودك المدافع الإسرائيلية لمدنها ، وغارات الطائرات التى تصل من حين لآخر إلى العمق دون أن يعوقها عائق ! فلم تكن الروح المعنوية فى حاجة إلى المزيد من الهبوط حتى يسود الظلام التام العاصمة !

سار صلاح على الطوار المقابل لمحل العنترى ودقات قلبه تكاد تصل بوجيبها إلى أعلى رأسه مما ذكره بأيام الصبا عندما كان يذهب إلى المدرسة لمعرفة نتيجة آخر العام ! ها هو محل العنترى بلافتته المضيئة وواجهته اللامعة المتألقة ينبض بالحياة والازدهار والانتعاش برغم موت صاحبه !! هل التجارة لا تعرف من الحياة سوى دورتها المتجددة دائما بصرف النظر عن حياة أو موت الأفراد ؟! هل يمكن أن تكون الأسرة قد باعته إلى مالك جديد احتفظ بالاسم التجارى ؟! لكن هذا غير ممكن إلا إذا سمحت الحراسة بذلك ! على كل حال يمكن دخول المحل والسؤال للتأكد من كل هذه المعلومات !

عبر الشارع إلى المحل حيث رأى ما لم تصدق عيناه ! كانت شويكار ببشرتها البيضاء النضرة المشربة بالحمرة ، وعينيها اللتين تمزجان الزرقة بالخضرة ، وأنفها

الشامخ ، وشعرها المتدفق على كتفيها بلمعان بنى فاتح ، تقف خلف مائدة مستطيلة من خشب الأرو الفاخر ، وابتسامة عريضة على وجهها لفاتنتين تستعرضان الأزياء لاختيار المناسب منها .

التصقت قدما صلاح فى أرض الطوار ! هل يمكن أن تكون هذه أرملة صاحب المحل ؟! هل يمكن أن تكون قد تزوجت من آخر واستأنفت حياتها من جديد ؟! كيف سيقابلها وماذا سيقول لها وأى سؤال يمكن أن يبدأ به ؟! لقد ازدادت جمالا على جمال وسحرا على سحر ، فلعل هذا يشجعه على مفاتحتها فى الموضوع دون حساسية أو حرج ، إذ يبدو أن الجوانب المأسوية الحزينة للموقف قد تراجعت مع الأيام بل وتلاشت برغم أنه هو نفسه لم يستطع أن يتخفف منها !

انتظر حتى خرجت الفاتنتان بعطرهما الذى لفح أنفه فرفع من روحه المعنوية ودون تفكير دخل ليجد نفسه أمامها فى جلستها خلف المائدة وهى ترفع عينيها لتتسعا ببريق الزرقة والخضرة المسلط على شفتيه الداكنتين تحت شاربه الغليظ وهو ينطق :

— مساء الخير !

— مساء الخير .. تحت أمرك !

أيمكن أن تكون قد نسيت ملامحه أم أنها تتجاهل عن عمد ؟:

— أنا صلاح خلف !

لم يعد أى أثر للابتسامة السابقة :

— نعم !! أى خدمة ؟!

تجاهل تجهمها وحشد نفسه ليفرغ كل ما عنده :

— بصرف النظر مقدما عن رأيك فيما سأقوله .. هناك أشياء لا بد أن أصارحك بها .. فلم أعد قادراً على كتمانها أطول من هذا !!

ترددت لحظات وكأنها تبحث عن كلمات لكن سرعان ما جاءها المدد عندما دخل شاب وخطيبته يسألان عن بعض أدوات الزينة فأسرعت إليهما بالابتسامة العريضة وشرعت فى عرض معظم ما لديها من هذه الأدوات ، فى حين نظرت إليه

من طرف خفى نظرات تؤكد عدم ترحيبها به ، ومع ذلك ظل واقفا فى حرج فى انتظار خروجهما . لكن الفتاة انهمكت فى فحص المعروضات بسعادة بدت بلهاء فى نظر صلاح الذى تشاغل بمشاهدة المعروض على الجدران خلف الواجهات الزجاجية وهو يشعر بانحسار الخوف والقلق داخله . أوشك الخطيب على أن يشكر شويكار على تعبها إذ يبدو أن الأسعار لم تكن تناسبه ، إلا أن استغراقها مع خطيبته جعله كمية مهملة مثل صلاح تماما برغم نظراتها الخفية إليه من حين لآخر !

طال الشرح والحوار والمساومة حتى بدت شويكار وكأنها تهدف إلى تضييع الوقت حتى يمل ويخرج . لم يشعر صلاح طوال حياته أنه شخص غير مرغوب فيه كما شعر فى تلك اللحظة التى أعادت إليه أحاسيس الذل والمهانة القديمة . فلعن ذله وقلقه وحرجه وشويكار وسعداً فى صمت لكنه قال بصوت مسموع :

ــ يبدو أننى جئت فى وقت غير مناسب !

ثم استدار ليشرع فى الخروج فإذ بليلة الدهشة والحيرة تبلغ قمتها عندما أوشك على الاصطدام بسعد العنترى ! شهق كطفل لمح شبحا وسمع صوته المبحوح كأنه صادر عن شخص آخر :

ــ أنت ؟! أنت لم تمت ؟! غير معقول !! غير معقول !! وأنا الذى قضيت عاما فى جحيم مقيم بسببك ؟!

كان سعد بادى السعادة والصحة والحيوية والثقة بالنفس ، فأمسك بيد صلاح الذى لفت الأنظار إليهما بكلماته العجيبة المثيرة ، وقال له :

ــ سأقص عليك كل شىء بالتفصيل ! تفضل معى إلى الدور الأعلى !

وقاده على السلم المعدنى الحلزونى حيث مكتبه الذى جلس صلاح أمامه كالمنوم مغناطيسيا أو كالمذهول تحت وطأة كابوس !

جلس سعد أمام مكتبه الأبيض الفاخر ذى السطح المغطى بالجوخ الأخضر والبللور السميك وقد تهدلت خصلة صفراء داكنة لامعة على جبينه فأزاحها بيده ذات الخاتم الماسى المتلألئ ، لكنها عادت لتتهدل مرة أخرى فى شقاوة أرستقراطية

لم يسترح لها صلاح :

— أظن أن من حقى أن أعرف كل شيء بالتفصيل ؟!

— هل من حقك بصفتك مسئولا رسميا أم بصفتك صديقا قديما جدا ؟!

اغتاظ لضغطه على مخارج ألفاظه وهو ينطق الكلمات الثلاث الأخيرة :

— لا تهم الصفة .. وإنما من حقى .. للجحيم الذى عشته طوال عام لعقدة الذنب بصفتى قاتلك أو على الأقل المتسبب فى موتك !

نظر سعد عبر الجدار البللورى الذى يطل على الحركة الدائبة فى الشارع :

— وهل أنا الذى أوحيت إليك بهذه العقدة ؟!

دق سطح المكتب بقبضته :

— لماذا أعلن الميكروفون موتك وأنت حى ترزق ؟!

ابتسم سعد فى سخرية متعالية :

— كيف تسألنى هذا السؤال وأنت واحد من نجوم الأمن فى هذا البلد ؟!

— ماذا تقصد ؟!

— إذا كان الإضراب عن الطعام وسيلة فعالة للانتقال من المعتقل إلى أحد مستشفيات القاهرة .. فمن السهل على أى معتقل أن يلعب هذه اللعبة إذا كان قادرا عليها ! لكن كان لا بد أن يتأكد المعتقلون جميعا أن هذه هى عاقبة من يقدم على هذه الفعلة !!

— وهل كان الأمر بالنسبة لك مجرد لعبة كما تقول ؟!

— الفضل فى ذلك يرجع إليك .. فقد منحتنى سلاح اليأس البتار .. وغير ذلك مما نقله إليك مجدى الطوبجى !

— وكيف عرفت أنه نقل إلىّ مثل هذا الكلام ؟!

— أنا أدرى بطبيعته .. إنه على استعداد لبيع أبيه لأى مكسب يحتمل أن يحصل عليه !

— وهل كنت تنوى حقا الإضراب حتى الموت ؟!

عادت نبرة العنجهية القديمة التى تمقتها أسماع صلاح :

— نحن تربينا على أن الموت أفضل من الحياة بلا كرامة وبلا حرية !

ها قد عاد إلى « نحن » و « أنتم » ومع ذلك فمهمته الآن تتركز فى إصابة كبد الحقيقة :

— وطالما أنهم نجحوا فى إنقاذك .. فهل أفرجوا عنك خوفا من العودة إلى الإضراب مرة أخرى ؟!

— من الواضح أنك كنت ولا تزال تتمنى أن أقضى بقية أيامى فى المعتقل ؟

— لا داعى للف والدوران ! كل ما أريد أن أتأكد منه : هل كنت مخطئا يوم أديت واجبى وطبقت الأوامر واللوائح ؟!

— وأنت لا داعى للتشدق المستمر بأداء الواجب ! فكل أوامرك ولوائحك تقف عاجزة أمام إرادة إنسان لم تعد له رغبة فى مثل هذه الحياة !

— لكن من الواضح الآن أن رغبتك فيها عادت أشد ما تكون !!

— لأنها عادت إلىّ بشروطى وليس بشروطك !

شرد صلاح للحظات ثم تساءل .

— لكن لماذا لم يخبرنى بأنك حى ترزق ؟!

— من هو ؟!

— القائد .. هل نسيته ؟!

— كيف يعرف عنى شيئا أنت نفسك لم تكن تعرفه ؟! لكن إذا كنت على اتصال به فأرجو أن تبلغه سلامى !!

تجاهل صلاح كلماته التى لم يسترح لها وتساءل مرة أخرى :

— لكن إذا كان الإفراج عنك بهذه السهولة .. بل ورفع الحراسة عن المحل كما يبدو لى .. فلماذا ألقوا بك فى المعتقل ؟!

— كنت أتمنى أن أسألك هذا السؤال منذ زمن بعيد .. ويبدو أن اللحظة قد حلت الآن !

— إياك أن تتصور أننى الذى ألقيت بك فى المعتقل بسبب حقدى عليك .. فما فعلته كان يمكن لأى ضابط آخر أن يقوم به !!

— عدت إلى التشدق بأداء الواجب مرة أخرى .. لكن لماذا أنت بالذات ؟

ـــ لن تصدقنى إذا قلت لك أننى سألت نفسى هذا السؤال آلاف المرات !! لماذا كنت أنا الذى قبضت عليك وفرضت الحراسة على محلك ؟! لماذا كنت أنا بالذات الذى قبضت على مجدى الطوبجى ؟! لماذا كنت أنا بالذات الذى تم اختيارى مأموراً للمعتقل الذى يحتويك أنت ومجدى الطوبجى ؟! إياك أن تتصور أننى سعيت لهذا بدافع الحقد والتشفى !! فحياتى ومستقبلى أثمن من أن أضيعهما فى مثل هذه المشاعر التافهة الحقيرة التى لا بد أن تحرق صاحبها فى النهاية إذا لم تجد ما تحرقه !!

لم يخف سعد رنة السخرية المتعالية فى نبراته :

ـــ وبماذا تفسر كل هذا ؟!

ـــ لم أجد لها تفسيرا سوى أن الخيوط الخفية التى جمعت بيننا منذ الصبا المبكر لا تزال تربطنا سواء شئنا أم لم نشأ !!

ـــ أى أنها مسألة أقدار فى المقام الأول ؟!

ـــ يمكنك أن تفسرها هكذا .. وإلا فلنضمها إلى كل الأسئلة التى لا يزال الإنسان يطرحها على الكون دون أن يجد لها إجابة !

ـــ وهل سنظل نلتقى ونفترق هكذا فى المصائب والكوارث ؟!

ـــ علم هذا عند الله !

ثم ابتسم صلاح لأول مرة وهو يضيف :

ـــ على كل حال فلقاء اليوم ليس من باب المصائب والكوارث ! بل أشبه بالأساطير عندما يرى الإنسان شخصا يبعث أمامه حيا بعد أن ظل ـــ فى نظره ـــ فى عداد الأموات عاما بأكمله !! إنه لقاء أطفأ نارا أحرقتنى بلهيبها دون رحمة برغم ندمى الآن على ترددى كل هذه المدة خوفا وتحرجا من هذا اللقاء !!

ـــ لكن القدر لم يكن وراء هذا اللقاء ! فقد أردته وحققته !!

ـــ أرجو أن تكون ثقتك فىّ أكبر من هذا ! فأنا لا يمكن أن أعض اليد التى امتدت لى عند حاجتى إليها فى صغرى !! والحمد لله فقد عادت المياه إلى مجاريها .. وإذا حدث واحتجت لى فستجدنى دائما تحت أمرك !!

ضحك سعد بقهقهة لم تخل من تخابث :

ــ كفانا الله شرك !! فلن أحتاج إليك إلا إذا اعتقلتنى مرة أخرى ؟!

ــ ألا تعرف أننى تركت العمل فى المعتقل على نفس الطائرة التى أقلتك إلى القاهرة !! لم أجرؤ يومها أن أنظر خلفى حيث وضعت جثتك !

ــ كنت على وشك الموت فعلا .. فلم أدر بشىء . وظللت فى المستشفى فى حالة حرجة لعدة أيام .. ولولا إحساسى بدفء العائلة المحيطة بفراشى .. وزيارة أصدقائى القدامى فى الاتحاد الاشتراكى .. وإيمانهم بأننى كنت ضحية شلة المشير .. لما عدت إلى الحياة !!

ــ الآن عرفت لماذا أفرج عنك ورفعت عنك الحراسة !!

ــ كنت الوحيد فى الشوارbى الذى لم ترفع عنه الحراسة بعد تلك الهجمة التى كنت أنت بطلها !!

ــ أرجوك لا تسخر منى ! عموما فأنا أعمل منذ عودتى فى إدارة جرائم المال فى مباحث أمن الدولة .. وتحت رئاسة صديقك القائد !!

اهتز سعد بطريقة لم يتوقع صلاح حدتها فركز عليه بريق عينيه الأسود لعله يستخرج من باطنه شيئا يخفيه ، لكن سعداً سرعان ما تماسك فى بعض الحرج المتسائل :

ــ أتقصد اللواء مصطفى صقر ؟! إنه رجل لا ينسى !!

ــ فعلا .. فأفضاله علىّ لا تقل عن أفضاله عليك !

قاوم سعد اهتزازة أخرى ونظر إلى ساعته الذهبية كمن يوحى بضيق الوقت :

ــ كان يعاملنا كأب أو أخ أكبر ! لم أره منذ أن غادر المعتقل !! تحياتى الحارة إليه ! وشوق الشديد إلى رؤيته !

نهض صلاح وهو ينظر بدوره إلى ساعته :

ــ لن أضيع من وقتك أكثر من هذا .. سلامى للوالد والأسرة الكريمة !

نهض سعد ليشد على يده :

ــ مرسى .. وأية طلبات من المحل لك أو للمدام .. المحل محلك .. ونحن لدينا

من السلع ما لن تجده فى محلات القطاع العام !

ـــ شكرا !

وسحب صلاح يده واستدار ليهبط على السلم المعدنى الحلزونى حيث كانت شويكار منهمكة فى الحوار مع بعض الأنيقات اللاتى عبقن بعطرهن المكان . التفتت إليه من طرف خفى لكنه لمحها وهى تتجاهله فتجاهلها بدوره ، خاصة وأن سعداً لم يهبط خلفه لتوديعه حتى الباب .

وفى الشارع بدت الأضواء أكثر تألقا ، وجسده أخف وزنا حتى كاد أن يطير ، بعد أن كان يشعر بصخور المقطم قد حطت على كتفيه ! الآن يستطيع أن ينطلق إلى القمم وأن يدك الجبال وأن يحتوى الحياة كلها بين ذراعيه . سيعود إلى كتبه ليلتهمها حتى ينتهى من رسالته العلمية فى أقرب وقت ممكن . لن يهدأ له بال قبل أن يصبح الدكتور صلاح خلف ، فسلاح العلم هو السلاح الوحيد الذى لا يمكن أن ينتزعه من يده أحد مهما كان .

لكن قبل هذا وذاك شعر بالحنين الدافق يجرفه إلى لواحظ ووفاء . كم ابتعد عنهما بروحه طوال العام الماضى برغم وجوده معهما بجسده ! كانتا موجودتين ومؤثرتين فى حياته عندما كان بعيدا عنهما فى المعتقل ، وعندما عاد إليهما واقترب منهما وجد حاجزا يعلو ويتسع بينه وبينهما ، لم يفلح فى تحطيمه أو تحريكه أو إزالته ! لكنه الآن زال بل وانقشع كما ينقشع الضباب تحت أشعة الشمس المبهرة .

انطلقت خطاه فى سرعة خاطفة حتى ناصية شارع قصر النيل ليلقى بنفسه فى أول سيارة أجرة وقفت له لتنطلق به إلى الأحضان الحانية الدافئة بكل المشاعر التى حرم منها لمجرد أوهام سخيفة تركها ترعى فى أعصابه كما ترعى النيران فى حقل من السنابل الذهبية !

١٦

جلس اللواء صقر فى شرفة شقته العالية التى تطل على الشارع العريض المؤدى إلى مطار ألماظه . كانت شمس أواخر الخريف على وشك الغرق عند خط انطباق زرقة السماء على صفرة الصحراء ، فامتدت ظلال المبانى على الشوارع الخلفية التى يخترقها المترو بضجيج عجلاته وأبواقه . أطفأ اللواء سيجارة فى المنفضة البللورية أمامه على مائدة مستديرة صغيرة من البامبو قائلا :

ــ هذا هو ما قصه علىّ فى مكتبى بالحرف الواحد ! وعندما عبر عن دهشته لعدم دهشتى أفهمته أنه يشغل باله بأمور انتهت !

ضحك سعد العنترى فى سعادة واضحة :

ــ أفهم من كلام سيادتك أن وجودى مثل عدمى !!

شاركه اللواء الضحك الذى تحول إلى قهقهة :

ــ طبعا .. لم يخطر بباله أننى كنت أعلم كل شيء عنك منذ عودتك معه على نفس الطائرة !!

ــ لكن اسمح لى أن أتساءل عن السبب الذى جعلك تحرص على هذا الموقف !

ــ لك حق فى هذا السؤال .. كان صلاح خلف فى حاجة إلى من يوقف غروره المتصاعد .. أتذكر يوم جاء لاستلام عمله مكانى فى المعتقل ؟! حاول ادعاء التواضع لكن نبراته كانت توشى بل وكانت كلماته توحى بأنه جاء ليصلح ما أفسده الدهر شاهرا سلاح اللوائح والقوانين والأوامر والتعليمات التى لقنته فى النهاية درس العمر الذى لا يمكن أن ينساه .. والذى طال لمدة عام على عكس ما تصورت تماما .. فقد كنت أظن أنه سيواجه الأمر برمته فور وصوله إلى القاهرة ولتكن النتائج .. لكنه ظل مترددا بسبب عقدة الذنب التى أمسكت بخناقه .. وهذا أكبر دليل عملى على ضميره الحى .. فهو لم يتصور أبداً أن يكون السبب فى موت

أحد حتى لو كان بسبب اضطراره إلى أداء واجبه .. إنه شاب ذو معدن أصيل .. ولذلك بذلت كل ما فى وسعى لحمايته من الذين حاولوا أن يبطشوا به نتيجة للإضراب العام عن الطعام الذى بدأ بقيادتك يا سى سعد !

ضحك سعد وأسرع ليشعل للواء السيجارة التى وضعها بين شفتيه :

— ولذلك تركته سيادتك ينصهر فى بوتقة الإحساس بالذنب كل هذه المدة حتى يتخلص معدنه من كل الشوائب المتعلقة به ؟!

أطلق اللواء نفسا طويلا وسط ستائر الغروب الرمادية :

— المهم .. ما أخبار الشوارلى ؟!

بدت معالم الجدية فى عينى سعد اللتين مزجتا الخضرة بالزرقة بالعتمة :

— كل شىء على ما يرام ! فأنا الآن حبيب الكل !

— إياك أن يشك أحد فى تصرفاتك ! فأنت تتعامل مع تجار !

— رب ضارة نافعة .. فإن الماضى الكئيب الذى عشته .. والذى عاصروه بالفعل يمنحنى مناعة ضد الشك فى تصرفاتى ! ولذلك فأخبارهم كلها عندى !!

— مثل ؟!

— هذا هو ما جئت من أجله اليوم ! فقد اتفقت مع صاحب محل « ريفييرا » على توزيع خمسمائة ساعة من أشهر الماركات السويسرية عن طريق محلى !! وهذه الصفقة ستصل إلى مطار القاهرة بعد غد الساعة العاشرة مساء على الطائرة القادمة من بيروت .. وذلك فى حقيبتين إحداهما يحملها المضيف والأخرى المضيفة !!

وضع اللواء ساقا على ساق وهو يتابع طائرة الركاب الضخمة بضجيجها المتصاعد وهى فى طريقها إلى الهبوط فى مطار القاهرة :

— عجيب أمر هذا الشارع .. لا يعتبر بما مر به من ضربات .. فلا يزال مرتبطا بتجارة الشنطة والتهريب !

— بعض التجار يظنون الآن أن الثورة جريحة .. وغير قادرة على اتخاذ إجراءات رادعة كما كانت تفعل فى الماضى !

— هذا هو ما أسميه بالغباء التجارى .. فالأسد الجريح أخطر ألف مرة من الأسد

السليم المطمئن الواثق من نفسه !

ابتسم سعد وهو يفرغ فى جوفه بقايا الكأس :

— أظن أننى أثبت أننى أكثر إخلاصا للثورة من الذين استفادوا منها .. برغم كل ما جرى لى على يديها !

— ما جرى لك كان على أيدى آل الطوبجى وليس على يدى الثورة ! فلولا أمثال هؤلاء لما انحرفت الثورة عن طريقها الذى شرعنا فى تصحيحه بالبدء فى إزالة آثار العدوان !

تمنى سعد أن يتساءل عما إذا كان للثورة طريق محدد منذ البداية لكنه قال :

— وأرجو أن يكون لى نصيب فى الحملة الشعبية للتبرع من أجل إزالة آثار العدوان !!

— هل لك تصور محدد ؟

— أتمنى أن تكون زوجتى ضمن لجنة قصر النيل .. وأنا فى لجنة بولاق !

— الثورة ترحب بكل العاملين المخلصين فى حقلها !! ستقومون بجمع الأموال والحلى والمنقولات الثمينة التى يتبرع بها المواطنون القادرون .. أما الكادحون فخذوا منهم ما تجود به أنفسهم .. فالمعنى الأدبى لا يقل فى قيمته عن القيمة المادية .. فهى كلها رموز تدل على الانتماء !!

— سمعت أن الراديو والتليفزيون والصحافة ستتابع هذه الحملات لتشجيعها ؟

— وأيضا سيشترك معكم الفنانون والفنانات !

— تماما مثل قطار الرحمة الذى أرسلته الثورة فى بدايتها .. والذى كان بذرة مشروع معونة الشتاء !

أطلق اللواء نفسا طويلا أطفأ على أثره السيجارة :

— الرحمة ليست كلمة اشتراكية .. فالاشتراكية تعنى الكفاية والعدل .. ولا تعنى انتظار الضعفاء لرحمة الأقوياء .. أو الفقراء لعطف الأغنياء .. فالقضية قضية حق وليست رحمة !

— هذا هو ما تعلمته فى « الميثاق » ! ولا زلت أحفظه عن ظهر قلب ! والفضل

يرجع لسيادتك يوم نصحتنى بالتوجه إلى مكتبة المعتقل كى أنهل منها ؟
ــ أخشى أن يثير حماسك الشديد للثورة شكوك جيرانك فى الشواربى !
ــ اطمئن سيادتك .. فهم متأكدون من أننى لا أفعل هذا إلا لأتقى شرها !
صمت اللواء للحظات ثم فاجأه بسؤال أقلقه :
ــ هل بلغتك أخبار أو حتى شائعات عن بعض جيرانك الذين يتاجرون فى العملة .. خاصة الدولار والإسترلينى ؟!
لم يشأ أن يسأله عما إذا كان هناك عملاء آخرون له لا يعرفهم ، لكنه سرعان ما أجاب :
ــ لا .. ولا يمكن أن أتأخر عن سيادتك لحظة إذا بلغتنى مثل هذه الأخبار أو الشائعات !
ــ هل فى ذهنك علاج لهذه المشكلة ؟! أنا لا أريد أن أعالج كل شىء بالمعتقلات والإجراءات الاستثنائية !!
تسلح سعد بكل احتياطات الحذر والحرص ، فالمنطقة التى أدخله فيها اللواء وعرة وكفاه ما ناله من جروح وسقطات :
ــ ربما كان المبلغ الذى يخرج به المسافر إلى الخارج .. وهو لا يزيد على خمسة جنيهات إسترلينية أو تسعة دولارات .. لا يكفيه على الإطلاق .. مما يدفعه إلى الحصول على ما يحتاجه من العملة الصعبة فى السوق السوداء !
ــ وهل تعتقد أنه يمكن التبذير فى العملة الصعبة التى نحتاج إليها بشدة فى التسليح لإزالة آثار العدوان .. كى ننفقها على المسافرين إلى الخارج ؟!
تردد سعد ثم قال بنبرات حرجة حريصة :
ــ أنا لم أقترح شيئا .. سيادتك سألتنى فأجبت فى حدود معرفتى .. وربما أكون مخطئا .. وعموما فالرأى الأول والأخير لسيادتك !
ــ عموما سأكلف صلاح خلف للتحرى عن هذا الموضوع .. وسأرى من منكما سيسبق الآخر فى العودة بالمعلومات المؤكدة !!
دبت الغيرة فى عروق سعد عندما وجد نفسه فى منافسة مع صلاح :

ــ صلاح لا يمكن أن يصل إلى أغوار المنطقة مثلى .. فمن يعيش فيها ليس كمن يتحرى عنها من الخارج !

ابتسم اللواء فقد شعر أنه أحدث الأثر المطلوب :

ــ بلدنا فى أشد الحاجة كى نتنافس فى حبه !

ــ أرجو دائما أن أكون عند حسن ظنك !

ــ ستكون دائما طالما أنك تقوم بالمهام الموكلة إليك كما هى محددة لك !

نهض سعد ليشد على يد اللواء الذى نهض بدوره منصتا إلى كلماته :

ــ أنا فى خدمتك دائما !

ــ كلنا فى خدمة البلد والزعيم !

خرج سعد ليستقل المصعد فى حين دوى أزيز طائرة صاعدة من مطار القاهرة ليتردد صداه فى بئر السلم ، ويذكره برعد الصحراء أيام الاعتقال ، الرعد الذى كان هزيمه يملأ الآفاق دون أمطار تروى شقوق العطش !

عرف سعد العنترى الاستقرار لأول مرة فى حياته . سارت به الأمور على ما يرام ولكن ليس على خير ما يرام ! كان حنين شويكار لإنجاب طفل يومض فى عينيها الواسعتين من حين لآخر دون أن تفصح عنه ، لكنه كان خير من يفهم النظرات الصامتة فتردد معها على أشهر الأطباء الذين أكدوا خلوهما من كل الموانع الطبيعية وما عليهما سوى انتظار إرادة الله ، كذلك شعر سعد أن طاقاته الكامنة فيه أكبر وأقوى وأبعد من مجرد محل فى الشوارنى ، لكن ماذا يمكنه أن يفعل والقيود تحيط به من كل جانب ، وهو يدرك تماما أن اللواء صقر سيكون أول من يبطش به لو رصدت عيونه الخفية أى عمل تجارى له قد يراه متعارضا مع السياسة الصارمة التى فرضت على البلد لإزالة آثار العدوان ، وذلك برغم أنه يعمل عميلا له بلا مقابل ، وشارك هو وزوجته فى الحملة الشعبية لجمع التبرعات المالية والعينية ، لكن كل هذا يمكن أن يضيع فى لحظة كما حدث له من قبل .

كان كل همه أن يكبح جماح طموحه حتى لا يضيع الطمع ما جمع . فهو يعيش على مستوى راق واستطاع أن يؤمن جانبه إلى حد ما فى حين لا يزال مجدى الطوبجى نزيل المعتقل . فليحمد الله على ما حققه ، وليتذكر دائما أيام الحرية المفقودة حتى يؤكد لنفسه أن السعادة لا يذكرها الإنسان إلا عندما يفقدها ، وهو لا يريد أن يفقدها حتى لو لم يشعر بها ! كما عليه أن يتمسك بالقول المأثور لدى أبيه الذى كثيرا ما ردده : إذا لم تستطع أن تغير حالك فاترك للزمن هذه المهمة ، فدوام الحال من المحال !

وكان على سعد أن ينتظر ثلاث سنوات كاملة كاد الملل فيها أن يقتله لولا المناعة التى اكتسبها من محن السنوات السابقة .. وفى لحظة انقشع الملل مساء الاثنين الثامن والعشرين من سبتمبر ١٩٧٠ عندما أعلن أنور السادات نائب رئيس الجمهورية

وفاة جمال عبد الناصر على شاشات التليفزيون التى شدت إليها ملايين العيون الذاهلة ، والأفواه الفاغرة ، والقلوب الواجفة فى البيوت والمقاهى والأندية والشوارع ! أغلق سعد محله واصطحب زوجته إلى بيت أبيه للمشاورة فى الأمر . كان الأب الذى أنهكته أمراض السكر والضغط والقلب والنقرس حتى بدا ضئيلا فى الروب الحريرى الأحمر ، قد نضح وجهه بسعادة لم يخفها :

ـــ لو كان يفكر فى مجئ هذا اليوم لما فعل ما فعل !!

علق سعد والإثارة تجتاحه مثل مس الكهرباء فى أطرافه :

ـــ لكن هل يستطيع أنور السادات بصفته نائبا له أن يملأ الفراغ الذى تركه .. أم أن بطانة عبد الناصر لن تترك له الفرصة ؟!

أجاب الأب وقد استرخى فى مقعده :

ـــ لن يمر الأمر بسهولة .. فجذور البطانة ضاربة فى كل أجهزة الدولة .. وأعتقد أن السادات سيضطر إلى مسايرتها !

وضعت شويكار ساقا على ساق فى سروالها الأبيض الضيق :

ـــ أى أن عبد الناصر سيواصل حكمنا من قبره ؟!

التفت إليها زوجها وقد عبرت وجهه سحابة كآبة :

ـــ سيكون الأمر أسوأ !! فعبد الناصر كان يحاول باستمرار تأكيد كيانه المستقل عن السوفييت حتى وهو فى أشد لحظات احتياجه إليهم .. بدليل ندائه إلى الرئيس نيكسون فى عيد العمال الماضى كى تدخل أمريكا عضوا فعالا فى حل المشكلة .. وهو النداء الذى أدى إلى مبادرة روجرز ووقف إطلاق النار على جبهة القناة حتى الآن ! أما بطانة عبد الناصر فلن تجد أمامها سوى الارتماء فى أحضان السوفييت .. وبالتالى لن يرحمنا الشيوعيون .. فهم لا يعرفون سوى المعتقلات والتأميمات والسجون والمصادرة ؟

افترشت وجه الأب الشاحب ابتسامة واهنة :

ـــ لكننى لا أعتقد أن السادات سيقف مكتوف الأيدى حتى النهاية .. فتاريخه السياسى قبل الثورة .. وتخطيطه لاغتيال أمين عثمان .. وعلاقته بالسراى والحرس

الحديدى .. واستمراره إلى جوار عبد الناصر دون صراعات .. على عكس معظم أعضاء مجلس قيادة الثورة .. بدليل أنه كان آخر من وقع عليه اختيار عبد الناصر يكون نائبه .. كل هذا وغيره يدل على أن السادات رجل نابه زارق !

انتقلب عدوى الابتسامة إلى وجه الابن :

ـــ أرجو هذا .. لأنه لو نجح السادات فى السيطرة على الأمور .. فسوف يمنح أمريكا دورًا أكبر فى مصر .. خاصة أن عبد الناصر نفسه مهد له الطريق بقبوله مبادرة روجرز !

أزاحت شويكار خصلاتها من على جبينها :

ـــ لكن لا تنس إسرائيل القابعة على الضفة الشرقية للقناة !! لن تجعل أية خطوة لمصر بالسهولة التى قد نتصورها !

لم تنقشع الابتسامة الذابلة من على وجه الأب :

ـــ إن غدا لناظرة قريب ! المهم ماذا سيكون موقفكم أنتم ؟!

بادلته شويكار الابتسامات الرقيقة :

ـــ تعلمنا من حضرتك الحرص قبل أية خطوة نقدم عليها !

أضاف إليها سعد :

ـــ لن نقدم على شىء إلا إذا اتضحت الأمور .. المهم الآن .. كيف سنشارك فى جنازة عبد الناصر لنمسك العصا من النصف ؟!

ركز الأب عينيه الخابيتين على وجهه :

ـــ أخشى أن يصبح النفاق جزءا من طبيعتك !

ربت الابن على يده المعروقة فوق مسند المقعد الوثير :

ـــ أليس هذا هو الحرص الذى علمتنا إياه ؟!

أضافت شويكار :

ـــ لو قلنا ما فى قلوبنا لقضى علينا منذ زمن بعيد !

نهض سعد وقد نضحت نبراته بمنتهى الجدية :

ـــ سأترك شويكار عندك يا بابا .. وسأذهب الآن إلى الاتحاد الاشتراكى لأعرف دورى فى جنازة أعز الرجال على حد قول أنور السادات فى تأبينه له !

ابتسموا والأب يقول :

ـــ مع السلامه يا بنى !! كن حريصا ومحايدا مثل صلاح خلف ! فليس من المصلحة أن تراهن على حصان لم تعرفه بعد !

وفى جنازة عبد الناصر كان سعد يبكى كمن مات أبوه ، وأظهر شهامة ووفاء لدرجة أن اللواء صقر شك فى أن تكون حركات سعد مجرد تمثيلية يواصل بها ظهوره على مسرح الثورة حتى لو كان بين الكواليس .

انتهى يوم الهول الذى جرت فيه الملايين الخمسة خلف جثمان عبد الناصر حتى المسجد الذى خصص له ، ليبدأ الصراع الخفى بين أنور السادات وبطانة عبد الناصر . وواصل سعد تصنته وتتبعه لجولات الصراع منذ تولى السادات رياسة الجمهورية ، وخاصة فى جلساته مع اللواء صقر الذى لم يسترح لسلوك صلاح خلف الذى تميز بالحياد والسلبية على أساس أنه يؤدى واجبه على خير وجه دون أية ميول سياسية من أى نوع . بل إنه صارح اللواء بأنه مجرد خادم فى الجهاز الحكومى وما عليه سوى تنفيذ الأوامر وتطبيق اللوائح . وكان اللواء الذى رقى إلى وظيفة نائب وزير الداخلية بفضل علاقته الوثيقة بعلى صبرى وشعراوى جمعه قد ألقى بكل ثقله إلى المعسكر المناهض للسادات الذى كان فى نظره مجرد مرحلة عابرة أو قنطرة مؤقتة سرعان ما ينتهى دورها ليستأنف القادة الحقيقيون خوض معركة إزالة آثار العدوان !

أدرك سعد قيمة نصيحة أبيه بالتمثل بصلاح خلف فى حرصه وحياده ! فقد كان كرس الحكم يهتز بعنف بين شد وجذب ، ومن المستحيل التنبؤ بالنتيجة النهائية . صحيح أن هناك رئيسا رسميا للجمهورية يشغل المنصب لكن أحد لا يعلم أين مصدر القرار الفعلى! ولذلك خفض سعد من تردده على اجتماعات الاتحاد الاشتراكى التى انتقل إليها الشد والجذب سواء فى اللقاءات العلنية أو الأحاديث

الجانبية أو المكالمات التليفونية أو الندوات العقائدية أو المحاضرات التثقيفية ، وكأن انفجارا وشيكا أو انقلابا مصيريا سيقع !

أحاط سعد ساقه بالجبس واعتكف بالمنزل تاركا شويكار بمفردها فى المحل حتى لا يبدو متهربا سواء من اللقاءات الخاصة مع اللواء صقر أو الاجتماعات العامة فى الاتحاد الاشتراكى ، وحتى يأمن شر اللواء الذى أكد له أن التنظيم الطليعى غير راض عن حياد صلاح خلف وسلبيته ، وأنه سيبطش بكل الذين يحاولون مسك العصا من النصف بدعوى ترك السياسة لأهلها ! ولذلك أبدى سعد أسفه الشديد على الكسر الذى أصاب ساقه ، وشوقه الشديد كى يلتئم شمله بالزملاء المكافحين من أجل إزالة آثار العدوان ! لكنه فى أعماقه كان يتمنى انتصار السادات بصفته عدوا تاريخيا للسوفييت والاشتراكية ، وإن كان أمله ضعيفا إذ بدا السادات فى حلبة الصراع وحيدا فى مواجهة الجيش والداخلية والخارجية ومجلس الأمة والاتحاد الاشتراكى بطبيعة الحال . وبصرف النظر عن الأمانى فقد استعد سعد بالزى الفكرى والسلوكى لكل من الفريقين ، بحيث يكون أول من يرتدى زى الفريق الفائز فى نهاية الجولات !

وفى الخامس عشر من مايو ١٩٧١ فتح سعد عينيه على واقع أجمل من أى حلم ! أمسك السادات بكل مقاليد الأمور فى يده ووضع كل خصومه فى السجن انتظارا للمحاكمة ، بما فيهم اللواء مصطفى صقر الذى قبض عليه مع شعراوى جمعه بمجرد وصول ممدوح سالم من الإسكندرية إلى القاهرة لتولى وزارة الداخلية . وبعد مرور أربع وعشرين ساعة تأكد سعد أن المعركة حسمت فنشر فى الصحف الثلاث إعلانا على ربع صفحة يهنىء فيه السادات بالقضاء على مراكز القوى وبحركة التصحيح التى قادها من أجل إعادة الثورة إلى مسارها الصحيح من أجل الحرية والديمقراطية والرخاء بعد إزالة آثار العدوان . وسرعان ما وصلته برقية شكر من مكتب الرئيس على تأييده الحار لحركة التصحيح ، فعلقها فى إطار مذهب داخل الواجهة الزجاجية للمحل أما داخله فقد تصدرته صورة ضخمة للسادات .

انتظر سعد التغييرات المتوقعة لكن السادات بدا عاجزا عن تنفيذ عام الحسم

الذى نادى به ، إذ وقف له السوفييت بالمرصاد برغم معاهدة الصداقة التى أسرع بودجورنى لتوقيعها معه . وظل الموقف متجمدا على القناة حتى فوجئ العالم بقنبلة السادات الثانية بإنهاء مهمة الخبراء السوفييت فى مصر وترحيلهم إلى بلدهم فى ظرف أسبوع . عندئذ أدرك سعد أن السادات كالحاوى المقتدر لا تخلو جعبته من حيل ومفاجآت مهما بدا خاوى الوفاض ، وأنه يدير الدفة بمهارة تجاه هدف حدده بدقة وإن بدت حركاته عشوائية . وكان على سعد أن ينتظر مرة أخرى حتى يتبلور هذا الهدف الذى يترقبه بشغف !

لكن صبر سعد كاد يفرغ لولا أن ألقى السادات بقنبلته الثالثة فى السادس من أكتوبر ١٩٧٣ ، وإذ بالجيش المصرى يعبر قناة السويس ويخترق خط بارليف ، وتدور رحى المعارك ومعها عجلة الزمن المحمومة ، وسعد بين قمة الأمل وقاع اليأس عندما وقعت الثغرة واخترق الجيش الإسرائيلى القوات المصرية عند الدفرسوار متوغلا فى الضفة الشرقية حتى أحكم الحصار حول السويس ! فقد ظن سعد أن رهانه على السادات كان خاسرا ، وندم على حماسه المفرط له ، وإصراره على نشر تأييد وتهنئة له فى الصحف الثلاث فى كل مناسبة ، خاصة عند طرده للخبراء السوفييت وإصداره قرار حرب أكتوبر . فما الذى يمكن أن يحدث له لو استمر حصار السويس ؟! لا بد أن النظام كله سينفجر من الداخل ويختلط الحابل بالنابل ويهرع أعداؤه ليحلوا دمه ، وهو بعد لم يستفد من كل هذا التأييد العلنى المفرط !! هل تعجل فى اندفاعه لدرجة التهور لمجرد التعلق بأمل كاذب أو وهم خادع ؟ هل يمكن فعلا الاعتماد على أمريكا التى فتحت ترسانة أسلحتها لإسرائيل وأقامت جسرا جويا بينها وبين قواعدها فى ألمانيا الغربية لكى تهبط كل ساعة فى مطار اللد طائرة نقل عملاقة من طراز جالاكسى تحمل على متنها أربع دبابات من طراز م ٦٠ تحمل تموينها من الوقود كى تشارك فى ميدان القتال على الفور ؟! هل يمكن أن تقضى أمريكا على السادات الذى مد إليها يده أكثر من مرة سواء فى السلم أو الحرب ؟! وماذا سيكون موقف كل الذين يحلمون بالدور الأمريكى فى المنطقة ؟! خيبة أمل ما بعدها خيبة أمل ؟! فقد بدا وقف إطلاق النار فى نظر

سعد ـــ تكريسا للخيبة الجديدة التى سرعان ما تنفجر بحمم منصهرة لن يعرف كى ينجو منها !

وفجأة عاد السادات الحاوى القدير ليخرج من جرابه أعجوبة جديدة ، وإذ بهنرى كيسنجر وجوزيف سيسكو يزوران المنطقة للاتفاق على مباحثات فض الاشتباك الأول ، بل وتعود العلاقات الدبلوماسية بين مصر وأمريكا ، ويجرى احتفال يرتفع فيه علم الولايات المتحدة على السفارة الأمريكية فى القاهرة ليخفق ويخفق معه قلب سعد العنترى الذى لم يكن يتصور أبدًا أن تلجأ مصر لحل مشكلاتها لدى الدولة التى مكنت إسرائيل من فتح الثغرة واختراق الجبهة وحصار السويس . لكن الواقع كان يؤكد أن عين السادات لا تحيد أبدًا عن هدفها الاستراتيجى مهما تفرعت بها الطرق إليه ! إنه منذ أن تولى وهو دائب السعى إلى بلاد العم سام حيث جنة الحرية والازدهار والديمقراطية والرخاء ! فحتى قبل حرب أكتوبر فتح السادات أبواب السفر إلى الخارج وألغى تأشيرة الخروج ، وأصبح تردد الطلبة على أوروبا وأمريكا فى الصيف أمرًا عاديا للغاية حتى يتمثلوا النموذج الأوروبى الأمريكى ويحذوا حذوه !

والآن تم فض الاشتباك الثانى تحت إشراف أمريكا أيضا ، وحصلت مصر بالمفاوضات السلمية على كل الأراضى التى تمتد حتى خط المضايق فى سيناء دون إراقة نقطة دم واحدة . واستقرت الأمور ليفتح السادات المعتقلات ويفرج عن كل المعتقلين وهو يعد بغلقها إلى الأبد ، وليعلن سياسة الانفتاح التى غمرت سعدًا بنشوة لم يستشعرها فى حياته من قبل ، وأصبحت أول أيديولوجية سياسية واقتصادية واجتماعية يعتنقها سعد بمنتهى الإخلاص والتفانى بعيدا عن المظاهرات المسرحية التى أتقنها منذ أيام تبشيره «بالميثاق» فى لجنة الدعوة والفكر. ولذلك عندما أصدر السادات « ورقة أكتوبر » فى الخامس عشر من مايو ١٩٧٤ هرع سعد إلى التبشير بها وكله إيمان راسخ عميق هذه المرة بكل كلمة وردت فيها ! فما أروع أن تساند الأيديولوجية السياسية والاقتصادية والاجتماعية مصالحه الشخصية والأسرية كى يعوض بها كل ما ضاع منه منذ وضعه تحت الحراسة وإلقائه فى

المعتقل !

وجد سعد فى أخيه فاروق وأخته فايزة اللذين يعملان بالتدريس فى الكويت منفذا طبيعيا لجلب العملة الصعبة لتوظيفها فى مصر . درس الموضوع من كل جوانبة معتمدا على أن العامل المصرى فى الخارج يهمه الحصول على أكبر فائدة من مدخراته . ومن خلال أخيه وأخته وزملائهما المصريين فى الكويت والخليج وثق سعد علاقاته بالعاملين المصريين هناك والذين لا يرضون بسعر الفائدة المعروض على أموالهم المحولة . كان كل واحد منهم يفاضل بين تحويل أمواله بسعر كذا أو شراء سلع يتصرف فيها بالبيع بعد وصوله إلى مصر؟! كان السعر هو الفيصل فى ظل الثقة والأمان ! من هنا عرض سعد أسعار فائدة أفضل من تلك التى تعرضها الحكومة عن طريق الصيارفة العرب ، ونجح فى كسب الثقة التى افتقدها العاملون فى البنوك الرسمية من كثرة التدخل فى أعمالها وتعديل قوانينها بصفة مستمرة ، خاصة وأن سعد العنترى اشتهر بصفته « ملك الشوارلى » من خلال علاقاته الوثيقة بتجار الجملة والقطاعى على حد السواء !

بدأ خطواته الأولى ببعض آلاف بسيطة من الدولارات تأتيه من أصدقاء أخيه وأخته فى الكويت والخليج ، يودعها لهم فى البنوك أو يوظفها لهم فى مشروعات استثمارية . ومع الأرباح الحقيقية والفوائد المجزية التى عادت عليهم بالفعل ، جعلوا منه وكيلاهم فى مصر ، يشترى لهم الشقق والعقارات إذ كان يملك حق السحب والإيداع فى حساباتهم . وبدأت الأموال تتدفق عليه ، ونشاطه يتسع ويتزايد ، وتعامله يأخذ أشكالا متعددة منها مثلا إيداع أموال المصريين العاملين فى الكويت معه مقابل عائد مجز . وقد كانت هذه الحصيلة بمثابة الجزء الأكبر من تعامله الآخذ فى الاتساع والشمول ، فمنه ساعد الشركات والمؤسسات التى كانت فى حاجة للعملات الأجنبية بحيث أصبح بعضها لا غنى له عنه .

أما الخطوة التالية فتمثلت فى استقباله تحويلات البعض بالعملة الحرة فى مقابل الجنيه المصرى ، ثم يقوم بإيداع المقابل فى حساب خاص بهم أو يسافر إلى القرى والنجوع ليسلمه لأهلهم ، سواء بنفسه إذا كان المبلغ ضخما أو من خلال مجموعة

قليلة من الأصدقاء والمساعدين إذا كانت مبالغ عادية . وأصبح مركز ثقل أو جذب تتمنى البنوك أن تتعامل معه للمبالغ الضخمة التى يودعها فيها ، ولأول مرة فى حياته يضع شروطه ويفرضها بعد أن كان دائما تحت رحمة شروط الآخرين . فاشترط مثلا أن يعمل من مكتب مدير البنك ذاته ! و لم يكن أمام مديرى البنوك سوى الموافقة بل والرضوخ أو الترحيب بالأحضان ! فاستخدم أجهزتها وموظفيها،وبدا اسمه يلمع وتفتحت أمامه العجائب والغرائب من أساليب التعامل فى المجال المصرفى فى عصر أسماه بالعصر الذهبى ، وكان دائما يتندر أنه فى عصر السادات صنع فى ثلاث سنوات ثروة تزيد ثلاثين ضعفا عن تلك التى كونها أبوه فى ثلاثين سنة فى عهدى فؤاد وفاروق!!

غير سعد محله فى الشواربى إلى مكتب تجارى لعقد الصفقات وإجراء المفاوضات ، إذ أن الأزياء وأدوات الزينة لا تليق الآن به بصفته أحد كبار رجال الأعمال الذين يقضون بعض سهراتهم مع الرئيس السادات شخصيا سواء فى القناطر الخيرية أو الجيزة أو المعمورة أو برج العرب أو كنج مريوط ، فى حين أن أباه دعى ذات مرة لحفل زفاف الأميرة فايزة ، وظل يكرر رواية ما حدث فى تلك الليلة الساحرة بمناسبة وبدون مناسبة وكيف انحنى ليقبل يد الأميرة مهنئا سموها بالزفاف الملكى العظيم ، وكيف شاهد الملك فاروق فى حديث مع أمه الملكة نازلى وأحمد باشا حسنين والكؤوس البللورية والذهبية تتلألأ فى أيديهم . أما فى المرة التى منحه فيها الملك فاروق لقب البكوية بعد أن دفع لبولى — خادم الملك — خمسة آلاف جنيه فقد دعى إلى حفل فى قصر عابدين أقيم على شرف الملك عبد العزيز آل سعود فى يناير ١٩٤٦ ، وفى أثناء الحفل قدمه إليه على باشا ماهر رئيس الديوان الملكى فرحب به جلالته قائلا :

— أهلا .. عنترى بك !

ومنذ تلك الليلة التاريخية الخالدة ظل يحمل لقب البكوية حتى أغسطس عام ١٩٥٢ حين ألغت الثورة كل الألقاب ، ولكن ظل كثيرون ينادونه باللقب علانية فى بعض الأحيان وخفية فى معظم الأحيان باعتبار ما سبق من أمجاد غاربة . لكن

أباه كان حزيناً لأن اللقب أصبح مجرد تلطف أو تعطف من الآخرين ، وليس فرضا عليهم بأمر جلالة المليك المعظم ! ومع ذلك ظل يحكى تفاصيل ذلك الحفل الملكى بكل لمحاته وومضاته دون ملل أو كلل حتى الآن !

أما سعد الآن فهو الصديق الشخصي الحميم لمن يجلس الآن فى مكان الملك فاروق ، ويحاول التشبه به فى الأناقة والأرستقراطية ، ويراه هو وزوجته سيدة الأعمال الجميلة الجبارة ، نموذجا للشباب الواعى الناجح الذى لم ينتظر بلوغ الميرى ليتمرغ فى ترابه . وكان سعد يدرك جيدا مدى نفوذ هذه السيدة ، ولذلك لم يكن يتأخر مطلقافى تقديم أية قروض لمشروعاتها الضخمة المتعددة دون أن يستفسر — مجرد استفسار عن أوجه استخدامها ، بل إنه لم يفكر أبدًا فى استردادها . وكيف يفعل هذا وهو الذى أقرض القوات المسلحة مليونى دولار بسعر تسعين قرشا للدولار قائلا عنها بفخر للسيدة الأولى :

— كانت الصفقة بدافع وطنى .. كنت سعيدا بها برغم أننى لم أكسب منها !! كان تعاملى على أساس أن الجيش هو الحصن الحصين للدفاع عن الأرض والشرف .. ولذلك لم أسأل حتى مجرد سؤال عن المجالات التى استخدم فيها القرض !

و لم تكن الصفقة بالشيء الكثير على سعد الذى أصبح يملك إمبراطورية تشتمل على عدة شركات للسياحة والملاحة والنقل والتصدير والاستيراد والمقاولات واستصلاح الأراضى والمنتجات الغذائية والملابس وأدوات الزينة والروائح العطرية . وكثيرا ما كان يتذكر الماضى بسعادة بالغة إذ اكتشف أن معدنه الحقيقى انصهر فى بوتقة المحن التى مر بها ، وأصبح أكثر صلابة ومرونة فى الوقت نفسه ! أين صلاح خلف منه الآن برغم حصوله على الماجستير واستعداده للدكتوراه ، وهو صاحب الإمبراطورية الذى لم يحصل على الثانوية العامة ؟! لقد عادت الفوارق كما كانت قبل الثورة بل وأكثر اتساعا وعمقا بينهما ، فأصغر موظف عنده يحصل على راتب أكبر من راتب صلاح خلف ! أما مجدى الطوبجى فقد أفرج عنه أخيرا ولا بد أنه خرج ضائعا هائما على وجهه ، إذ أنه خرج إلى عالم

جديد كل الجدة ولا يمت إلى دنياه القديمة بصلة ! فأين هما منه الآن وهو الذى يوشك أن يتوج الإمبراطورية العنترية — كما يحلو لها أن يسميها — بإنشاء « بنك الثقة والخبرة » الذى سيركز فيه كل تعاملاته المالية والتجارية المتناثرة بين مختلف البنوك ، وحتى يحتفظ بالأرباح والفوائد وفروق الأسعار لنفسه ؟! وفيه أيضا يجمع بين أهل الثقة وأهل الخبرة الذين فصل عبد الناصر بينهما !!

لكن الطوفان الذهبى لم يمنعه من تدعيم إمبراطورية المال بلعبة السياسة ، إذ كان من أوائل الأعضاء والمؤسسين للحزب الوطنى الديمقراطى برغم حماسة أبيه للانضمام لحزب الوفد الجديد . فقد انتهى عهد العنتريات الوفدية التى عفا عليها الزمن ، وهلّ عصر المصالح العنترية التى أصبح فيها الدولار سيف الفارس الجديد ، يفعل به الأعاجيب التى يعجز عنها سيف عنتر بن شداد وأبى زيد الهلالى ! فقد وضع سعد كل إمكاناته المالية فى خدمة الحزب ولجانه واجتماعاته ، بل وكان يرسل سياراته المرسيدس الفاخرة لنقل الأعضاء إلى أى اجتماع فى أى مكان فى الجمهورية ، بل واشترط فى كل العاملين فى إمبراطوريته أن يكونوا أعضاء فى الحزب الوطنى الديمقراطى . هذه اللفتات وغيرها جعلت منه الابن البار والمفضل لرئيس الحزب بحيث أصبح فى مقدمة المدعوين لحضور المناسبات القومية أو العائلية مثل زواج أنجال الرئيس الذى توجه فى نهاية الأمر بتشريفه بالاشتراك فى رحلاته أو رحلات كبار المسئولين إلى الخارج ، وخاصة إلى الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا الغربية .

لكن يبدو أن السعادة الإنسانية لم ولن يكتب لها الكمال ! كانت هناك مشاعر غامضة كامنة فى أعماقه تخيفه دائما من السرعة المذهلة التى دارت بها عجلة الزمن تمكنه من تحقيق ما يبدو له حتى الآن من عالم الأحلام برغم يقينه أنه واقع تدركه الملايين فى مصر والعالم العربى بل والعالم الخارجى قبل أن يدركه هو ! هل سيستمر اندفاع العربة هكذا كالصاروخ إلى مالا نهاية ؟! هل سيظل الطريق مفتوحا أمامها هكذا لتنهبه نهبا دون أن يبرز عائق مفاجئ يمكن أن يجعلها حطاما فى صدام مروع ؟! هل يمكن أن يؤدى النجاح الكاسح إلى نفس مشاعر القلق والتوتر والخوف الناتجة عن

الفشل القاتل ؟! إنه يحاول الآن أن يبطئ بعض الشيء من سرعة العربة التى تذكره بسرعة قطار الثورة فى أعوامها الأولى ، لكن يبدو أن قوة الدفع أعتى من أن تقاوم بحيث أصبح منقادا للعربة لا قائدا لها ، وعاجزا عن التأمل وحساب نفسه من حين لآخر كما كان يفعل أيام المعتقل حين كان التأمل والتخيل والتفكير سلواه الأولى والأخيرة !

كذلك فإن الحياة التى أغرقته فى طوفان الثروة التى لم يعد قادرا على أن يحصيها ، حرمته من نعمة الإنجاب ولو طفل واحد يرث هذه الإمبراطورية ! صحيح أن معظم العاملين فى شركاته ومؤسساته من أسرته وأسرة شويكار وفى مقدمتهم أخوه وأخته اللذان عادا من الكويت ليواصلا الفتح المبين الذى بدآه معه ، لكن ابنًا من صلبه ويحمل اسمه ويواصل أمجاده ، قضية مختلفة تماما ، فهل يمكن أن تفاجئه شويكار فى يوم قريب بأن جنينا من لحمها ودمها قد بدأ يتحرك فى أحشائها خاصة وأن الأطباء أكدوا لهما أنه ليس هناك ما يمنع ذلك ؟! هل هذا بالشىء الكثير عليه وهو الذى يأذن باستمرار بصرف علاوات ومنح استثنائية للعمال والسعاة والموظفين فى شركاته ومصانعه كلما رزقهم الله بمواليد جدد مصحوبين بالشكوى التقليدية من كثرة العيال ؟!

سار مجدى الطوبجى على الطوار يقدم قدما ويؤخر أخرى . ما هذا الدافع الغامض الذى يلح عليه للقائها بعد كل ما تسبب فيه من نذالة لا يمكن أن تنسى ؟! هل يمكن أن يسفر هذا اللقاء ـــ إذا تم ـــ عن شيء جديد ؟! إنه يؤمن فى قرارة نفسه بعدم جدوى اللقاء ومع ذلك لا بد أن يتم بطريقة أو بأخرى ! حتى يتخلص من وطأة هذا الدافع الممض !

توقف أمام العمارة القديمة العريقة ورفع عينيه إلى الشرفة التى شهدت أيام الخطبة القصيرة . أسرع بالدخول والقفز على درجات السلم الرخامية محاولا التغلب على ما يعتمل داخله حتى وقف أمام الباب الخشبى الضخم بشراعتيه اللتين لم يخف زجاجهما الإنجليزى الضوء المنبعث من الداخل والذى بدا خافتا فى مواجهة نور العصر الذى يفترش جدران السلم . ضغط على زر الجرس عدة مرات قبل أن تفتح الشراعة ويبدو خلفها وجه هند التى نظرت إليه لحظات خاطفة وكأنها لم تستوعب وجوده ثم اتسعت عيناها السوداوان فاضطر إلى قطع حبال الصمت المشدودة بعنف ، بكلمات فضحت خنوعه ومذلته :

ـــ لن آخذ من وقتك أكثر من ربع ساعة ! هناك أشياء لا بد أن أقولها لك فهى من حقك !

أوشكت على غلق الشراعة :

ـــ ليس بيننا أى شيء يقال !!

ـــ لم أعهد فيك سوى كرم الأخلاق ! لن تطرديني قبل أن أفضى إليك بما أريد حتى أخلص ضميرى مما يثقله !

ترددت للحظات وهى تتأمل نظرات الاستعطاف التى غطت سمرة وجهه بمسحة من الانكسار ، ففتحت له الباب ليدخل مباشرة إلى الصالون الذى شهد

أحر قبلات الخطبة الملتهبة كلما خلا لهما الجو . ظل واقفا حتى فتحت باب الشرفة المطلة على مترو مصر الجديدة الذى لا يتوقف عن صرير عجلاته وضجيج أبواقه أبدًا . افترش ضوء الغروب بعض مقاعد الصالون المذهب الفاخر وهى تجلس إلى جوار الباب فجلس بدوره قبالتها وهو يقول متأملا أناملها الخالية من خاتم الزواج :

— ما فعلته معك كان الخسة بعينها .. وكل ما أطلبه وأرجوه منك أن تسامحينى حتى أسامح نفسى !!

— ما فعلته مضى عليه أكثر من عشر سنوات ! وقد نسيته تماما كأنه لم يكن !

حك شاربه الدقيق الذى نبتت فيه بعض شعيرات بيضاء بأصابع متوترة مشدودة :

— لكننى لم أنسه لحظة واحدة حتى كاد الإحساس بالذنب أن يقتلنى !

— حاول أن تنساه ! فكل شىء راح لحاله !

— برغم العقاب الذى حل بى وأضاع تسع سنوات من عمرى .. لم أستطع أن أسامح نفسى !

تململت فى جلستها ناظرة إلى ساعة يدها وكأنها تنهى المقابلة :

— على كل حال .. إذا كان هذا هو الذى جئت من أجله .. فقد سامحتك .. وإن كان الله هو الذى يسامح !

— وكيف حال بابا وماما ؟! أرجو أن يسامحانى هما أيضا !!

— بابا فى لندن للعلاج ومعه ماما !!

— وأنا بابا أيضا فى مايو كلينك للعلاج وفى صحبته ماما !

ران صمت فأعادت هند النظر إلى ساعتها وهى تهز ساقيها بعصبية فى البنطلون الأسود الضيق لكنه أسرع إلى القول بنبرات لم تخل من ارتعاشة :

— لن أضيع من وقتك أكثر من هذا .. لكننى لم أجد غيرك ألتمس عنده النصيحة والمساعدة .. فقد وجدت نفسى غريبا فى دنيا غريبة بعد الإفراج عنى .. الأصدقاء أو الزملاء إما رحلو أو هاجروا أو استقالوا أو انتقلوا للعمل بالخارج .. لم أر سوى وجوه جديدة لا أعرفها ! والقاهرة أصبحت أكثر ازدحاما لدرجة

لا تطاق .. وحاولت تلمس وظيفة مناسبة لكن الكل تبرأ منى وكأننى وصمة .. بحيث لم يصبح أمامى الآن سوى الهجرة أو الانتحار الذى لم يتأجل إلا بسبب مبلغ لا بأس تركته فى دفتر توفير وبعض شهادات الاستثمار التى تضاعفت فى غيبتى . لكن سرعان ما سينفذ المبلغ لأجد نفسى بلا حول ولا قوة فى عالم لم يعد يعترف إلا بالقيمة المادية للبشر !

كم تغيرت يا مجدى!! لم تتوقع أبدًا أن يدور الزمن دورته ليجعلك تندب حظك كالعجائز !! أين جبروتك وكبرياؤك ووزارة الخارجية التى كانت فى انتظارك ؟! دست على كل الذين تصورت أنهم وقفوا فى طريقك نحو المجد السياسى والمستقبل المشرق ! فأين أنت الآن من كل هذا ؟! انتهى مجدى الطوبجى ولم يعد أمام هند سوى حطام عجوز فى الخامسة والثلاثين من عمره . لم تتململ هذه المرة بل تساءلت فى دهشة :

ـــ وأنا ؟! ماذا أستطيع أن أفعل لك ؟! فأنا أعمل بتدريس اللغة الإنجليزية فى مدرسة خاصة منذ تخرجى فى قسم اللغة الإنجليزية الذى عدت إليه لإكمال دراستى .. واكتشفت أن الدروس الخصوصية هى الدخل الفعلى لمعظم المدرسين .. أما المرتب فلا يسمن ولا يشبع من جوع ! وأنا لا أستطيع أن أحول شقة بابا إلى مدرسة بعد الظهر .. ولا أستطيع فى الوقت نفسه أن أتردد على شقق التلميذات لتسول الدروس !!

ابتسم مجدى بمرارة محفورة بين تجاعيد وجهه :

ـــ طبعا سمعت وقرأت عن سعد العنترى الذى تملأ أخباره الدنيا كلها ؟! من كان يصدق بعد أكثر من ربع قرن من الثورة أن تعود هذه الطبقة إلى السيطرة على مقاليد الأمور فى البلد .. وأن نعقد صلحًا مع إسرائيل بهذه البساطة ؟!

انفتحت شهية هند للحوار :

ـــ لو اقتصر الأمر على هذه الطبقة لما كانت هناك مأساة .. فهى فى النهاية طبقة ذات جذور وأصول وقيم !! المأساة الحقيقية تتمثل فى صعود طبقة جديدة بلا قيم على الإطلاق .. وتلعب بالثروات التى لا نعرف لها مصدرا واضحا ومحددا وشريفا

فى ظل الانفتاح !

— وأين هى قيم طبقة سعد ؟! إن الدفاع عنها يعنى أن أباك وأبى أهدرا حياتهما فى الثورة بلا طائل !!

نظرت إليه بتفحص جعله يدرك أن الأيام قد غيرتها تماما وجعلت منها امرأة صلبة واعية تعرف حدود كلماتها ومسار خطواتها :

— لو طلبك سعد العنترى للعمل معه فى إمبراطوريته .. هل سترفض ؟

أصابته فى مقتل وهو الذى يكاد يختنق إفلاسا لكنه قاوم :

— هذا فرض مستحيل بعد كل ما جرى بينى وبينه ؟!

— فى هذا الزمن كل شىء أصبح ممكنا ومحتملا ! فالقط يمكن أن يعيش مع الفأر .. والأسد يمكن أن يلعب مع الغزال !

لم يتصور أنها أصبحت امرأة ناضجة بهذا الشكل لدرجة إصدار مثل هذه الأحكام الفلسفية على الزمن برمته !! كم تغيرت الدنيا وهو فى معزل عنها بين أسوار المعتقل ؟! إنه لا يزال يردد شعارات قديمة كالببغاء ويدور فى فلك أفكار أصبحت بالية بل ومثيرة للسخرية وكأنه قادم من زمن آخر كأهل الكهف ! هل يمكن أن يتغير المجتمع بأسره هكذا فى فترة تقل عن عشر سنوات ؟! وما السنوات العشر سوى لحظة خاطفة عابرة فى عمر الشعوب ؟! فما هذا الذى فعلته بالشعب المصرى ؟! هل يمكن أن تغير الشعوب جلدها هكذا كالحرباء ؟! فإذا أراد الزعيم أن يدهن لها جلدها بألوان الاشتراكية الجادة القاتمة تركت له جسدها يفعل به ما يحلو له ، وإذا أراد أن يلبسها أثواب الرأسمالية المزركشة المتبهرجة ذات الألوان الفاقعة فهى رهن إشارته فى التو واللحظة ؟! أليس لهذا الشعب رأى فيما يجرى له ؟! أم أن عليه أن يترك نفسه للموجة سواء رفعته إلى قمتها أو هبطت به إلى قاعها ؟! هل كانت أحداث ١٨ و ١٩ يناير مجرد استثناء من القاعدة بعدها عادت ريمة إلى عادتها القديمة ؟! هل الثورة التى عاش طول عمره فى رحابها كانت استثناء هى الأخرى وعليه أن يعود إلى القاعدة سالما ليتعرف على قواعد اللعبة الجديدة أو القديمة حتى لا يتحول إلى متفرج أبله كل ما يستطيع أن يفعله هو أن يفغر فاه فى

مواجهة هذا الإيقاع اللاهث بعد الإيقاع الميت الذى عاشه أيام الاعتقال ؟! لكن كيف ؟! كيف ؟! وهو الذى لا يملك سلاحا واحدا لخوض هذه المعركة بعد أن كان يملك كل الأسلحة الممكنة وغير الممكنة فى الماضى ؟!

لا حظت هند شروده الصامت فداهمته بسؤال :

ـــ هل تفكر بالفعل فى الالتحاق بالعمل عند سعد ؟! أكبر المسئولين وأخطرهم الآن يعملون معه أو عنده !!

ماذا تريد هند على وجه التحديد من إصرارها على ذكر سعد ؟! هل تريد إذلاله بتذكيره بالذى مضى ؟! استعاد دهاء الماضى :

ـــ إذا كانت لديك وساطة فلن أرفضها ! فلم أعد أملك رفاهية الرفض ! والمضطر يركب الصعب !

ـــ لو كانت لدىّ هذه الوساطة لما تأخرت عن استخدامها ! على الأقل أتخلص من عذاب التدريس وأحصل على مرتب من مرتبات الانفتاح التى تساوى عشرة أضعاف مرتبى الحالى !

ـــ هل تريدينني أن أذهب إليه بنفسى حتى أستجدى فيتشفى فىّ بطردى كأحقر متسول ؟! آسف ! فلازلت أحتفظ بكرامتى برغم كل ما فعله الزمن بها !

أضاءت فكرة خاطفة فى ذهن هند لتفعل به ما يفعله البرق بالليلة الظلماء ! دوت الفكرة داخلها دويا كهزيم الرعد : لماذا لا تذهب إليه وتعرض خدماتها عليه ؟! إن زميلات عديدات لها من خريجات قسم اللغة الإنجليزية عملن فى شركات الانفتاح ! ولعله يرحب بها بصفة خاصة بصفتها مطلقة غريم عمره ! وبهذا ترد له الصفعة التى لا تزال آثارها محفورة على وجهها ! لقد جاء إليها ليقدم لها أروع هدية دون أن يدرى !

أراد أن يستمر فى تذكيرها بكرامته التى نسيها هو طويلا :

ـــ وصف السادات أحداث ١٨ و ١٩ يناير بأنها انتفاضة حرامية .. لكننى أراها انتفاضة ضد الحرامية .. لأن من يسرق علبة سردين أو باكو شاى أو قطعة

جبن جائع قبل أن يكون لصا .. أما انتفاضة الحرامية الحقيقية فهى التى بدأت مع تطبيق سياسة الانفتاح .. اللصوص هم تجار العملة وأصحاب الثروات المشبوهة وتجار الممنوعات والمتلاعبون فى الأسعار والمستولون على أراضى الدولة دون وجه حق والحاصلون على قروض من البنوك بالملايين دون أى نوع من الضمان أو التأمين .. ثم يهربون إلى الخارج بما حملوا دون أن يعوقهم عائق .. لأن كل الأبواب مفتوحة أمامهم بكل الترحيب والإعجاب !! وسعد العنترى واحد من هؤلاء !

توقف ليسترد أنفاسه اللاهثة ويتأمل وقع كلماته على وجهها لكنها لم تنفعل بل قالت بلا مبالاة :

— أعتقد لو أشار أحد هؤلاء اللصوص بطرف أصبعه إليك كى تعمل معه .. فستكون رهن إشارته فى نفس اللحظة .. حتى لو طلب منك أن تطلق زوجتك !

لماذا أصبحت قوية الشكيمة هكذا ؟! حاول الابتسام محرجا :

— أعرف أنك لم تسامحينى إلا بلسانك .. لكن قلبك لا يزال غاضبا علىّ !! أرجو أن تدركى أن من يجلس أمامك الآن إنسان مختلف تماما .. إنسان تابع أجمل سنوات عمره وهو تتحول إلى سنوات محنة لم يفق منها حتى الآن .. وأعتقد أننى كفرّت عن كل ما ارتكبته واعترفت به أمامك منذ لحظات .. وإذا كنت قد احتملت ذل الزمن فأنا لا أحتمل إذلالك لى !!

تأثرت بنبراته الأخيرة التى مالت إلى الانكسار :

— آسفة .. لم أقصد هذا .. ولكننى قصدت أن هذا الزمن لم يترك للإنسان أى اختيار !

فكر فى إخراج سيجارة من جيبه لإشعالها خاصة وأنها لم تطلب من الدادة أن تقدم له أى مشروب ، لكنه واصل لهجة الانكسار لعله يتسلل بها إلى قلبها :

— عموما فقد جئت لأطلب الصفح لا المساعدة .. وإذا كنت قد عجزت عن الحصول على ما أتيت من أجله .. فكيف أفكر فى الحصول على ما لم أفكر فى الحصول عليه أصلا !

مسحت حبات العرق التى تلألأت على جبينها بمنديل صغير فى يدها :

ـــ لو كانت لدى أية قدرة على مساعدتك لما تأخرت !!

ثم عادت للنظر إلى ساعة يدها وهى تنزل ساقا من على الأخرى فنظر بدوره إلى ساعته ثم نهض وهو يخرج من جيبه ورقة صغيرة وضعها أمامها على رخام المائدة الصغيرة المذهبة :

ـــ لن أثقل عليك أكثر من هذا .. عموما هذا هو عنوانى ورقم تليفونى .. إذا احتجت لى فى أية خدمة فسأكون رهن إشارتك !

كان يتأمل فى كلماته الأخيرة أصابعها الخالية من خاتم الزواج وهى واقفة أمامه بدورها لتقول :

ـــ شكراً !

توقع أن تضيف كلمات أخرى لكنها صمتت لتتحرك خارجة إلى باب الشقة الذى فتحته فوقف عنده ليمد يده بالسلام :

ـــ إذا لم تكونى قد ارتبطت بأحد حتى الآن .. فأنا رهن إشارتك !

ثم انحنى ليقبل يدها التى أمسك بها بحرارة لكنها كانت أسبق منه بسحبها بمنتهى الحسم :

ـــ مع السلامة !

خرج ليهبط على الدرج بنفس الحركات المنكسرة، فأغلقت الباب لتعود إلى الصالون الذى أضاءته بعد تسرب العتمة إليه، ثم أمسكت بالورقة الموضوعة على المائدة وأوشكت على تمزيقها إربا، لكنها عدلت عن ذلك فى اللحظة الأخيرة لتطبق عليها يدها وهى تتأمل قطار المترو الذى لا يتوقف عن صرير عجلاته وضجيج أبواقه.

خرجت إلى الشرفة لتستند بذراعيها إلى سورها حيث أضيئت مصابيح الشارع العريض الطويل ، وتألقت واجهات المحال الحافلة بكل ما هو مستورد من كل أصقاع المسكونة. تلألأ داخلها هو الآخر بكلمات دغدغت مشاعرها ، فاستسلمت لها بابتسامة حانية :

ـــ فى المرة الماضية يا مجدى أغلقت أمامى طريق الحياة وأظلمته عن قصد .. واليوم فتحته أمامى على مصراعيه وأضاءته دون قصد !

١٩

وضع سعد العنترى السماعة واسترخى فى مقعده الوثير مستمتعا بتسلل الهواء المكيف داخل حلته الحريرية البيضاء ، وهو جالس فى مكتبه بصفته مالكا ورئيسا لمجلس إدارة « بنك الثقة والخبرة » . أشاعت المحادثة التليفونية السعادة فى أعطافه لمساعيه التى تكللت بالنجاح . كان فى الفترة الأخيرة قد استخدم كل نفوذه وعلاقاته الأخطبوطية لإلغاء إدارة مكافحة جرائم المال فى مباحث أمن الدولة أو على الأقل تجميدها . فهى إدارة ـــ فى نظره ـــ ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب ! ويكفى أن يكون صلاح خلف أحد نجومها بكل حقده الطبقى حتى يجعل منها قيدا حديديا على حركة رأس المال ، فيعود بالبلد إلى عصر الانغلاق الأسود المظلم تحت شعار مكافحة جرائم المال ! فالمال يعرف جيدا كيف يدافع عن نفسه وليس فى انتظار من يدعى الوصاية عليه !

وبالفعل نجح سعد فى إقناع المسئولين بتجميد الإدارة التى لم يتبق فيها سوى أربعة موظفين إداريين لبحث الشكاوى والتحريات المقدمة على سبيل الشكل وسد الخانة ، أما الباحثون والخبراء والإداريون فقد تم توزيعهم على الإدارات الأخرى ، وفى مقدمتهم العقيد صلاح خلف الذى حصل على الدكتوراه من كلية الحقوق ، ونقل على أثرها للتدريس فى كلية الشرطة للاستفادة من خبرته العلمية ، وبذلك اختفى شبحه تماما من حياة سعد العنترى الذى كثيرا ما طارده إحساس ممض بأن القدر سيجمع بينهما مرة أخرى ، ونجح فى فقأ العين التى يمكن أن ترصده وتتربص به ! فعلى الرغم من نفوذ سعد الواسع الخطير الذى يصل إلى أعلى مستويات الدولة فإنه كان ملتزما تماما بمبدأ : الاحتياط واجب ، فالنفوس الحاقدة لا يمكن أن ترتاح لوجود أهل القمة الذين بلغوها بعبقريتهم الاقتصادية ، ودهائهم السياسى ، وأصلهم الاجتماعى العريق !

ولا شك أن هذه الضربة التى وجهها سعد العنترى إلى رجال مكافحة جرائم المال ستضاعف من مركز ثقله فى دوائر المال والاقتصاد والسياسة ، إذ سيدور الجميع فى فلكه بصفته حاميهم من بطش الحاقدين ، والذى فتح لهم أبواب الاستثمار والاستيراد والصفقات على مصاريعها كى تتدفق الثروات دون حساب . وهو لم يفعل ذلك إلا على هدى رئيس الحزب الوطنى وزعيمة الذى ينادى فى كل خطبه وأحاديثه بمحاربة الحقد والتصدى له بكل الوسائل ، وهو الحقد الذى اندلع بركانه أخيرا فى أحداث ١٨ و ١٩ يناير التى أسماها عن حق « انتفاضة حرامية » ! وكانت مبادرة السلام أكبر لطمة على وجه الحاقدين الذين عاثوا فى الأرض فسادا مستغلين قضية السلام التى لم تكن قد حسمت بعد !

سمع دقات خفيفة على الباب ، دخلت على أثرها السكرتيرة التى لا يطيق منظرها الذى لا يمت إلى عالم الأنوثة والرقة والجمال بصلة من قريب أو بعيد ، ومع ذلك فرضتها شويكار عليه بعد أن أصبحت نهبا لكل عوامل الغيرة التى اشتعلت عندما سمعته ذات مرة يتحدث فى منامه عن رغبة فى طفل يرث إمبراطوريته المترامية الأطراف ، فكاد يقتلها كمداً وهى التى لم تكن فى حاجة إلى المزيد من الكمد نتيجة لحرمانها من الإنجاب دون سبب واضح محدد .

وقفت السكرتيرة لتقول فى صوت أجش :

ـــ هناك سيدة بالخارج تصر على مقابلة سيادتك !

ـــ ألم أقل لك مراراً أننى مشغول للغاية ؟! دعيها تقابل فاروق أخى !!

ـــ إنها تصر على مقابلة سيادتك شخصيا !

ـــ ماذا تريد على وجه التحديد ؟!

ـــ رفضت أن تصرح بالسبب الذى جاءت من أجله !

ـــ اطرديها ! ليس عندى وقت لكل من هب ودب !

ـــ ربما جاءت بحثا عن وظيفة كالعادة !

ـــ اطرديها ! ليس عندنا وظائف ! لسنا ملجأ لمن لا نحتاج إليهم !

ـــ حاولت لكننى فشلت !

ـــ كيف ؟!

ـــ قالت إنها لن تغادر المكتب بأية حال من الأحوال قبل مقابلة سيادتك !

ـــ ما شكلها ؟!

ـــ جميلة وأنيقة للغاية !

تضايق سعد من الأسلوب الذى تكلمت به ، فهو يعلم تماما أنها عين شويكار عليه ! سألها بمنتهى الجهامة :

ـــ هل ذكرت اسمها ؟!

ـــ نعم .. قالت إنها مدام مجدى الطوبجى !

وقع الاسم فى أذنيه كرصاصة منطلقة من غياهب الماضى ! انتصب فى جلسته وحاول أن يخفى لهفته بادعاء الدهشة الممتزجة بالضيق :

ـــ دعيها تدخل !

انصرفت السكرتيرة وسعد يضرب أخماسه فى أسداسه : مدام مجدى الطوبجى ؟! هل تزوج ؟! أم استرد مطلقته ؟! وكيف تعود إليه بعد كل ما جرى منه من غدر وخيانة ؟!

فتحت السكرتيرة الباب لتدخل منه هند بكل بهائها وروائها ! امرأة خلابة ، دافئة لدرجة السخونة ، فى قمة نضجها . تألقت عيناها السوداوان وسط وجهها القمحى المستدير ، وشعرها الأسود اللامع المتدفق على كتفيها ، وذراعيها اللتين برزتا فى استدارة ناعمة من فتحتى الفستان الأبيض الذى داعبت أطرافه الركبتين . أما الحزام الذى حاصر خصرها ، والحقيبة التى تدلت من ذراعها ، والحذاء الذى احتوى قدميها ، فقد تألقت بلون وردى تناغم مع العطر الذى فاح بمجرد دخولها !

تأمل سعد أصابعها فوجدها خالية من أى خاتم للزواج . ذهل لغباء مجدى الذى أدار ظهره لمثل هذه الجاذبية الأخاذة من أجل أوهام سياسية مثيرة للسخرية والرثاء ! هذا لو كانت تمت له بصلة أساسا ! نهض ليسلم عليها فى حين انسحبت السكرتيرة وأغلقت الباب . قال مشيرا إلى المقعد :

ـــ تفضلى !

جلست بابتسامة مشعة فجلس بدوره :

— تحت أمرك ! أية خدمة ؟!

— أنا هند بدران مطلقة مجدى الطوبجى .. لكن لم يكن من السهل أن أقدم نفسى للسكرتيرة بهذا اللقب !

لم يعرف سعد سببا لانشراح قلبه . قال :

— أهلا بك تحت أى لقب !

شعرت هند أن الطريق مفتوح أوسع مما توقعت :

— قد تندهش سيادتك لسبب الزيارة المفاجئة .. لكننى سمعت من مجدى ما جعلنى أتابع كفاحك وصعودك بإعجاب شديد !

— لم أكن أعرف أنه كان يذكرنى بالخير !

— ليس هكذا تماما .. وإنما كنت أستنتج الأسباب الموضوعية من حديثه بصرف النظر عن خصومته معك !

أزاح سعد الخصلة الصفراء من على جبينه وقد استرخى فى سعادة :

— على كل حال .. فهذه شهادة أعتز بها جدا!

نضحت الجدية البالغة على نبراتها :

— عموما فلن أضيع من وقت سيادتك أكثر من اللازم .. فأنا خريجة قسم اللغة الإنجليزية .. كما أجيد الفرنسية أيضا .. وأجيد الكتابة على الآلة الكاتبة والاختزال .. كما يمكننى إجادة الأعمال المصرفية من حسابات وإمساك دفاتر وغير ذلك !

ابتسم سعد فى نشوة غامرة :

— وهل أخبرك أحد بوظائف شاغرة لدينا ؟!

— أبداً .. فكرت فى أن آتى بنفسى لأجرب حظى !

أحب بساطتها وصدقها وأسلوبها المباشر التلقائىّ فى التعبير عن نفسها ، والتعامل مع الآخرين دون تردد أو حساسية :

— وأنا أحب روح المغامرة والاعتماد على النفس والتعامل مع الحياة وجها

لوجه !

ـــ إذاً .. نحن متفقان فى الميول !

أعجب بذكائها ولماحيتها وقدرتها على إدارة الحوار نحو أهدافها :

ـــ وبالتالى فالتعاون بيننا يصبح سهلا !

فى الحال أخرجت من حقيبتها الوردية ورقة وضعتها أمامه على المكتب :

ـــ عنوانى ورقم تليفونى !

تحركت فى مقعدها كمن يشرع فى القيام . فكر فى طلب مشروب لها لكنه طرد الفكرة حتى لا يثير شبهات السكرتيرة اللعينة . سألها :

ـــ هل يحاول مجدى العودة إليك ؟! لو كنت مكانه لفعلت المستحيل حتى أكفر عن غلطة عمرى !!

سرى الحياء الوردى فى وجهها ليتناغم مع حزامها وحقيبتها :

ـــ سيادتك تكاد تقرأ ما فى رأسى ! فعلا جاءنى هذا الأسبوع .. لكننى أكدت له أنه أصبح فى خبر كان !

أسعده ذهولها لدهائه فواصل زحفه :

ـــ لكن الصفح عند المقدرة من شيم الكرام !

ـــ هناك أشياء لا يستطيع الإنسان أن يصفح عنها حتى لو أراد !

اصطنع الدهشة المتسائلة :

ـــ ياه ! لهذه الدرجة !!

ـــ غدر بى بمجرد دخول أبى السجن .. وهو الذى كان دائم التمسح به يوميا سواء بالزيارة أو بالتليفون !! وما زاد الطين بلة أننى اكتشفت أننى حامل بعد خيانته بتطليقى فى أحرج لحظات عمرى !!

اعتدل سعد فى جلسته إذ لم يتصور أن الإثارة ستصل به إلى هذا الحد :

ـــ وماذا فعل عندما علم بذلك ؟!

ـــ لم أخبره بشىء ! قلت لنفسى : فليذهب إلى الجحيم ! فلم أكن أرغب فى طفل يحمل اسمه .. و لم أتردد لحظة فى إجراء عملية إجهاض لم يدر بها أحد فى الأسرة

سوى أمى !

نكأت هند جرحا غائرا فى صدر سعد دون أن تدرى ! فهى تجهض نفسها تخلصا من طفل غير مرغوب فيه فى حين تكاد شويكار تموت للحظة تشعر فيها بدبيب هذا الطفل فى بطنها ! كم عاش هو على أمل هذه اللحظة لكنها لم تأت ويبدو أنها لن تأتى !! غطى الأسى نبراته :

ـــ هناك أقدار لا يملك الإنسان سوى أن يرضخ لها !

ـــ لكننى لم أرضخ ! قاومت قدر استطاعتى واستأنفت دراستى وحصلت على الليسانس وعملت بتدريس اللغة الإنجليزية !

ـــ يبدو أنك لم ترتبطى بأحد بعد مجدى ؟!

فاجأها السؤال لكنها أجابت بهدوء :

ـــ عندما يصاب الإنسان بصدمة وهو فى عمر الزهور .. فإنه يتردد ألف مرة قبل أن يخوض تجربة أخرى قد تصيبه بصدمة أعنف !!

ابتسم سعد وقد بلغ ائتناسه بها أقصاه :

ـــ وأنت لا تزالين فى عمر الزهور ! وطالما أنك بهذه الشخصية القوية والفكر الثاقب فلا بد أن يكون مستقبلك واعداً بإذن الله! !

شعرت أنها اجتازت الاختبار :

ـــ هذه شهادة أعتز بها !

ـــ وبالمناسبة .. ما أخبار مجدى الطوبجى ؟!

ـــ الضياع بعينه .. بلا عمل ولا مستقبل وعلى شفا الإفلاس أو الانتحار !

مزج سعد الدهشة بالأسى على وجهه الأبيض المشرب بالحمرة :

ـــ سبحان مغير الأحوال !! يبدو أنه لا يزال يدفع ثمن ماجنته يداه ! على كل حال المسامح كريم ! هل تعرفين عنوانه أو تليفونه ؟!

لم تخف غيرتها المندهشة .

ـــ يبدو أننى جئت لأتوسط لتعيينه لا لتعيينى !

أطلق ضحكة عابرة وهو يتكئ بمرفقيه على حافة مكتبه :

ـــ لقد تم تعيينك بالفعل نائبة لمدير قسم العلاقات العامة الذى هو أخى فاروق .. وستحصلين على مرتب خمسمائة جنيه فى الشهر ... بالإضافة إلى المكآفات والحوافز والعلاوات بحيث يصل إلى حوالى سبعمائة !

اتسعت عيناها السوداوان كآبار الأساطير :

ـــ سيادتك شخصية عجيبة .. تأخذ قرارك فى سرعة البرق !

ـــ تعلمت كثيرا من البرق والرعد أيام المعتقل ! هل معك عنوان أو تليفون مجدى ! أريد أن ألقنه درسا فى مكارم الأخلاق !! سأحول حقده إلى حب جارف ! الحقد لا يشعله سوى الحقد .. أما الحب فهو السلاح الوحيد الذى يمكن أن يقضى عليه !

لم تدر هند ماذا تقول لكنها فتحت حقيبة يدها متحسسة محتوياتها وهى تتمتم كأنها تخاطب نفسها :

ـــ لا أعرف إذا كانت الورقة معى أم لا ؟!

واصلت البحث وهو يتابعها مستمتعا بوجهها المشع . فجأة أوشكت على الصياح :

ـــ ها هى ؟!

ثم وضعتها على المكتب أمامه وهو تقول كمن تذكر شيئا فجأة :

ـــ أرجو أن يكون عديم الصلة بى تماما إذا كان له أن يعمل هنا !

ـــ سيكون بعيداً عنك بعد الأرض عن الشمس !

ضغط على الجرس لتدخل السكرتيرة :

ـــ اصطحبى المدام إلى فاروق بك ليعمل لها إجراءات تعيينها نائبة له !

نهضت هند شاكرة وهى تمد يدها بالسلام الحار . سارت السكرتيرة خلفها وهى تتأملها من أعلى إلى أسفل ومن أسفل إلى أعلى حتى اختفيتا :

ـــ يالله ! لا يزال القدر يصر على الجمع بيننا ! فليكن هذه المرة بيدى لا بيده ! لم تستوعب هند الدافع وراء حماسى لتعيينه ! يمكن أن تظن أننى أريد إذلا له للانتقام من سنوات الهوان البعيدة ، لكنها لا يمكن أن تدرك أننى أحتاج إليه فى تحقيق

أهداف أبعد كثيرا من تصورها ! بل إن وجوده فى البنك سيمحو أية شكوك محتملة فى ذهن شويكار حول هند فأنا لا أريد الانفراد بها شخصيا ! وحتى إذا انفردت الشكوك بشويكار ، لا بد أن تعلم أن سيد الموقف وصاحب اليد العليا هنا هو أنا ! صحيح أنها شاركتنى أيام الكفاح والاعتقال والعذاب ، وظلت تساندنى كالطود الشامخ دون تردد ، لكنها تجنى الآن كل الثمار الشهية . أصبحت الكوكب الساطع فى أرقى محافل المجتمع ، وتملك ڤيلا باسمها فى الريڤييرا الفرنسية ، وأرضا شاسعة فى أمريكا ،ويختا رابضا أمام نادى اليخت فى الإسكندرية ، بالإضافة إلى الملايين التى باسمها فى بنوك سويسرا وإنجلترا وأمريكا ، ومحل ماربل آرش الذى يعد أحد معالم لندن التجارية ! أليس كل هذا ثمنا معقولا لكفاحها وصمودها حتى تحاول لىّ ذراعى وفرض سيطرتها علىّ فى كل كبيرة وصغيرة ؟! إنه غير ناكر للجميل لكن الاعتراف بالجميل لا يمكن أن يؤدى إلى تشويه صورته بحيث يبدو بعد كل هذا الكفاح المجيد زوج الملكة أو زوج الست ! لكل شىء فى هذه الحياة حدود وعلى شويكار أن تعرف حدودها ! فهو لم يقصر فى حقها فى شىء بل فرط فى حقه هو عندما صرف النظر عن الزواج بأخرى من أجل إنجاب طفل يرث هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف ، والتى يمكن أن تتحول إلى أشلاء متناثرة إذا لم يأت ولى العهد ! وبعد كل هذا تفرض عليه هذه السكرتيرة القبيحة المسترجلة بحجة كفاءتها فى العمل ! صحيح أنها فى منتهى الكفاءة لكن وظيفتها الأهم هى التجسس عليه فى كل حركاته وسكناته ، مما أعاد إليه ذكريات المعتقل والميكروفونات السرية المتصلة بمكتب المأمور وغير ذلك من الذكريات التى تثير قشعريرة الكآبة داخله ! إنه يمكن أن يتصور أن يكون مراقبا من صلاح خلف بحكم وظيفته كمأمور للمعتقل لكن يستحيل أن يتصور قيام شويكار بالدور نفسه ! وإذا كان قد انتصر على صلاح خلف بالإضراب عن الطعام فى أحلك الظروف ، بل ونجح أخيرا فى إبعاده عن إدارة مكافحة جرائم المال ، فهل يعجز عن السيطرة على شويكار وهو فى أوج مجده وسطوته ؟!

دق سعد البللور الذى يفترش مكتبه الفاخر بقبضته :

— لا تستغلى يا شويكار استعدادى للحب والتضحية أكثر من هذا ! فأنت لا تعلمين مدى الإحباط الذى ينهشنى خوفا من المستقبل برغم كل هذا الهرم الشاهق الراسخ الذى أقمته !!

سمع دقات على الباب لتدخل السكرتيرة الكريهة :

— ضيف آخر يصر على مقابلة سيادتك بدون ميعاد سابق !

— أنا غير موجود !

— إنه متأكد من وجود سيادتك من رجال الأمن فى البنك !

بدا متأففا للغاية :

— ما حكاية ضيوف اليوم الذين يحاولون فرض أنفسهم بالقوة ؟!

— قال إنه زميل سيادتك فى الكفاح الوطنى !

لا يعرف لماذا تذكر سعد مجدى الطوبجى لكن أية زمالة وأى كفاح ؟ سألها :

— هل ذكر اسمه ؟!

قدمت إليه كارتا كان فى يدها ، قرأه والدهشة تسرى فى زرقة عينيه الآخذة فى الاتساع والممزوجة بخضرة داكنة :

— دعيه يدخل !

خرجت السكرتيرة دون أى انفعال على وجهها وسعد يقول لنفسه :

— يوم المفاجآت !!

فتح الباب ليدخل مجاهد عطية حليق اللحية ، لا مع الصلعة ، أبيض البشرة ، منشرح العينين تحت نظارة طبية ذات إطار سلكى مذهب ، وبين أصابع يمناه سيجار فاخر منطفئ ! احتواه سعد بذراعين من حديد وتبادلا القبلات والأحضان وسعد يقول :

— غير معقول .. لم أرك منذ ثلاثة عشر عاما !! أين كنت ؟! وكيف أحوالك ؟! تغيرت كثيرا ؟! أين اللحية ؟!

ابتسم مجاهد فى سعادة وهو يجلس أمامه :

— اكتشفت أن الاشتراكية الحقيقية ليست لها علاقة بمثل هذه المظاهر الشكلية !

استمر سعد فى مداعبته الخبيثة لمجاهد :

— وهذه الأناقة أيضا ليست لها علاقة بالاشتراكية الحقيقية !!

أشعل مجاهد سيجاره بولاعة ذهبية أعادها إلى جيبه :

— واكتشفت أيضا أن الاشتراكية الحقيقية لا تعنى الفقر وإنما تعنى الغنى !! بهذا وحده تنتشر الاشتراكية !! لا أحد يحب الفقر ! إنه ضد الطبيعة البشرية !

— متى خرجت من المعتقل ؟!

— فى أوائل ٧٤ .. ومع تطبيق سياسة الانفتاح .. أنشأت شركة متواضعة للاستيراد !!

ضحك سعد بصفاء افتقده منذ زمن بعيد :

— حتى أنت يا مجاهد يا عطية !! وهل تستورد سلعا اشتراكية ؟!

أجابه بجدية ذكرته بجلسات المعتقل وهو يطلق نفسا صافيا :

— نعم ! أستورد جرارات زراعية من رومانيا ويوغسلافيا .. واشتريت قطعة أرض على طريق مصر إسكندرية الزراعى جعلت منها مخزنا وإدارة !!

— وكيف حال العمل ؟!

— الحمد لله .. كل شىء على ما يرام !

تعجب سعد لمجاهد الاشتراكى وهو يحمد الله :

— وأنا أحمد الله بدورى على مجيئك اليوم حتى يتسنى لى شكرك على تأييدك لى فى الإضراب عن الطعام !!

— لم يكن من المعقول أن تضرب عن الطعام حتى الموت .. ونتركك لمصيرك ونجلس مكتوفى الأيدى ! لكننى لم أصدق أنك مت كما أعلنوا فى الميكروفون ! كانوا يريدون إرهابنا حتى لا نكرر اللعبة ! ولذلك سعدت جدا عندما قرأت اسمك يتألق فى إعلانات الصحف والتليفزيون !

— تصور أن صلاح خلف .. شيرلوك هولمز .. صدق حكاية موتى .. وعاش عاما كاملا من الإحساس بالذنب على حد قوله !

— مأساة صلاح خلف أنه رجل مستقيم يعيش فى زمن متعرج !

لم يسترح سعد لميل مجاهد لصلاح فقال:

— سرقنا حديث الذكريات .. ماذا تشرب ؟!

أطلق نفسا طويلا ونظر إلى ساعة يده :

— لن أطيل عليك .. فوقتك ثمين للغاية !

— وأنا تحت أمرك !

— أمامى صفقة آلات رى كبيرة .. وكل ما أريده بعض التسهيلات الائتمانية .. وعلى استعداد لكل الضمانات .. سواء خطابات ضمان أو شيكات مصرفية مقبولة الدفع أو آجلة ..

— وحتى بدون ضمان ! ما بيننا أكبر من أى ضمان !

— وحتى بدون أن تعرف المبلغ ؟!

— لن أعز عليك شيئا !

ضحك مجاهد فى نشوة حقيقية :

— كل ما أريده لا يصل إلى المليون !

— وهو كذلك !

فتح سعد دولابا صغيرا أنيقا قريبا من يمناه ، وأخرج منه ملفا وضعه أمامه وفتحه ليقلب فى أوراقه مبتسما فى سعادة :

— والله زمان !!

سرت الابتسامة لتفترش وجه مجاهد الذى أخرج من جيبه قلماً للشروع فى الإجراءات ، ومن جيب آخر المستندات اللازمة لإتمامها . ضغط سعد على زر الديكتافون الصغير أمامه :

— أحضرى حساب التسهيلات الائتمانية .. وافتحى رقما جديدا فى الكومبيوتر !

قاد صلاح خلف سيارته الصغيرة فى طريقه إلى الإسكندرية لقضاء أسبوع للراحة والاستجمام . كانت لواحظ إلى جواره وعلى حجرها أحمد الذى احتفلوا بعيد ميلاده الأول منذ أسبوع . استكان أحمد إلى صدر أمه فى حين استسلمت وفاء لهدهدة السيارة فى المقعد الخلفى فراحت فى سبات عميق . بدت صورة مصغرة من أمها : اللون الخمرى ، الشعر الأسود الناعم ، والأنف الدقيق ، والشفتان الغليظتان . كانت قد أتمت الثالثة عشرة من عمرها ، وبرز نهداها وتكور ردفاها. فذكرت أباها بأمها أيام الحب الأولى، أمها التى تحاول الآن أن تمنع جسدها من السمنة الزاحفة بقدر الإمكان .

كان هواء الطريق الزراعى فى ذلك الصباح الباكر منعشا وسط أحضان الطبيعة التى طالما هفت إليها نفس صلاح المختنق داخل جدران المكاتب الحكومية . قال وقطرات الندى تداعب زجاج السيارة :

ــ نحن محرومون من هذا الجمال الإلهى !

ابتسمت لواحظ وخضرة الحقول والشجر والنخيل تغطى جانبى الطريق لتنعكس على بريق عينيها العسلى :

ــ لكن يبدو أنك أدمنت المكاتب المعتمة الرطبة .. بدليل أنك تشعر بالتعاسة منذ أن نقلت إلى كلية الشرطة .. برغم أنك تخرجت منها وعدت إليها أستاذا حاملا للدكتوراة ورتبة العميد !

ــ أنت تعلمين جيدا لماذا نقلونى !

ــ أنا لا يهمنى السبب بقدر ما تهمنى النتيجة .. نحن الآن مستقرون والحمد لله !! أنسيت ليالى البيات الطويلة خارج البيت؟! وحتى وجودك معنا لم يكن يعنى سوى المجىء بعد نوم وفاء التى كثيرا ماغالبت النوم حتى تراك دون جدوى ..

كنت تأتى فى ساعة متأخرة لتغادر البيت فى ساعة مبكرة !

تساءل وهو يحاول تجاوز سيارة نقل ما زوت بكل دخانها الأسود :

ـــ هل يعقل أن يدور الزمن لأصبح تحت رحمة سعد العنترى مرة أخرى ؟!

ـــ لولاه لما كان فى إمكاننا السفر هكذا إلى الإسكندرية مثل بقية خلق الله !

نظر إليها مبتسما فى حنق :

ـــ حتى أنت أصبحت من مؤيديه ! كل الدنيا تلهث وراءه الآن ؟!

ـــ العنترى أو غيره ليس قضيتى ! قضيتى هى رجلى وبيتى وحياتى !

ـــ ما قيمة العلم والحصول على أعلى الشهادات ؟! إذا كان أنصاف المتعلمين من أمثال سعد أو الجهلاء الذين يدورون فى فلكه هم الذين يسيطرون على الاقتصاد والسياسة فى البلد ؟!

ـــ أنت لن تصلح الكون !

ـــ وما قيمة دراستى التى كرست حياتى لها إذا كانت ستظل مجرد سطور داخل كتب ؟!

ـــ أنت تقوم بتدريسها لطلبتك !

ـــ تصورى بعد آخر محاضرة لى قبل الإجازة .. التف حولى بعض الطلبة كالعادة خارج المدرج .. وإذ بأحدهم يسألنى عن فائدة تدريس وسائل وأساليب مكافحة جرائم المال .. فى حين أصبح اللصوص هم السادة الجدد الذين تفتح أمامهم الأبواب المغلقة ويقابلون بالاحترام والإعجاب فى كل مكان يذهبون إليه !!

ـــ وماذا كان ردك ؟!

استشعر القلق فى نبراتها فأسرع إلى طمأنتها :

ـــ خفت أن يكون مدسوسا علىّ لأنه يتكلم بجرأة غير متوقعة .. فكرت فى تجاهل سؤاله لكنه ظل محدقا فى انتظار الإجابة ومعه زملاؤه الذين صمتوا صمت القبور .. فلم أجد سوى أن أقول له :

ـــ أنا كأستاذ أكاديمى لا أملك سوى تعليم الطلبة .. أما تطبيق العلم على العمل

فليس من اختصاصى .. وإنما من اختصاص أجهزة أخرى !

سألته لواحظ فى لهفة :

ــ وهل سكت بعد هذه الإجابة الدبلوماسية ؟!

ــ ظننت أننى أفحمته لكنه عاد ليقول إنهم يعلمون أننى نقلت من إدارة مكافحة جرائم المال إلى كلية الشرطة .. وبالتالى فإن فى إمكانى أن أجيب على شقى السؤال : العلمى والعملى !

ــ يبدو أن مخاوفك فى محلها ! ماذا قلت له ؟!

ــ قلت إننى جندى فى أى موقع تختاره لى السلطة .. وموقعى الآن فى كلية الشرطة .. ولا أعرف موقعا آخر ! ثم تسللت من وسطهم فيما يشبه الاستئذان لكن نظراتهم لم تكن مريحة أبدًا !! هذا الجيل الذى شب مع نكسة يونيو يشك فى كل شيء ! تفتحت عيونه على الدنيا فلم يجد قدوة يحذو حذوها أو صنما يتعبد فى محرابه ! وجد نفسه فى فراغ مخيف يدور حول مركز ثقل يتحكم فى حركته اللصوص من أمثال سعد العنترى .. فانطمست فى عينيه معالم المستقبل الذى لم يعد العلم أو الكفاح أو الإصرار أو الالتزام أو الانتماء أو الصبر أو الوفاء من قيمه التى حلت محلها قيم الفهلوة والمضاربة والنهب والسلب والمتاجرة بكل شيء والسعى وراء أكبر كسب من أقصر وأسهل وأسرع طريق .. حتى لو كان طريقا غير مشروع !!

ضحكت لواحظ وقد استرخت فى مقعدها مشغولة بالحوار :

ــ كأنك تلقى محاضرة فى المدرج ؟! لكن لا تنس أن القيم التى نشأنا عليها هى التى أدت إلى نكسة يونيو ؟!

ــ هذا صحيح ! لكن الأوهام بالنسبة لنا كانت أرسخ من أى واقع .. ودفعتنا إلى الحماس والانطلاق والتفوق .. كنا نصدق عبد الناصر وهو يكرر على أسماعنا أننا قطعنا ذيل الأسد البريطانى فى السويس .. وأننا أصبحنا أكبر قوة ضاربة فى الشرق الأوسط .. وأن اليوم الذى سنلقى فيه بإسرائيل المزعومة إلى البحر لا مهرب منه ولافكاك .. كانت كلماته تسرى فى أسماعنا وعروقنا بحمية تدفعنا إلى

التحليق بين السحب .. لم نكن نعلم أنها أوهام ولذلك دفعت واحدا مثلى ليس له سند فى الحياة سوى أبيه سائق السيارة الخاصة سواء لآل العنترى أو آل الطوبجى إلى أن أصبح عميد دكتور صلاح خلف ! لكن إلى أين ستؤدى بنا القيم السائدة الآن ؟! هل هى كل ما تبقى من ثمار حرب أكتوبر ؟!

ربتت لواحظ على كتفه فى مداعبة رقيقة :

ــ لا تحمل همًا .. لا تزال تقاليد عبد الناصر راسخة ! فأجهزة الإعلام تبيع لنا الأوهام ليل نهار !!

ــ لكن أحدًا لم يعد يصدقها !! ماتت الحمية فى عروق الشباب الذى ضل طريقه إلى المستقبل ! إذا كان هناك أى مستقبل من أى نوع !!

ــ لا تكن متشائما إلى هذا الحد ! المستقبل بيد الله !

ــ ونعم بالله .. لكن الله وضع فى جماجمنا عقولا لنعرف ونعى ونرتقى بأنفسنا .. لا أن نترك قيادنا لكل من هب ودب ! يحركوننا كقطع الشطرنج !

مرقت إلى جوارهم عربة فاخرة كالسهم الفضى الخاطف سرعان ما ابتلعها الأفق . شعر صلاح أن سيارته طفل يحبو فقال :

ــ لا بد أنه واحد من تجار المخدرات أو تجار العملة أو رجال الصفقات المريبة .. إن مستوى المعيشة فى بلدنا لا يسمح بوجود مليونير واحد .. فما بالك بكل هذا العدد المخيف من المليونيرات ؟!

ــ إنهم ينهبون الأرض نهبا كما لو كانت ملكا خالصا !

ــ وهى كذلك بالفعل ! كما لو كانت حرب أكتوبر قد قامت من أجلهم !

نظرت لواحظ إلى الخلف بابتسامة حانية عندما وجدت وفاء لا تزال تغط فى نومها :

ــ قالت لى وفاء إن بعض زميلاتها فى المدرسة يحصلن على مصروف لا يقل عن عشرة جنيهات فى اليوم .. ووالد إحداهن أقام لها حفل عيد ميلاد فى قاعة ألف ليلة بفندق الهيلتون دعا إليه حوالى ألف مدعو .. ما بين وزراء ورجال أعمال وتجار وفنانين !!

ـــ أوضاع مقلوبة تماما !! تصورى تأثيرها على نفسية وفاء عندما تجد أباها الدكتور العميد يفى بالاحتياجات الضرورية للبيت بالكاد !

ـــ عموما دوام الحال من المحال !

ابتسم صلاح فى سخرية نضحت مرارتها على مرآة السيارة :

ـــ من كان يصدق أن سعد العنترى الذى كان يتمنى كلمة واحدة منى فى المعتقل يراقبنى الآن وينقلنى إلى حيث يريد ؟!

ـــ أنت لست قطعة شطرنج .. وإنما لاعب شطرنج .. حركة لك وأخرى ضدك !!

نظر إليها فى وله شديد :

ـــ أعشق ذكاءك كما أعشق جمالك ! لكن لا بد من نهاية لكل دور شطرنج مهما طال ! المهم النتيجة !

ـــ كثيرا ما قال لك أبوك إنه فى النهاية لا يصح إلا الصحيح !

ربت على يدها الممسكة بأحمد :

ـــ كما أعشق تفاؤلك برغم كل شىء !

استغلت تدفق مشاعره الفياضة :

ـــ ولماذا لا تستقيل وتعمل بالتجارة ؟! ألم يكن هذا مشروعك القديم الذى دفعك إلى دراسة كل القوانين المالية والتجارية حتى حصلت فيها على أعلى الدرجات العلمية ؟! بهذا العلم يمكنك أن تكتسح كل المدعين والانتهازيين والمتسلقين والطفيليين!!

ـــ لم أقل بعد الاستقالة وإنما بعد المعاش !

ـــ وما الفرق ؟! بيدى لا بيد عمرو كما اعتدت أنت أن تقول !

ـــ لا أحب أن أخرج من الحلبة مهزوما بأية حجة !

ـــ أعرف إصرارك وعنادك ! لكننا نحن الذين سندفع الثمن !

ـــ لا تظنى أننى لو اشتغلت بالتجارة سيكون الأمر مجرد نزهة أعود منها مليونيرا ! إن العصابات التى تحكم السوق الآن لا تتعامل بالأصول والأساليب

العلمية .. كما أنها لن تسمح بدخول أى غريب بينها خاصة من له ماض معها مثلى قطع علاقته بالسلطة التى كان يستند إليها .. لن يتوانوا فى نهش لحمه حيا ! لا بد من تطهير الأرض أولا قبل زرع أى نبات جديد !

ضحكت فى اقتضاب ممزوج بدلال :

ــ إذًا .. مت يا حمار !

ــ ألم تقولى منذ لحظات أن دوام الحال من المحال !

ــ وهل حدث من قبل أن غلبتك فى أى نقاش ؟!

ابتسم صلاح فى سعادة وآخر فلول الضباب تنقشع تحت وطأ القرص الذهبى الذى أضاء الطريق بضوء مبهر غطى خط الأفق !

٢١

لم يصدق مجدى الطوبجى أذنيه وهو يضع السماعة موزع النفس بين شتى المشاعر الغامضة الحائرة ! ظنها دعابة ثقيلة لكن من الذى تسول له نفسه أن يداعب الآخرين ، حتى لو كانت دعابة ثقيلة ، فى هذا الزمن الكئيب ؟! هل يمكن أن تكون هند قد دفعت أحدهم للسخرية منه والاستهزاء به خاصة وأنها لم تبد أى ترحيب به عندما زارها ؟! لكن يبدو أن عقل هند أكبر من هذه التفاهات ! على كل حال فهو لن يخسر شيئا إذا ذهب إلى البنك ! فليكن أحد المشاوير الخائبة العديدة بحثا عن وظيفة سرابية ! صحيح أنه قرأ إعلانات كثيرة وضخمة عن أنشطة « بنك الثقة والخبرة » ، لكنه لم يعرف شيئا عن هويته وأصحابه ومؤسسيه ، فكيف عرف مكتب مدير العلاقات العامة فيه أنه اشتغل بالسلك الدبلوماسى وله خبرة واسعة بالقانون الدولى ، وأن البنك يهمه الاستفادة بهذه الخبرة التى تنقصه ويحتاج إليها فى اتصالاته الخارجية والدولية العديدة ؟! وعندما سأل محدثه عن الوسيلة التى عرفوا بها تليفونه ، والسبب فى اختياره هو بالذات ، واسم المسئول الذى سيقابله بهذا الخصوص ، كان رد المتحدث مقتضبا للغاية :

ـــ نائبة السيد مدير العلاقات العامة ستكون فى انتظار سيادتك فى تمام العاشرة صباحا .. شكرا .. مع السلامة !

كان الميعاد بعد يومين من المكالمة المحيرة حين سار مجدى الطوبجى وهو فى قمة أناقته ووسامته التى استعادها ، والوقار الذى أضافته بعض الشعيرات البيضاء إلى رأسه وشاربه الدقيق ، على الطوار فى شارع طلعت حرب سائلا المارة عن « بنك الثقة والخبرة » ، وهو يدخن بشراهة حتى عثر عليه ليقف أمامه مذهولا للواجهة الرخامية البنية الداكنة اللامعة التى تغطى علوه الشامخ ، والمدخل الزجاجى الفاخر ، والسيارات الفارهة الرابضة أمامه ، والداخلين والخارجين منه برونقهم

الخلاب وعطرهم الساحر ووجوههم الوضاءة . هل يمكن أن يكون مؤسسوه من زملاء الخارجية القدامى الذين كانوا يتمنون رضاء أبيه عليهم ؟! وهم يريدون الآن رد أفضاله عليهم؟! تخمين أكثر إقناعا من كل التخمينات التى غرق فيها حتى أذنيه فى اليومين الماضيين ، ولقد حان الوقت لقطع الشك باليقين !

أطفأ سيجارته بنعل حذائه على الطوار ثم صعد على الدرجات الرخامية ليدخل من الباب الزجاجى الذى انفتح من تلقاء نفسه ليجد نفسه أمام مكتب الاستعلامات الذى طلب منه الصعود إلى الطابق السابع انطلق به المصعد وقد استسلمت أعصابه للهواء المكيف والعطر السابح والموسيقى الناعمة ، فاستعاد إحساسه القديم بالأهمية البالغة بعد أن قرروا أخيرا الاستعانة بخبرته الفريدة ! لم يسع هو إليهم ذليلا منكسرا ، وإنما طلبوه بالاسم بعد العثور على رقم تليفونه فجاء إليهم معززا مكرمًا ! شعر أن كرامته التى سحقت منذ دخوله المعتقل قد عادت إليه أقوى وأنصع ما تكون ! ويبدو أنه صعد إلى السماء السابعة وليس الطابق السابع !

سار فى الممر الرخامى الأبيض حتى بلغ لافتة نحاسية لامعة كتب عليها : قسم العلاقات العامة . دخل ليجد قاعة عريضة طويلة انقسمت إلى جدران زجاجية احتوت مكاتب معدنية فاخرة جلس إليها رجال فى قمة الأناقة وفتيات فى منتهى الجمال . سأل عن مكتب السيدة نائبة السيد مدير العلاقات العامة فأشارت إحدى الفاتنات بأناملها الرقيقة إلى نهاية القاعة . سار مجدى بحرص حتى لا تزل قدمه على الأرضية الملساء اللامعة حتى بلغ آخر مكتب فإذ به يرى ما لم يتوقعه على الإطلاق !! رفعت هند رأسها لتلمحه بدون دهشة وكأنها خططت لكل شيء ! قدم قدما وأخر أخرى حتى وقف أمام مكتبها تمثالا من الذهول المتحجر :

ــ لم أتوقع أبدًا وجودك هنا !!

ــ ولم لا ؟!

جلس ليستعيد تحكمه فى خواطره الشاردة :

ــ منذ شهر فقط كنت تشكين من عذاب التدريس وبؤسه !! والآن تحتلين هذا المنصب وآتى أنا بالذات كى أقابلك أنت بالذات ؟!

— لأننى ببساطة أول من يقابل الموظفين الجدد قبل استلامهم العمل !!

— لا بد أننى سأستلم العمل بناء على توصيتك ! هل هذا بدافع الشفقة والعطف أم بسبب التشفى والسخرية ؟!

مطت شفتيها الدسمتين فيما يشبه الضيق :

— لا زلت تعيش فى مشاعر الماضى وأوهامه ! لا مكان هنا للعاطفة ! هنا لا نعرف سوى العمل فالوقت أغلى من الذهب !

— هل كنت تقصدين كل كلمة سمعتها منك فى الزيارة الأخيرة ؟!

— وهذا أيضا لايهم ! ولكن ما يهم أن تملأ هذه الاستمارة !

وأخرجتها له من ملف أمامها ليتصفحها بنظرة سريعة :

— وماذا أكتب أمام الوظيفة ؟!

— اترك الخانة خالية حتى تقابل رئيس مجلس الإدارة !

— ومتى سأقابله ؟!

— الآن ! بعد كتابة الاستمارة !

— ومن أين لك بكل هذه الثقة فى أننى سأقبل العمل هنا ؟!

— نحن لا نضيع وقتنا هنا فى اللف والدوران ! ستقبل العمل هنا ونحن متأكدون من هذا .. وإلا لما استدعيناك أصلا !

— هكذا !!

— هكذا !!

تذكر حجمة الطبيعى وكبت عنجهيته القديمة بالانهماك فى كتابة البيانات .

لمح طرف ورقة عليه ختم مطبعى : مجموعة شركات العنترى ! سألها قبل أن ينهى البيانات :

— هل البنك له علاقة بشركات العنترى ؟!

— لماذا كل هذه الأسئلة ؟!

— من حقى أن أعرف !

— وافرض له علاقة .. هل ترفض العمل ؟!

ــ لو علم سعد العنترى أننى أعمل هنا لوجدت نفسى فى الشارع !

ابتسمت محاولة كبت ضحكة غريبة :

ــ لا تتوقع البلاء قبل وقوعه ! عموما فأنت فى الشارع بالفعل ولن تخسر شيئا بعملك هنا !

عاد إلى انهماكه فى كتابة البيانات حتى انتهى منها . ومض فى خاطره برق كاد أن يصعقه : أن يمزق الورقة إربا ويلقى بها فى وجهها ! صحيح أنه فى الشارع لكن لماذا تتفنن فى إذلاله ؟! ندم الآن على استجدائه عودتها إليه يوم زارها ! إنها امرأة بلا مشاعر ، مات قلبها يوم طلقها و لم تعد صالحة لأى رجل ، بل يبدو أنها ولدت بقلب ميت ، فهى لم تحبه فى يوم من الأيام ، وهو أيضا ! أمسك بالورقة ثم قدمها إليها فأخذتها منه قائلة :

ــ نفس الطابق .. مكتب رئيس مجلس الإدارة .. هو فى انتظارك الآن .. در مع الممر ستجده فى نهايته !

ــ شكرا !

قال فى اقتضاب شديد . استدار دون أن يمد يده بالسلام وخرج ليدور مع الممر حتى بلغ نهايته ليجد لافتة نحاسية لامعة : رئيس مجلس الإدارة .. دخل ليجد السكرتيرة المسترجلة ويخبرها باسمه فتفتح باب المكتب الكبير وتتركه بمفرده. لا يعرف لماذا احترم الرجل الذى لم يره بعد والذى لم يهتم باختيار فاتنة من فاتنات البنك سكرتيرة له كالعادة ! لا بد أنه رجل جاد للغاية ، ولولا هذه الجدية لما احتل هذا المنصب الرفيع الخطير !

ظهرت السكرتيرة لتشير إلى الباب بصوتها الأجش :

ــ تفضل !

دخل ليجد نفسه فى مكتب شاسع لامع ،حيث قبع فى نهايته رئيس مجلس الإدارة! هل يصدق عينيه أم أنه يهذى بصور غير حقيقية؟! هل بلغ به الغباء هذا الحد الذى لم يخطر فيه بباله أن يكون سعد العنترى قد جهز مع هند هذه المصيدة المحكمة ؟! هل هو سعد العنترى فعلا أم أنه آخر يشبهه، فهو لم يره منذ ثلاثة عشر

عاما ؟! ومع ذلك كان يتقدم منه كالسائر فى منامه حتى بلغ المكتب فنهض سعد يمد يده بالسلام :

ــ أهلا وسهلا ! لم أرك منذ الإضراب عن الطعام !!

وجد مجدى نفسه يقول :

ــ ولماذا اخترتنى أنا بالذات ؟! لو كنت أعرف لما أتيت !

جلس سعد لكن مجدى ظل واقفا فى إنصات ذاهل :

ــ أردت أن أثبت لك أننى لا أتخلى عن أصدقاء الماضى .. خاصة إذا كانوا فى أزمة يمكننى أن أخرجهم منها !!

ــ ولماذا لم يقل لى من اتصل بى أنك صاحب الفكرة كلها ؟!

ــ أردت أن أجعلها مفاجأة لك .. كما كان من المحتمل ألا تأتى لو عرفت !!

ــ هذا اللقاء من صنعك أنت .. على عكس اللقاءات السابقة التى كانت من صنع القدر !!

ــ لا أعتقد أنها كلها كانت من صنع القدر ! مثل المحاضرة التى جئت خصيصا إلى المعتقل لإلقائها !

ــ إنك لا تنسى شيئا !!

أشار سعد إلى المقعد الوثير أمام المكتب :

ــ لماذا لا تجلس ؟!

جلس مجدى بحركة آلية :

ــ ولماذا كل هذا الحرص على المجئ بى إلى هنا ؟! أنت أدرى بخبراتى .. لم أعمل بالخارجية سوى عامين .. بعد ذلك أصبحت حياتى الضياع بعينه !

ــ إنك ذكى ولماح وطاقة كبيرة معطلة ! وأنا خير من يستغلها !

ــ لوجه الله ؟!

ــ لوجه الله ولصالح العمل و لأثبت لك أن ثمار الحب شهية ويمكن أن تعم الجميع أما ثمار الحقد فهى نار فى بطن صاحبها !

استعاد مجدى معظم توازنه فأمسك بالمبادرة :

— وما هى وظيفتى على وجه التحديد ؟!

— ماذا كان شعورك يوم أعلنوا فى ميكروفون المعتقل أننى مت ؟!

بدأ القط يلعب مع الفأر على حد قول هند ، لكن لماذا يجعل من نفسه مجرد فأر . أجاب :

— شعرت أن جزءامن حياتى قد بتر فجأة !!

— هل كنت تحبنى إلى هذه الدرجة ؟!

استعاد مجدى قدرته على الدهاء :

— أحيانا تصبح أواصر الحقد أقوى من الحب !

— تعجبنى هذه الصراحة ! لكن هل صدقت حكاية موتى ؟!

— فى هذا الزمن امتزج التصديق بالتكذيب فلم نعد نعرف حدود هذا من ذاك! ولذلك لم أذهل كثيرا عندما تألق اسمك فى الصحف والتليفزيون !

— لكننى كنت على شفا الموت فعلا ؟!

— لكنك لم تمت فعلا ! المهم ما هى وظيفتى على وجه التحديد ؟!

— لقد أصبحت بالفعل رجل أعمال !

— من يقترب من الحداد ينكوى بناره !

— لكن نارى أنضجت كثيرين .. وجعلتهم أساتذة فى مواجهة الحياة !!

— ما هى وظيفتى على وجه التحديد ؟!

— ستحصل على سبعمائة جنيه فى الشهر !

— فى مقابل ماذا ؟!

قدم سعد لمجدى سيجارا فاخرا من العلبة الموسيقية وأشعله له بالولاعة الذهبية :

— أعرف أنك من عشاق السيجار !

— لم أعد أدخن سوى السجائر المصرية !

أطلق نفسا طويلا ذكره بأيام الخارجية والاتحاد الاشتراكى ثم أضاف بنبرات بطيئة واضحة :

— يبدو أنك أعددت لى وظيفة خطيرة بدليل المرتب الكبير .. وبدليل أنك

تتهرب من الإجابة المباشرة !

— بدأت حياتك بأخطر المناصب .. فهى ليست شيئا جديدا عليك؟!

— لست على استعداد أن أدخل المعتقل مرة أخرى !

— المعتقلات أغلقت عن بكرة أبيها ! وأنت تعرف هذا !

— لكن السجون لا تزال مفتوحة !

— من يعمل مع سعد العنترى تفتح له أبواب الجنة لا السجون !

لم يحتمل غروره برغم أنه يتكلم عن الجنة الأرضية التى يتمنى دخولها بعد أن تسربت من بين أصابعه كا لرماد منذ ثلاثة عشر عاما :

— أقبل الوظيفة إذا كانت الضمانات كافية !

— اسم العنترى ضمان لصفقات تجرى بالملايين فى أوروبا وأمريكا .. فهل يعجز عن أن يكون ضمانا لمجدى الطوبجى ! كذلك فإن الوظيفة فى منتهى البساطة .. ستقوم بتسهيل خطابات ضمان من البنك لبنوك أخرى للعملاء الذين نثق فيهم .. وتحرير شيكات مسحوبة عادة على البنك أو على شيكات من البنك المركزى !

— ولماذا البنك المركزى ؟!

— لأن كل بنك له حساب فى البنك المركزى .. ويمكن تدوين الشيكات فى حسابات البنك أو عدم تدوينها طبقا للتعليمات الواردة إليك .. أما الشيكات المقبولة الدفع فتخرج من دفاتر العميل ويوقع عليها العميل نفسه .. أى أن مسئوليتك ستظل محصورة فى الشيكات المصرفية التى تحمل توقيع البنك!

— وهل ستختلف هذه التعليمات من عميل لآخر؟!

— بطبيعة الأمر .. فالعملاء يختلفون فيما بينهم اختلاف بصمات الأصابع ! ويجب أن نحتاط لأنفسنا .. خاصة أن كثرة البنوك العاملة فى مصر وعجز البنك المركزى عن بسط رقابته وسيطرته على أعمالها جعل ضرر هذه البنوك أكثر من نفعها .. كما أن التعاون مفتقد بين البنوك .. وقد كشفت عمليات تصدير البنكنوت الأجنبى عن هذا التفكك الخطير بين عناصر الجهاز المصرفى .. ففى

الوقت الذى يصدر فيه بنك خمسمائة مليون دولار نجد بنوكا أخرى فى حاجة إلى هذا النقد .. وعليك أنت الاتصال بالبنوك الأخرى لنحاول رأب الصدع بقدر الإمكان من أجل صالح الاقتصاد القومى . والحمد لله فقد منح القانون البنوك الاستثمارية فترة سماح من الضرائب قدرها خمس سنوات .. وعلينا أن نجمع أكثر قدر ممكن من الأرباح فى فترة السماح هذه !

ــ وبعد ذلك تقرر الاستمرار أو التصفية ؟!

ــ هل تعتقد أن تصفية هذه الإمبراطورية بالأمر السهل حتى لو أردت ؟! لست مجنونا حتى أهدم ما بنيته ! والحمد لله ستجد البنوك تتسابق للتعامل معنا لحاجتها الشديدة إلى النقد الأجنبى .. ولسمعتنا التى بلغت أوروبا وأمريكا!

ــ لكن ما هى وظيفتى على وجه التحديد ؟!

ــ ستكون نائب مدير عام البنك .. ولكى يطمئن قلبك .. فقد كان يشغل مدير عام الرقابة على البنوك بالبنك المركزى قبل ذلك .. وبالتالى عندما يأتيه موظف من الرقابة للتفتيش فإنه لا يستطيع أن يراجعه فى شيء لأنه تلميذه ! ممنوع خروج أية ورقة من البنك إلا بإذنه .. فهو وحده يملك حق القرار فى كل شيء .. التسهيلات الائتمانية .. صرف أى مبلغ من الحسابات .. وعندما زادت أعباؤه طلب منى تعيين مساعد له فلم أجد أفضل منك بمجرد أن أعطتنى هند رقم تليفونك ! إنك لن تحصل على مرتب كبير فحسب بل ستحصل على خبرة هى فى حد ذاتها ثروة لا تقدر بمال ! وربما خلفته فى منصب المدير العام إذا لم تساعده صحته على الاستمرار !

انفتحت أمام عينى مجدى أبواب عالم سحرى جعله يشعر باليتم فى مأدبة اللئام ، لكن حتى الفتات المتساقط من المائدة يشكل وليمة فاخرة بالنسبة له ! سخر من مخاوفه إذ كيف يخشى العمل مع صديق شخصى لأكبر رأس فى الدولة ؟! لم يعد للمخاوف القديمة محل من الإعراب ! إنه عالم جديد تماما وعليه أن يفهم لغته وقوانينه حتى يعود مرة أخرى إلى قلب الحياة الدافئة الناعمة ! فكر فى المطالبة بأجر أكبر لكنه تذكر أن الطمع يقل ما جمع ! فكر أيضا فى سؤاله عن الطريقة التى

وصلت بها هند إليه لكنها هى شخصيا لم تعد تهمه بقدر ما انصب اهتمامه الجديد على سعد ! قال بانشراح وثقة :

— قبلت الوظيفة .. فأنا أولا وأخيرا سأكون أحد رجالك .. ولا بد أن أكون فى حمايتك !!

— وهو كذلك ! عد إلى هند لإتمام إجراءات التعيين !

نهض مجدى وقد شد على يد سعد بمنتهى الحرارة وقد سار إلى خارج المكتب والسيجار المنطفئ لا يزال بين أصابعه !

استرخى سعد فى مقعده . آه لو يعرف مجدى الطوبجى أنه ينوى الزواج من هند ؟! بل آه لو عرفت شويكار وإن كان قلبها يوحى إليها بمخاوف كبيرة خاصة بعد أن حاولت طردها لكنه تمسك بها ! إذ يجب أن تعرف أن الكلمة الأولى والأخيرة له كما ستعرف فيما بعد أن من حقه أن ينجب ابنا يرث هذه الامبراطورية سواء شاءت أم لم تشأ ! فهو لم يفرط فى حقها فى شىء ! وقلبه يحدثه أن هند ستمنحه هذا الابن!!إنها ليست نزوة طارئة أو رغبة طائشة ، فلم يعد فى قلبه مكان لمثل هذه النزوات والرغبات ! صحيح أنه يشعر براحة كبيرة فى وجود هند لكنه لا يستطيع القول بأنه مدله فى غرامها ! كذلك فهى عقلانية جدا إذ تقبلت تلميحه بابتسامة تحمل كل المعانى فى الدنيا حتى يفعل ما يراه مناسبا من كل الوجوه !

لن يقيم حفل زفاف ضخم ، لكن الأمر سيقتصر على عقد القران فى يخته الخاص الرابض أمام نادى القاهرة لليخت ، ولن يحضره سوى المأذون والشهود وحبذا لو كان مجدى الطوبجى أحد هؤلاء الشهود ! رغبة دفينة لا يستطيع مقاومتها ومع ذلك لا يعرف كيف ينفذها ! لا يستطيع أن ينكر أن شيئا من مجدى الطوبجى لا يزال فى نفسه التى لن تستريح إلا إذا أصبح طوع بنانه ودائرا فى فلكه سواء شاء أم أبى ! وها هو قد عاد إليه طبقا لخطته حتى يجعل منه الأصابع القذرة التى تؤدى المهام التى لا يحب أن تلوثه ، حتى وإن لم تكن هناك أية مخاوف من مثل هذا التلوث !

٢٢

كان صباحا عجيبا مدهشا أعقب ليلة زاخرة بأحلام السعادة والنشوة ، بعد أن أبلغته هند بأجمل وأسعد خبر فى حياته . فقد عادت من عيادة الطبيب الذى أكد لها أنها حامل فى شهرها الثانى . أخيرا انداحت المخاوف التى تلاعبت بدفة حياته لأكثر من عام مضى عليه الآن أن يطرح تخمينات التفاؤل والتشاؤم جانبا إذ أن المجد الذى أقامه أعلى وأقوى وأرسخ من كل هذه الأوهام والخرافات ! إن الامبراطورية التى شيدها لا يمكن أن تقع تحت رحمة نذير شؤم أو تستمر على بشير فأل حسن ، إذ أنها أصبحت من الحقائق الراسخة فى مصر مثل الأهرامات وأبى الهول .

انطلقت السيارة الفارهة المغلقة على هوائها المكيف فى شارع الهرم صوب مدينة نصر ، وقد ترك سعد زوجته هند فى القصر الذى اشتراه وكتبه باسمها ، غارقة فى أحلام الأمومة المنتشية . وكانت آخر كلماته لها قبل أن يهبط على الدرج المرمرى أنه لو رزق بابن فسيسميه أنور أما إذا جاءت بنتا فسيكون اسمها جيهان ، فعلقت ضاحكة : ولماذا لا يكون الجنين توأما : أنور وجيهان ! وعندما يعلم مجدى الطوبجى بالنبأ سوف يدرك أن محاولاته السخيفة لإثارة مخاوف النحس قد باءت بالفشل ! فعندما أخبره بعزمه على الزواج من هند أخبره بأنها امرأة نحس ، فهى عاقر لا تلد كما أنها قضت على مستقبله تماما بعد عامين فقط من الزواج منها ، وأن قصة الحمل والإجهاض التى قصتها عليه أكذوبة رخيصة . لكن سرعان ما غير مجدى الطوبجى اتجاه الدفة عندما أدرك مدى إصرار سعد على الزواج منها ، بل ورحب بالفكرة متمنيا أن يكون قدومها قدم سعد ، وهو يضحك من تلاعبه بلفظ « سعد » !

وعلى سبيل اختبار سعد لمرونة مجدى صارحه برغبته الدفينة بأن يكون هو شخصيا شاهدا على زواجه ، فإذ به لا يبدى أية دهشة أو مجرد نظرة تعجب بل

انطلق يعبر عن فرحته بهذا الشرف المفاجئ الذى لم يكن ليحلم به سواء فى المنام أو اليقظة ! وهو تعليق أثار ارتياح سعد الذى تأكد أنه لم يتبق بين هند ومجدى أية أحاسيس قديمة ، بل ربما كانت الكراهية هى كل ما يربط بينهما ، وهى التى تجلت فى العيون والحركات يوم عقد القران فى الحفل الضيق المحدود الذى أقامه فى يخته الفاخر أمام نادى القاهرة لليخت . فقد كان كل منهما يتفانى فى إسعاده وكأنه يكيد للآخر لدرجة أن مجدى أحاط خصره بشال إحدى المدعوات ورقص عشرة بلدى بالعصا كابن بلد عتيد ! فى تلك الليلة أدرك سعد أن مجدى على استعداد ليبيع نفسه للشيطان طالما أنه سيقبض الثمن ، وبذلك كان اختياره للرجل المناسب فى المكان المناسب !

اخترقت السيارة الفارهة نفق الهرم . فاليوم إجازة رسمية ومعظم الناس لم يستيقظ بعد ، مما جعل شوارع القاهرة الخالية تبدو وكأنها تقع فى مدينة أخرى تتميز بالرشاقة والوسن الجميل . لكن الخواطر المحتدمة داخل سعد كانت قوة طاردة للمرئيات أمامه وحوله فلم تشغله كثيرا وإن كان واعيا بالطريق الذى تكاد سيارته تنهبه نهبا . إنه لا ينسى أن الظروف ساعدت مجدى الطوبجى على إشاعة التشاؤم منذ أول لحظة فى حياته مع هند ، ففى يوم الصباحية دق جرس التليفون فى اليخت ، فمد يده سعد فى تثاقل النائم وهو يسب ويلعن ذلك الثقيل الذى يتصل به فى هذه الساعة ، لكنه بمجرد أن أمسك بالسماعة حتى تلاشت كل أبخرة النشوة والنعاس على صوت أخيه فاروق ينبئه بوفاة أبيه .. ماد الفراش تحته كأن اليخت دخل عاصفة بحرية ونظر إلى هند النائمة إلى جواره فى استسلام ممتع ، وبقايا ابتسامة على الجفون والشفتين ، واسترخاء فى الجسد الممد فى القميص الشفاف الذى تصاعد بأطرافه إلى ما فوق الخصر . كاد يقفز من الفراش خوفا منها ، وكلمات مجدى تتردد فى أعماق وجدانه :

— إنها امرأة نحس .. عاقر لا تلد .. كما أنها قضت على مستقبلى تماما بعد عامين فقط من الزواج منها ! فقد أغلقت كل أبواب المستقبل التى كانت مفتوحة على مصاريعها فى وجهى لكى تفتح أبواب المعتقل الذى ضاعت فيه أحلى سنى

عمرى !

نهض ليرتدى ملابسه غير مصدق ما سمعته أذناه ! كان كمن يرزح تحت وطأة كابوس لا يستطيع التخلص منه بعد أن هبط على رأسه بمطرقة من حديد فبعثر مخه إلى أشلاء متناثرة يحاول إعادة تجميعها بقدر الإمكان !صحيح أن صحة أبيه كانت قد تدهورت كثيرا. مع تقدم السن ، وساءت حالة القلب ، وكان رحيله متوقعا بين يوم وآخر ، لكن ألم يكن هناك وقت آخر لرحيله غير تلك الساعة المبكرة فى يوم « الصباحية » ؟!

تململت هند فى فراشها ثم تقلبت لتستيقظ على منظره وقد أوشك على الانتهاء من ارتداء ملابسه . جلست فى انزعاج شديد متسائل فى لهفة فأفضى إليها بالنبأ الذى سرى فى جسدها برعدة الكهرباء ، ونهضت لترتدى ملابسها حتى تكون إلى جواره ، لكنه نصحها بالتزام مكانها حتى لا تواجه شويكار التى تحولت إلى قنبلة قابلة للانفجار فى أية لحظة ! فرضخت لأمره وهى تبكى حظها العاثر بعد أن ظنت أن الدنيا قد طابت لها مرة أخرى وابتسمت بعد طول عبوس !

أما مجدى الطوبجى فكان حماسه فى المشاركة فى الجنازة ، والإشراف على إقامة السرادق الفخم أمام البيت ، لا يقل عن حماسه فى ليلة الزفاف السابقة . كان ينتقل كالنحلة بينهم بنظرات صامتة تقول له :

ـــ ألم أقل لك إنها امرأة نحس !

أما شويكار فقد أنبأت عيناها الحمراوان بهالاتهما السوداء ، بقضائها الليلة كلها بكاءً على حالها قبل أن يكون على رحيل أبيه. .. وتجنبت بقدر إمكانها أن تلتقى نظراتها الخابية الكسيرة بعينيه الزائغتين خوفا من تلك القابعة فى اليخت !

وفى المساء تألق السرادق بالأضواء الساطعة لاستقبال جمهور المعزين الغفير وفى مقدمته المندوب الشخصى لرئيس الجمهورية وكل الوجوه المألوفة على شاشات التليفزيون وصفحات الصحف والمجلات . كان تجمعا للساسة وأعضاء الحزب ورجال الأعمال بل ومندوبين من أحزاب المعارضة ، ودارت بينهم الأحاديث حول آخر المواقف السياسية ، والصفقات التجارية ، والعمولات المالية ، بل إن

بعضهم شرع فى عقد صفقات جديدة مع البعض الآخر دون إنصات لآيات الله البينات التى كان كبار المقرئين يتلونها بأصواتهم الجميلة . فقد كان العزاء بالنسبة لهم فرصة نادرة لتجمع مثل هذا الحشد وكأنه مؤتمر لرجال الأعمال ! وقام كبار رجال المرور بتنظيم دخول وخروج السيارات من وإلى الشوارع المحيطة بالسرادق . ولعل برد الراحة الوحيد الذى سرى فى عروق سعد الملتهبة كان بسبب هذا الحشد من قادة الدولة ورءوس الحكم ، والذى أعاد لأبيه أضعاف أضعاف الكرامة التى فقدها على يدى الثورة عامة وحسين الطوبجى خاصة . يكفى أن ابنه يقف إلى جواره لاستقبال المعزين كما لو كان أباه بصرف النظر عن صدقه أو نفاقه !

مضت أيام المأتم ليترسخ فى داخل هند أن كسرا ما أصاب علاقتها الحميمة بسعد الذى شرع فى تجاهلها كأنه يضمر فى نفسه شيئا . لكن الحياة المريرة التى خبرتها ومنحتها القدرة على المبادرة والمواجهة مكنتها من مفاتحته فى الموضوع حتى بلغت قراره . تحسست خطواتها بحذر شديد من نقطة الابتداء عندما عاد إليها بعد المأتم وكأنه أصبح شخصا مختلفا تماما ، وحرصت على تمهيد الطريق وهى واثقة من أن مجدى لا بد أن يكون قد زرع ما يمكنه من ألغام . فما فعله ليلة عقد القران فاق كل حيل كيد النساء وإن كانت قد ردت له الصاع صاعين بحركات الغرام والوله التى أغرقت بها سعدًا عندما راقصته على أنغام الموسيقى الحالمة وقد ألقت برأسها على كتفيه فى نعاس شديد برغم عينيها شبه المفتوحتين !

فجأة وجد سعد هند وهى تواجهه بسؤال كسهم محكم التصويب :

ـــ ما ذنبى إذا تصادف رحيل أبيك يوم « الصباحية » ؟! فهو لم يمت أثر حادث أليم أو اختطفه الموت فى عنفوان شبابه أو مات غيلة وغدرًا ! كنتم تتوقعون موته بين يوم وآخر بحكم تقدمه فى السن والأمراض التى تكالبت عليه منذ أكثر من عشرين عاما !! لكننى أدرى بطبيعتك .. فأنت من الذين يقعون دائما بين شد التشاؤم وجذب التفاؤل ... ولا بد أننى كنت ضحية تشاؤمك ! ولا بد أن الآخرين استغلوا هذه الثغرة للتسلل إلىّ وحربى ! إذا كنت تشعر أننى سأجلب لك النحس فأرجو أن تتخلص من هذا النحس .. لأن مثل هذا النحس سيصيبنى

أنا لأننى أعمل عندك وأعيش فى خيرك !

حاول سعد أن يجمع شتات أفكاره فى مواجهة هجومها الكاسح بحثا عن كلمات مناسبة لكنها واصلت زحفها :

ــ مجدى الطوبجى لم يطلقنى لأننى أصبته بالنحس .. ولكنه طلقنى لأن الخيانة تجرى فى دمه .. أراد أن يهرع لركوب الموجة الجديدة بالتضحيــة بى بمنتهى البساطة ! لكن هل انداح عنه النحس بتطليقى ؟! حاول الهرب إلى لبنان فقبض عليه وألقى به فى المعتقل ! أما أنت برغم تفاؤلك وتشاؤمك لم تربط بين شويكار واعتقالك .. بل ظللت وفيا لها حتى استعدت كل أمجادك وأقمت إمبراطوريتك ! إن الشخصيات القومية التى تصنع مصير البلد مثلك لا يمكن أن تقيس الأمور طبقا للحظة الراهنة ! وإلا تضاربت قراراتها وضاعت معالم الطريق أمامها !

لم يتصور سعد أن تكون هند بمثل هذا النضوج الفكرى . خجل من نفسه ومن تلاعب مجدى بهواجسه ومشاعره فقال بنبرات مترددة :

ــ أبداً .. أنت تعلمين مدى الحب الذى كان يربط بينى وبين أبى !

ــ لو مات فى عهد الملكية لما تلقى عشر التقدير الذى تلقاه !

أضاءت إشارة المرور الحمراء عند كوبرى الجلاء فتوقف بسيارته التى لمحها الشرطى الذى أسرع بإفساح الطريق لها بإشارة يده برغم الضوء الأحمر ونظرات الواقفين والراكبين الناضحة بمشاعر الحسد والإعجاب والانبهار والحقد والتذمر ! انطلقت السيارة الفارهة صوب كوبرى أكتوبر وهو ينظر إلى الخمسة والخميسة المعلقة فى حامل المرآة بخرزها الأزرق !

كانت أياما عصيبة تطايرت فيها نذر الشر التى اجتاحت سعدًا بكآبة عارمة لولا الخبر السعيد الذى شنف به آذانه فى الليلة الماضية . كانت أحداث الزاوية الحمراء ثم إغلاق صحف المعارضة والقبض على معظم رجال أحزابها ، واعتقال الكتاب والمفكرين والسياسين القدامى وأساتذة الجامعات ورجـال الديـن الإسلامـى والمسيحى ، كل هذا وغيره قد وضع البلد كله على فوهة بركان . ولولا ثقته فى مهارة السادات السياسية وقدرته على احتواء الأمور بطريقة أو بأخرى ، لفقد

الأمل فى الخروج سليما من هذا الطريق المعتم المسدود الذى لا يمكن فتحه إلا بانفجار هائل يسمعه الدانى والقاصى !

انطلق على كوبرى أكتوبر ليلمح بعض سيارات كبار المسئولين السوداء وهى تكاد تسابقه صوب ميدان رمسيس . تمنى من أعاق قلبه أن يخرج السادات منتصرا من هذا المأزق التاريخى كما خرج من قبل فى ثورة التصحيح ، وطرد الخبراء السوفييت ، وحرب أكتوبر ، ومبادرة السلام ، ومعاهدة كامب ديڤيد . فما يجرى هذه الأيام لا يزيد فى خطورته عن الأحداث الجسام التى مر بها السادات من قبل ، ولا يستعصى على عبقريته السياسية الكفيلة بتغيير اتجاه دفة الأمور فى لحظة من الزمن ، ولعل هذه اللحظة تكون قد حانت حتى لا يتكاثر عدد الصائدين فى الماء العكر ، فكفانا ما جرى لنا منهم !

استقامت الأمور بينه وبين هند فى حين اعتادت شويكار الوضع الجديد إذ رأت أن الأمور كانت يمكن أن تسير إلى أسوأ من هذا بكثير وإن كان يشعر فى قرارة نفسه بأن قلبها غير راض عنه . لكن طالما أن المظاهر تسير على خير ما يرام فليس هناك ما يقلقه بهذا الخصوص . وهى تعلم علم اليقين أنه لم يكن ليتزوج لو أنجبت هى له ، بل إن هند نفسها غير متدلهة فى حبه ، إذ أن الصدمات التى مر بها هذا الجيل قضت على طاقة الحب عنده ، بل إن قصص الحب الدامى والغرام المأسوى التى كانت تدر دموع الأجيال السابقة ، أصبحت الآن مثيرة للضحك والسخرية ، فقد انتقلنا من عصر القلب إلى عصر الكومبيوتر ! نهبت السيارة شارع رمسيس نهبا . أدار مفتاح المذياع فصدح بأغنية وطنية حبيبة إلى قلبه :

ـــ سينا رجعت لينا تانى ومصر اليوم فى عيد .

تكاثرت السيارات السوداء الرسمية حولها فى طريقها إلى مدينة نصر . وعلت أبواق دوريات الشرطة وانتشر رجال الشرطة العسكرية عند نواصى الشوارع . احتياطات الأمن هذا العام أشد قسوة وصرامة من الأعوام السابقة . عند تخوم مدينة نصر بدت كمنطقة عسكرية . نقاط التفتيش منتشرة عند كل المداخل . أخرج سعد تذكرة الدعوة من درج السيارة ومعها تحقيق الشخصية وبطاقة الأمن

ليراها رجال الشرطة والأمن ، لكن بعضهم عرفه فرفع يده بالتحية العسكرية رافضا أن يطلع على الأوراق التى امتدت بها يده من نافذة السيارة التى سارت الهوينى فى طابور السيارات الرسمية والفاخرة فى طريقها إلى ساحة الوقوف .

ترجل سعد سائرا إلى المنصة حيث حياه بعض رجال الأمن الذين يعرفونه شخصيا . تسلم أحدهم بطاقة الدعوة وسار أمامه صاعدا درجات المنصة التى امتلأت معظم مقاعدها بعيون القوم الذين حيا من يعرفه منهم يمنة ويسرة ، وقد سعد لسماع بعض الهمسات التى أشارت إليه من طرف خفى بأصابع الأهمية : هذا هو سعد العنترى لكنه لم يسعد عندما وجد المقعد المحجوز له واقعا فى آخر صف أعلى المنصة . كان فى الأعوام السابقة يجلس فى الصف الرابع أو الخامس على أكثر تقدير ، أما هذا العام فيبدو أن حساده والناقمين على نجاحه فى دائرة السلطة ، قد نجحوا فى محاولة تحجيمه بإجلاسه فى آخر صف . عموما فهذه كلها شكليات هو كفيل بها فيما بعد، خاصة وأن حجمه أصبح أكبر من أن يمس بدليل الهمسات التى بلغت أسماعه ونظرات بعض من لا يعرفهم عندما يستديرون إلى الخلف كى يشاهدوا الإمبراطور الذى ترددت أسطورته على كل الأسماع !

توافد المسئولون المدنيون والعسكريون وكبار القوم حتى امتلأت المنصة عن بكرة أبيها ، وعدسات المصورين تومض هنا وهناك ، وابتسامات الجالسين وتحيات الواقفين تتطاير فى فراغ المنصة إلى أن سمعت أبواق موكب الرئيس القادم حيث توقفت السيارات السوداء بالقرب من نصب الجندى المجهول ليهبط الرئيس ومعه النائب ليسيرا بخطوات عسكرية محاطين بوزير الدفاع ورئيس الأركان وقادة الأسلحة والمارشات العسكرية حتى بلغوا النصب ليضع الرئيس إكليل الزهور ، وتنطلق الأبواق تحية لمن بذلوا حياتهم فداء للوطن .

انتهت المراسم ليعود الرئيس مرفوع الرأس ، ممشوق القوام فى زى القائد الأعلى ، واثق الخطوة يمشى ملكا مزهوا بالنصر ومعه الكوكبة العسكرية ، وقلوب المنصة تهفو حولهم ، حتى استوى على مقعده فى الصف الأول وإلى يمينه النائب وإلى يساره وزير الدفاع والقائد العام للقوات المسلحة ، ليبدأ العرض العسكرى

الكبير على أنغام فرقة الموسيقات العسكرية بعد أن انتهى وزير الدفاع من إلقاء خطابه .

لم تكن نظرات سعد على طوابير العرض العسكرى ومركباته ومعداته بقدر ما كانت مركزة على الصف الأول حيث استوى الرئيس . تدفق قلبه حبا لهذا الرجل الذى منحه خاتم سليمان أو مصباح علاء الدين ليحقق به الأحلام التى لم تكن تراود أمراء ألف ليلة وفرسانها ! إن الحصان الطائر أو البساط السحرى وغيرهما أشياء تبدو عاجزة عن تحقيق ما حققته سياسة هذا الساحر الأسطورى الذى يتابع الآن عرض جيشه المنتصر ! إن سحره وإشعاعه ونجوميته تفوق كل وصف ، ولا شك أن المتاعب التى وقعت فى الأيام الأخيرة ليست سوى فقاقيع سرعان ما تنفجر وتتلاشى بمجرد أن تسطع عليها شمسه كما هى ساطعة الآن فى هذا اليوم التاريخى ! وحمل هند ليس سوى بشرى لحلول أيام جديدة جميلة كما هى العادة دائما مع السادات.

كان السادات ينهض ليحيى كل قادة الفرق الذين يتوجهون إليه بالتحية فى أثناء مرورهم أمام المنصة ، وفجأة اقتربت سيارة جيب تحمل أربعة جنود وقف أحدهم فنهض الرئيس لتحيته ، وعندما ازدادت فى اقترابها لم يرفع يده بالتحية وإنما رفع مدفعه الرشاش وصوبه تجاه الرئيس الذى نطق بكلمات غير واضحة لكنها امتزجت بالطلقة التى استقرت فى عنقه لتتدفق الدماء على زيه العسكرى مع أزيز طائرات العرض ، لكنه ظل شامخا حتى الطلقة الثالثة ليسقط على مقعده والجندى يقفز حتى المنصة ويواصل رشه بالرصاص فى حين لحق به زملاؤه الثلاثة ليتناوبوا فتح نافورة الرصاص على الصفوف الأمامية ، وتتدفق نافورة الدماء ، وتتحول المنصة إلى قطعة من الجحيم ، وتنطلق الصرخات والصيحات والآهات الذبيحة مع دوى الرصاص الذى قعقع كهزيم الرعد لتهطل الأمطار الحمراء دون أن يتصدى أحد لهذا الطوفان ! فقد تساقط البعض قتيلا أو بين الحياة والموت ، فى حين اختبأ البعض الآخر متكورا تحت المقاعد أو ممددا على الطرقات ، والقلوب التى لا تزال تنبض فى صلاة عميقة حتى يخرج بها الله من هذا الكابوس الحى .

لم يفكر سعد فيما يجرى فقد أصاب الشلل كل خلايا المخ بل وجد نفسه أسفل

المقعد محاطا بالصرخات والآهات والطلقات ، لعله يستيقظ من الكابوس فيجد نفسه فى فراشه فيحمد الله على نجاته . لكن الكابوس لم ينقشع ومرت اللحظات بثقل الرصاص ، فلم يملك سوى أن يكرر بضراعة مبحوحة :

ـــ يا رب .. يارب .. يارب !!

شهق سعد ثم صرخ عندما وجد الدماء تلطخ قميصه السماوى وحلته الحريرية البيضاء ، وأوحت إليه سخونة الدماء ولزوجتها أن الرصاص اخترق صدره فتحسسه ليكتشف أنها دماء هاطلة مع هزيم الطلقات ودويها المتطاير بالرعب والهلع ! فجأة أظلمت عينه اليسرى فظن أنها أصيبت بالعمى ، تحسسها بأصابعه المرتعشة فبدت المرئيات من خلالها حمراء داكنة ممزوجة بدموع غليظة لا تريد أن تنساب ! اختلطت عليه الأمور فهو يريد أن يصدق ما جرى وفى الوقت نفسه لا يريد أن يصدقه ! هل هو يوم القيامة ؟! كان يتسلى مع أقرانه فى المدرسة قبل أن يطرد منها بذكر الرعب الذى ارتبط بمذبحة المماليك التى أقامها محمد على فى القلعة على سبيل الإثارة والطرافة ، فهل كان يتصور بعد أكثر من قرن أن يشهد بنفسه مذبحة المنصة ؟! ويرى ذراعا دامية مجهولة ملقاة إلى جواره !

سرى السكون باستثناء أبواق السيارات ومحركاتها وصيحات كأنها أوامر هنا وهناك . انتظر حتى يتأكد من انقشاع رعد الرصاص ومن القبض على الجناة ! سمع وقع أقدام متخبطة على طرقات المنصة ثم صوت رجل فوق رأسه :

ـــ هنا جثة أخرى تحت الكرسى ! وذراع مقطوعة مجهولة الصاحب !

نظر سعد أعلاه فوجد الرجل يشير إليه وقد أمسك بيسراه مسند نقالة يبدو أن آخر كان ممسكا بطرفها الآخر . رفع سعد رأسه قائلا فى نبرات مرتعشة :

ـــ لم أمت ؟!

سأله الرجل فى لهجة صارمة :

ـــ مصاب ؟!

تحسس سعد صدره ووجهه وذراعيه :

ـــ لا أعتقد !

أقامه من تحت المقعد فنهض بساقين مرتعشتين ، وسار متكئا على ذراعه كرجل تخطى التسعين .. كانت المقاعد متناثرة وسط بعض الجثث التى امتزجت ببعض قطع الخشب والحديد المطلية بالدماء القانية ، فى حين أسرع بعض رجال الإسعاف بمحفاتهم لنقل الموتى والمصابين إلى عربات الإسعاف التى فتحت أفواهها أسفل المنصة لابتلاعهم والانطلاق بهم بعيدا . سأله الرجل :

ـــ هل تحتاج لعربة إسعاف ؟!

نظر سعد حوله بعينين زائغتين :

ـــ سأحاول البحث عن سيارتى .. شكرا !

سار سعد بمفرده وهو ينظر إلى الدنيا التى اكتسبت حمرة غريبة . جاء أحد رجال الأمن فأمسك بيده إذ يبدو أنه عرفه وقاده إلى موقع وقوف السيارات .

كانت الشمس لا تزال ترسل أشعتها الذهبية البراقة وسط هبات نسيم الخريف الوادع وكأن شيئا لم يكن !

٢٣

استيقظ سعد العنترى من كابوس الدم على كابوس القلق ! إنه يعلم أن حسنى مبارك كان نائبا لأنور السادات، لكن هويته الاقتصادية والسياسية والاجتماعية لم تتضح بعد . فمثلا عندما تولى السادات بعد عبد الناصر كانت أول جمله قالها فى أول خطاب له فى مجلس الأمة :

ـــ جئتكم على طريق عبد الناصر !

صحيح أنه انحرف عن هذا الطريق تماما عند أول منحنى ، لكنه على الأقل أعلن عن هوية ما وإن لم تكن حقيقية ، أما حسنى مبارك عندما سأله أحد الصحفيين الأجانب عما إذا كان متأثرا بمنهج عبد الناصر أو بمنهج السادات فإنه أجاب :

ـــ أنا اسمى حسنى مبارك !

وهى إجابة تضاعف القلق ولا تطفئ نيرانه ، خاصة وأنه تحدث عن طهارة اليد والطهارة الثورية وغير ذلك من الشعارات التى لم تذكر أيام السادات التى مرت كالحلم الجميل! صحيح أنه لم يراع القواعد المصرفية والقوانين المالية من أجل دفع الاقتصاد القومى بسرعة خارقة تعوضه عن كل ما فاته ، لكن لو تغلغلت هذه اليد التى ترفع شعار الطهارة بقوانينها المتحجرة وإجراءاتها الروتينية إلى دهاليزه المعتمة لأصابه ما أصابه يوم تم إلقاء القبض عليه ووضع محل الشوارلى تحت الحراسة ثم اعتقاله !

آه ! لا يعرف لماذا يطارده شبح صلاح خلف كثيرا فى هذه الأيام ؟ كما تطارده نظرات مجدى الطوبجى ألتى تمزج نشوة التشفى المكبوتة بالخوف من احتمالات المستقبل الغامض ، لدرجة أنه فكر مرارا فى تطليق هند برغم حملها ، إذ ما حدث يوم المنصة يؤكد ما قاله مجدى عنها من قبل ؟! لكن هذا الموضوع برغم إلحاحه على وجدانه ليس قضية الساعة التى تتمثل الآن فى سؤال يقلق منامه ويعكر صحوه :

ماذا يمكن أن يفعل لو دارت الدوائر ووجد نفسه فى مواجهة قطار الطهارة الثورية ؟! صحيح أنه وضع الهروب فى اعتباره بحيث أصبحت كل أوراقه هو وشويكار جاهزة استعدادا للواقعة إذا وقعت ، وأخفى الموضوع برمته عن هند لأنه لا يعقل أن يصطحب النحس معه إلى خارج البلاد أيضا ! لكنه يشعر فى الوقت نفسه أن عيونا خفية ترقبه حتى فى دهاليز البنك نفسه ، فهل يمكن أن يرتكب غلطة مجدى الطوبجى ويظن أن السلطات غافلة عنه حتى يقبض عليه وهو على الطائرة التى على وشك الرحيل لتصبح بعد ذلك فضيحته بجلاجل؟ لقد راودته فكرة السفر بلا عودة كثيرا ، لكنه تخلى عنها عندما علم أن صلاح خلف قد عاد إلى إدارة مكافحة جرائم المال بالداخلية والتى أعاد إليها الحيوية والنشاط ، وألحق بها من الخبراء والعاملين عددا يمكن أن يرصد كل سكنات وحركات وهمسات ومكالمات كبار رجال الأعمال . ولذلك امتنع سعد عن حديث العمل بالتليفون الذى اقتصر على تحديد المواعيد واللقاءات . فهو بالذات لا بد أن يكون على رأس القائمة التى قد يكون صلاح قد أعدها لتطبيق مبدأ طهارة اليد . فهل يعقل أن يظل سعد حبيس ظنونه وهواجسه كالفأر أمام القط المستمتع بمراوغته قبل التهامه ؟! لماذا لا يواجه قلقه فى عقر داره ويزور صلاح خلف بحجة التهنئة بالعودة إلى مجال تخصصه الأثير ، وتقديم خدماته ومساعداته الممكنة ، فربما التقط منه ما يشفى غليله !!

لقد فعل سعد كل ما يمكنه كى يحصن نفسه ضد كل الاحتمالات المتوقعة ، فكل أوراق البنك ومستنداته كاملة وقانونية ، ويمكن مواجهة أى مفتش ! لكن المشكلة أن عالم المال والتجارة حافل أيضا بالاحتمالات غير المتوقعة ! ولا بد أن صلاح خلف متربص الآن للانقضاض فى اللحظة المناسبة ، لكنه لن يمنحه هذه اللحظة أبداً ، كما أنه لن يفر خارجا كالفأر المذعور حتى لا يتيح له فرصة توجيه الضربة القاضية إليه ، والتى يحلم بها منذ زمن بعيد !

ندم سعد على أنه لم يواصل صداقته لصلاح حتى بعد أن تسبب فى نقله إلى كلية الشرطة ! لكن هل كان يظن أن دورة الزمن ستعود لتربط بينهما مرة أخرى ؟! لقد شعر فى فترة سابقة أن الدنيا قد دانت له وأنه يستطيع أن يتحكم فى مصائر البشر

بمجرد مكالمة تليفونية لا تأخذ من وقته الثمين أكثر من دقائق معدودات ، فهل كان من الممكن أن يضع صلاح خلف وأمثاله فى اعتباره لعل وعسى ؟!

لم يتعود سعد البكاء على الأطلال لأنه اعتاد الإمساك بزمام المبادرة فى يديه . وها هو يفيق من كابوس مذبحة المنصة ، ويذهب إلى عدوه فى أرضه كما فعل السادات يوم ذهب إلى إسرائيل بنفسه . لكنه تشاءم من المقارنة خوفا من أن يلقى مصير السادات !

كانت زيارة وعرة حافلة بالهواجس ، والمخاوف ، والمناورات ، وجس النبض ، واختراق دفاعات الخصم بحرص وصمت ، وأوشك غرور سعد أو بقايا غروره أن تصور له نجاحه فى تحييد صلاح وتأمين جانبه إلى حد ما ، لكن القنبلة التى ادخرها صلاح حتى نهاية الزيارة أكدت له خطأ تصوراته ، وحتمية مراجعة حساباته حتى يقلل نسبة الاحتمالات غير المتوقعة إلى أدنى حد . كان سعد قد دخل شقة صلاح التى لا تزال على تواضعها ، تاركا على المنضدة الخشبية الصغيرة عند الباب هدية ملفوفة فى غلاف ذهبى ، لم يعلق عليها صلاح وهو يرحب به برقة لم يتوقعها !

فى غرفة الصالون انهال سعد على صلاح بكل الكلمات والتعبيرات المشحونة بالمشاعر الجياشة والعواطف المتدفقة التى تقبلها صلاح بتحفظ واضح أضاع تفاؤل سعد بقبول صلاح للهدية فى صمت . ابتسم سعد فى حرج :

— لم نلتق منذ زرتنى فى محل الشواربى لتتأكد من موتى !!

لم يستجب صلاح لدعابته المستفزة :

— لم يكن هناك ما يدعو إلى اللقاء !!

— وصداقة العمر ؟! أليست كافية لتكرار مثل هذا اللقاء ؟!

— لم تكن لقاءاتنا سعيدة .. ولذلك وفرت عليك ذكريات الماضى الأليم !

— أنا لا أتكلم عن الماضى الأليم وإنما عن المستقبل المشرق !

— المستقبل بيد الله !

— ونعم بالله .. لكن الله منحنا إرادة لنشارك فى صياغة هذا المستقبل !

— كيف ؟!

لم يسترح سعد لبريق عينيه الأسود والسؤال المقتضب من بين شفتيه الداكنتين وشاربه الغليظ ، فتسلح بكل طاقات الدهاء عنده :

— أستطيع أن أفيدك فى مجال عملك لأنه فى الواقع مجال عملى أيضا !

ربت صلاح بكفه على شعره الأكرت الذى تسلل إليه البياض :

— كيف ؟!

أزاح سعد خصلة ارتمت بصفرتها الداكنة على جبينه الذى استسلم لبوادر الصلع :

— يمكننى أن أمدك بأية معلومات عن دهاليز الاقتصاد التى أعرف كل خفاياها وخباياها !

تذكر صلاح كيف كان سعد يمد اللواء صقر بكل المعلومات الممكنة عن زملائه فى المعتقل ، وكيف عرف بعد ذلك أنه واصل نفس المهمة بالنسبة لزملائه التجار فى الشوارلى . تساءل :

— هل يمكن أن تمنحنى أمثلة محددة من المعلومات الممكنة ؟!

شعر سعد بمواطن خطر غامض يجذبه صلاح إليها ، لكنه تذكر أنه واجه الموت نفسه ذات يوم فى المعتقل واستطاع أن ينقل صلاح خلف من منصبه وهو فى قمة ضعفه كما تمكن من نقله بعد ذلك إلى كلية الشرطة وهو فى قمة مجده ! إذاً فهو قادر على التحرك والتأثير سواء أكان بلا حول ولا قوة أم كان فى عنفوان جبروته . قال :

— يمكن أن أكون دليلك إلى كبار تجار العملة وبعض مديرى البنوك الذين يفسحون لهم المجال .. وملوك التلاعب بطرق الإيداع والسحب والتحويل والتسهيلات الائتمانية بدون ضمانات تذكر .. ولعبة الاعتماد الداخلى بين بنك وآخر بغلاف من الائتمان الظاهرى والذى لا يكتشفه أى خبير .. وفتح الاعتماد من الخارج بصفة مستمرة وركن البضاعة فى المخازن والسحب عليها من البنك !

صمت سعد ليلتقط أنفاسه اللاهثة ويدرس وقع كلماته على وجه صلاح الذى ظل صامتا وقد اتسعت شهيته لمزيد من المعلومات . اختتم سعد كلماته :

— وأنا دائما فى خدمة اقتصادنا القومى ! على الأقل أرد لبلدى بعض ما له فى عنقى ! بالإضافة طبعا إلى مارددته دائما فى صورة مشروعات قومية وتمويل مشروعات بطول البلاد وعرضها !

— أنا الآن مهتم بعمليات المضاربة على المعادن النفيسة لحساب بعض البنوك .. برغم صدور تعليمات البنك المركزى بمنع مثل هذا النوع من المضاربات !!

تجنب سعد نظرات صلاح لعله يقصده هو ، فقال وعيناه على البساط الباهت تحت حذائه اللامع :

— سأجمع لك كل المعلومات المتصلة بهذا الموضوع الذى أسمع عنه لأول مرة منك !

ابتسم صلاح ابتسامة لم ينجح سعد فى تحديد دلالتها :

— عجيب أن رجل أعمال وأموال مثلك لا يعرف أن هذا النشاط ابتدعه اليهود لابتلاع أموال العرب .. وأن من يمارس هذه المضاربة دون وعى أو خبرة بكل خفاياها لا بد أن يتسبب فى خسارة بالملايين !

توخى سعد الحذر بالتزام الصمت الذى قطعته وفاء بدخولها حاملة صينية الشاى والكيك فى رقة باسمة لتضعها أمام سعد الذى تأملها :

— فى أية سنة دراسية ؟!

أجابت فى خجل رقيق :

— أولى ثانوى !

— وفقك الله !

أومأت شاكرة ثم استدارت لتخرج . ألقى صلاح بالقنبلة التى كان يحتفظ بها للحظة يخرج فيها ما يمكن من مكنونات سعد :

— على كل حال .. لن تكون مصدرى الوحيد للمعلومات .. فقد زارنى مجدى الطوبجى منذ أكثر من شهر وعرض علىّ خدماته .. ورحبت به أيضا .. إذ أن المصادر المتعددة تمنح فرصة المضاهاة والمقارنة والخروج فى النهاية ببيانات مؤكدة

أو شبه مؤكدة !

استعاد سعد ذكرياته مع مجدى ، خاصة فى المعتقل ، كوميض البرق ، فلم يذهل لكنه ندم على الاستعانة بـه فى البنك ! أى شيطان وسوس له بهذا ؟! لكنه لا ينسى أنه أراد أن يجعل منه الأصابع القذرة التى يمكن أن تحترق نيابة عنه ! أفاق على تساؤل صلاح :

ـــ يبدو أنه لم يخبرك بزيارته لى ؟! كنت أظن أنه اتفق معك على هذا ؟! وعندما أتيت اليوم لزيارتى تأكدت ظنونى !

لم يدرك سعد مدى الخبث أو الدهاء أو البساطة فى تساؤلات صلاح فقرر المزيد من التحفظ :

ـــ مجدى مجرد موظف عندى .. وأنا لا أضع حجرا على تحركات الموظفين .. فأنا أقدس الحرية الشخصية .. كما أننى لا أخطط مع أمثال مجدى .. فلازلت قادرا على التعامل مع أعلى مستويات الدولة !

تذكر صلاح كيف طرده سعد من وظيفته فى صورة نقله إلى كلية الشرطة حتى يأمن بطشه ! وها هو الآن يحاول أن يوحى إليه بأنه لا يزال مهما وخطيرا وعليه أن يأمن شره إذا تربص به !وهو لا يعلم أنه يعلم أن كل قنواته إلى قمم السلطة قد سدت وجفت تماما ! طفحت على ذاكرة صلاح أيام العنجهية الأرستقراطية الإقطاعية القديمة والتى تركت إقطاع الأرض لتشمخ فى إقطاع المال بوقاحة منقطعة النظير . قال صلاح :

ـــ أما أنا فمجرد موظف أو خادم لهذه الدولة .. فقد علمنى أبى الرجل البسيط الفقير المتواضع أن أمثالنا لا يملكون شيئا يحققون به ذواتهم سوى التفوق فى أداء الواجب !

ها هو يعود إلى نغمة الواجب القديمة المملة لكن سعدا استدرك :

ـــ العفو .. العفو ! لم أقصد شيئا من هذا !

ثم نظر إلى ساعته ونهض ليستأذن إذ أدرك أن أى وقت أطول من الذى قضاه

فى هذه الزيارة لن يكون فى صالحه . قال وصلاح ينهض بدوره :

— سأجمع لك كل المعلومات الممكنة عن عمليات المضاربة على المعادن النفيسة .. وتحت أمرك فى أية خدمات أو مساعدات أخرى !

خرج سعد إلى الصالة ومعه صلاح الذى لمح الهدية التى لا زالت مكانها . كان على وشك أن يردها إليه حتى لا يظن أنه قبل رشوة منه خاصة وأن حاسته البوليسية أخبرته بقيمتها الثمينة ، لكنه خشى أن يرتفع بينهما حاجز سميك وعال يدفعه إلى الحيطة والحذر منه أكثر من اللازم ، وابتكار طرق جديدة للتخلص من الحصار الذى يضيق الخناق عليه يوما بعد يوم . شد صلاح على يد سعد فى حرارة :

— شرفت وآنست .. وأرجو أن نكون على اتصال دائم سواء بالزيارة أو بالتليفون !

— وهو كذلك !

خرج سعد ليركب سيارته الفارهة وصورة مجدى الطوبجى الكريهة لاتفارق مخيلته ! لا يزال النجس يلعب بذيله ! هل يطرده ؟! لكن طرده سيمنحه فرصة الهروب بجلده ، وربما خرج بأسرار البنك ليبيعها لصلاح أو لأى مشتر ، وليجعل من نفسه بطلا وشهيدا فقد وظيفته ومستقبل حياته من أجل طهارة اليد التى ينادى بها الرئيس الجديد ! لا يا مجدى يا طوبجى ! لن أمنحك فرصة عمرك لتدعى أننى أجبرتك على التوقيع على أوراق مخالفة للقانون ! لن تخرج من دائرتى الجهنمية التى خططت لأدخلك فيها ، و لم تتردد لحظة فى الدخول ! فأنا أعرف معدنك الرخيص برغم أننى علمتك المضاربة على المعادن النفيسة ! وطالما أنه ليس للخسة والوضاعة والخبث والدهاء والانتهازية والطعن فى الخلف حدود ، فقد قررت أن أضاعف لك مرتبك نظير المهام الخطيرة التى تنهض بها لترقيتك مديرا عاما للبنك ! وهى المهام التى لا أعلم عنها شيئا كما هو مثبت فى الدفاتر التى لا تعلم أنت عنها شيئا ، المهام التى هى من اختصاصك وحدك ، وإذا وقعت ستكون من اختصاصك وحدك أيضا ! كنت على استعداد دائما أن تبيع نفسك للشيطان ، فهل يمكن أن ينقذك إذا دارت

الدوائر ؟! أما هند فلن أطلقها حتى لا تظن أنك قادر على التلاعب بى ، فلا بد أن تعرف حدودك وتلزمها ! لن أطلقها حتى لو انهارت الدنيا على رأسى ورأسك ! يكفى أنها تحمل ابنى فى أحشائها ! فالمال ليس كل شىء فى الحياة وإنما البنون أيضا ! فلن أرتكب حماقتك يا نجس !

انطلقت السيارة الفارهة بكل عنفوانها ، لكنها لم تنجح فى أن تطأ بإطاراتها الثقيلة علامات الاستفهام والقلق والتوتر والتساؤل والحيرة المتطايرة أمامها على الطريق !

٢٤

وقعت الواقعة التى فتحت الثغرات فى الجدار الهش الذى وجه إليه صلاح خلف مدفعيته الثقيلة بلا تردد أو رحمة . كان سعد قد اعتاد فتح خزائن البنك لعملائه من تجار العملة دون ضمانات جدية أو دراسات ائتمانية لينهلوا منها ما شاءوا . وكان البنك بمثابة المظلة التى احتمى بها تجار العملة بناء على التعليمات الصادرة من وزارة الاقتصاد لرجال مكافحة تهريب النقد وجرائم المال بعدم إجراء الضبط داخل صالات البنوك ! وتحت هذه المظلة عاث سعد العنترى فى الاقتصاد القومى فسادا ، ومنح تسهيلات ائتمانية ينوء بها كاهل البنك ، فوقعت الواقعة وتوقف عن الدفع ! عندئذ انكشف المستور ، ووقع زعيم ما فيا الانفتاح فى مأزق ليس منه مخرج . ففى غمرة نشاطه المحموم ظن أنه أصبح فى حصن حصين من أن يخترق دفاعاته أى خصم مغرور ، وبلغ حجم تعامله أكثر من مليارى جنيه فى العام ، فلم يف بحق الدولة من الضرائب والتى زادت على عشرة ملايين من الجنيهات إذ أخفى نوعيات نشاطه و لم يخطر عنه مصلحة الضرائب محاولا بذلك الإفلات بالغنيمة كلها ! كذلك فإن تجميعه لمدخرات المصريين بالخارج أدى إلى المضاربة على سعر الصرف ، وعرقل مهمة البنوك القومية فى تجميع تلك المدخرات التى لم تصب فى النهاية فى قنواتها الشرعية ، مما أدى إلى ارتفاع الأسعار ، وتوارى الجنيه المصرى بعد اغترابه فى وطنه فى مواجهة الدولار ، وانخفاض قيمته يوما بعد يوم ، وضياع أموال المودعين الذين ظنوا أن أموالهم فى أيد أمينة تحت إغراء سعر الفائدة المرتفع ، فإذا بها كرات بين أقدام تجار العملة والأفاقين دون ضمانات !

أعد صلاح خلف بلاغ مباحث أمن الدولة إلى نيابة الشئون المالية ، تضمن كل أسرار عمليات العنترى المريبة : تهريب النقد والاتجار فى العملات الأجنبية بالسوق ، والمضاربة على المعادن النفيسة ، وعلى سعر الصرف ، وكان الاتهام

موجها إلى سعد العنترى وأخيه فاروق ومجدى الطوبجى وشويكار زوجة سعد وفايزة أخته الصغرى ، وأنهم يعتزمون تهريب أموالهم والسفر إلى الخارج مما دعا وزارة الداخلية إلى إدراجهم على قوائم الممنوعين من السفر . وأضاف صلاح خلف فى بلاغه أن إدارة المخاطر بالبنك المركزى المصرى أفادت بأن المدعو سعد العنترى قد منح عملاءه سواء فى الداخل أو فى الخارج تسهيلات ائتمانية كبيرة بعضها بدون ضمان مما كشف أمره فى النهاية ، برغم أنه حاول إلصاق كل هذه العمليات المريبة بمجدى الطوبجى ، لكن عنصر التواطؤ واضح بين كل المتهمين حتى لو حاولوا إنكاره بكل الأساليب والحيل ، وبرغم ترقية سعد لمجدى الذى أصبح مديرا عاما للبنك ، ومضاعفة مرتبه حتى يحمل كل ذنوب البنك ، لكن الذنوب كانت أشمل وأثقل وأخطر من أن يحملها فرد بمفرده !

لكن كان أقسى ما يحز فى نفس صلاح خلف أن القوانين الاقتصادية كانت قد فصلت على مقاس هؤلاء الانتهازيين الأفاقين بحيث تحولت إلى مظلة يعملون تحتها فى ظل سيادة القانون . ولذلك ظلت يد العدالة قاصرة فى انتظار أن يفضح الفساد أمره بيده ثم يقضى على نفسه بنفسه ! وفى هذه الأثناء كاد صلاح خلف أن يجن فى انتظار الفرصة التى يضرب فيها ضربته ، وكان كل خوفه أن يتسلح الفساد بالدهاء والتخطيط بحيث يؤجل انفجاره من الداخل أطول مدة ممكنة ، يستطيع فيها أن يهرب بالغنيمة كلها ، كما فعل بعض الانفتاحيين الأفاقين الآخرين !

لكن يبدو أن شطحات سعد فى عالم المال كانت أضخم وأخطر من قدرته على السيطرة عليها عندما تفاعلت تراكماتها ليجد نفسه عاجزا عن الدفع . فأسرع بإتمام إجراءات سفره مع شويكار وفاروق وفايزة إلى سويسرا ، لكن يد صلاح كانت أسرع إليهم من بلوغهم المطار ، كما فعل من قبل مع مجدى الطوبجى !

ظلت تحقيقات النيابة مستمرة طوال الليل وحتى صباح اليوم التالى للاستماع إلى أقوال أعضاء هيئة سوق المال ثم أقوال مباحث الأموال العامة بوزارة الداخلية برياسة العميد صلاح خلف الذى قدم معلومات وافية للنيابة عن التحريات التى أجرتها المباحث خلال الفترة الأخيرة حول مخالفات شركات العنترى ومصرفه

المرتبط بها .

قامت النيابة العامة ونيابة الشئون المالية بتشكيل أكثر من لجنة للضبط والتفتيش ، حيث قامت بمهمة حصر وضبط كافة ممتلكات العنترى ، والمستندات المتوافرة فى هذه المقار . وعرضت نتيجة التفتيش على إدارة النقد بوزارة الاقتصاد للإذن برفع دعوى جنائية ضد أصحاب البنك وشركاته . وفرضت النيابة العامة قرارات التحفظ والحراسة على أموال ومقار العنترى لتقدير قيمة هذه الممتلكات حتى يمكن التعرف على المركز المالى للبنك وشركاته من خلال الأحوال المالية المتاحة لها من الداخل .

فى قفص الاتهام وقف سعد وأخوه فاروق وزوجته شويكار وأخته فايزة فى المقدمة ، أما مجدى الطوبجى فقد قبع فى ركن قصى بمفرده ينظر إلى سعد الذى تجنبه ، نظرات يتطاير منها الشرر الأسود . فى حين وقف صلاح خلف ليواصل الإدلاء بشهادته وعيناه السوداوان تقولان لهما : ها نحن نلتقى ونتجمع مرة أخرى كعادتنا دائما فى المواقف المصيرية والمناسبات التاريخية ، ويبدو أننا سنظل نفترق ونلتقى إلى أن يشاء الله أمراً كان مفعولا ! ثم خرج صوته مجلجلا :

ـــ إن المتهم الأول الذى ادعى فى يوم من الأيام أنه بطل قومى نقل الحركة التجارية من الخارج إلى الداخل وأتاح الفرص أمام المصريين لإقامة ما يسمى بالتصنيع المشترك ، قام بكل مؤامراته على سلامة الاقتصاد القومى فى ظل القانون ٥٠ لسنة ١٩٨٤ الذى جعل وزير الاقتصاد صاحب السلطة العليا على البنك المركزى وله القول الفصل فى كل أمور العمل والعاملين فيه ، وبذلك تحول البنك إلى مجرد مصلحة من مصالح وزارة الاقتصاد ، وفقد ممارسة سلطاته التى أنشئ من أجلها خاصة توقيع العقوبة على البنوك المخالفة . أما تعليمات عدم القبض على تجار العملة داخل صالات البنوك فقد جعلت السوق السوداء قاعدة وغيرها استثناء ، لدرجة أن بنوك القطاع العام وشركاته تعاملت مع تجار العملة تحت اسم جميل وجذاب : السوق الحرة . بل إن بعض البنوك القومية ثبت خروجها على سعر الصرف للعملات الأجنبية المحدد من قبل البنك المركزى و لم يحاسبها أحد ! كان

هذا المناخ الاقتصادى الشاذ الغريب هو فرصة العمر بالنسبة لسعد العنترى وشركائه وأمثاله حتى بلغ ما بلغه فى فترة لا تزيد على سبع سنوات . فقد بلغ حجم تعامله فى اليوم عشرة مليون جنيه وفى العام ما يزيد على مليارين ، واستطاع وهو لم يتعد بعد الأربعين من عمره أن يخترق كل المؤسسات الاقتصادية والمصارف ، وأن يتعامل مع البنوك القومية الأربعة دون أن يسأله أحد عن حصاناته وضماناته !!

صمت صلاح ليلتقط أنفاسه ، فران السكون على قاعة المحكمة ، وانطلقت نظرات سعد ومجدى النارية لتلفح وجهه برغم برودة القاعة فى ذلك اليوم الشتائى القارس . هدأ صلاح من وقع كلماته :

ــ سيادة المستشار .. قد أكون أطلت أكثر من اللازم .. لكن رحابة صدركم ومنحى جلسة ثانية لإكمال شهادتى .. شجعنى على أن أفضى بكل الأسباب والظروف والملابسات التى ارتبطت أو أدت إلى الأحداث والمواقف التى سردتها على هيئة المحكمة الموقرة .. حتى تتضح الصورة تماما .. كما أرجو من الادعاء أن يسامحنى إذا كنت قد جاوزت حدود الشهادة .. فعذرى فى ذلك أننا كلنا فى خدمة العدالة والحقيقة والواجب وشكرا !

لم يناقش المستشار الشاهد فى هذه الجلسة كما فعل فى الجلسة السابقة ، إذ أن منطقه كان متماسكا وخاليا من الثغرات التى تستدعى التساؤل والاستجواب . وبذلك انتهت مهمته فى هذه القضية التى أفردت لها الصحف والمجلات صفحات عديدة ، وخصصت لها أجهزة الإعلام ساعات مرموقة من الإرسال ، مما جعل كلا من وفاء وأحمد يتيه فخرا بأبيه الذى أصبح اسمه على كل لسان .

وصل صلاح إلى بيته وقد تحول وجهه الأسمر إلى كتلة متقلصة من الإرهاق . فلم يكن ينام أكثر من ساعتين يوميا طوال الشهر الأخير الذى أصيب خلاله بانفلونزا حادة لكنه لم يسمح لنفسه بملازمة الفراش . كانت معركة لاهثة قاسية هدد سعد العنترى خلالها بالانتحار ، لكن صلاحا قال فى نفسه ضاحكا :

ــ لو انتحرت هذه المرة يا سعد .. فلن تهز فىّ شعرة واحدة !! فسأظل أؤدى

واجبى حتى لو انتحرت بالفعل فى النهاية !

كانت لواحظ قد أسرعت إلى إعداد طعام الغداء الذى لم تتناوله فى انتظار زوجها الذى لم يصل إلا بعد الخامسة مساء . لكنه أخبرها أنه فى حاجة إلى النوم ساعة أو ساعتين حتى يسترد طاقته وشهيته للطعام . تركته ينام كطفل وديع وغطته بالبطانية واللحاف وقبلته فى جبينه ثم أغلقت الباب لتجلس فى الصالة مع وفاء وأحمد تتابع مذاكرتهما للدروس .

اختفى ضوء الشمس تماما عبر النافذة الزجاجية المغلقة ، فأضاءت لواحظ المصباح الكهربى ، لكن ضوءا ومض خارجها واخترق الزجاج ، أعقبه هزيم الرعد الذى بث الرعب فى عينى أحمد الذى هرع إلى حضن أمه فطمأنته بأنه الرعد الذى قرأ عنه فى كتاب المطالعة ، وها هو يرى البرق ويسمع الرعد بنفسه . وسرعان ما انهمرت الأمطار فهرعت وفاء إلى النافذة لتتابع الحديقة الصغيرة التى تحيط بها البيوت وهى تغتسل بمياه المطر فتتألق خضرتها برغم غياب الشمس ، ويتراقص العشب تحت وطأة الرذاذ المتطاير هنا وهناك . تجرأ أحمد فترك حضن أمه ليقف إلى جوار أخته وقد شب على قدميه ليتابع مهرجان الطبيعة . انعكس وميض البرق على وجهه الخمرى الصغير وعينيه العسليتين فلم يخف ! ترددت قعقعة الرعد فى أذنيه فلم يهتز ! زأرت الرياح لتهز أغصان النخلة الوحيدة وسط الحديقة وتكاد تثنى جذعها ، لكن أحمد انطلق ضاحكا فى شقاوة طفولية وكأنه كان يسخر من خوفه ! بل إنه طلب من أخته أن تفتح زجاج النافذة حتى يبل يده بماء المطر لكنها نهرته برقة حتى لا يصاب بلفحة برد !

فتح باب غرفة النوم ليخرج منه صلاح متدثرا بالروب الصوفى الأخضر الثقيل ، وعلى وجهه ابتسامة لم تتخلص من إعياء الإرهاق :

ـــ يبدو أن قلة الراحة قد كتبت علىّ !! حتى الرعد لا يسمح لى بأن أخطف ولو ساعة نوم واحدة !

نهضت لواحظ فى سعادة بالغة تجلت فى خطوتها نحو المطبخ :

ـــ سأعد الطعام لنا جميعا ! أصبح نومك خفيفا للغاية !

ربت على وجنتها فى حنان ليجلس مكانها فى حين هرع أحمد ووفاء للالتصاق به وكأنهما يعوضان حرمانهما من حبه وحنانه طوال الفترة الماضية ، فاحتضنهما ، لكن بدا على وفاء وكأنها تذكرت شيئا فاتها :

ــ سأذهب لأساعد ماما !!

ربت على رأسها ضاحكا :

ــ من شابهت أمها فما ظلمت !

قبلته فى وجنته برشاقة ثم انطلقت إلى المطبخ لينفرد أحمد منتشيا بحضن أبيه الذى جاءه صوت لواحظ من المطبخ مداعبا :

ــ منظرك يا صلاح اليوم مثل التلميذ الذى انتهى من امتحانه وفى انتظار النتيجة !

أجابها بصوت حرص على أن يكون مسموعا :

ــ الامتحان ليس امتحانى .. والنتيجة ليست نتيجتى أنا وحدى .. وإنما امتحان مصر ونتيجتها كلها !! فإذا لم تأت الأحكام رادعة بما فيه الكفاية .. فيجب ألا نندهش إذا أصبح سعد العنترى رائداً يحذو حذوه كل المتطلعين إلى الكسب السهل السريع الضخم فى مقابل أربع أو خمس سنوات فى السجن .. يخرجون بعدها ليعيشوا عيشة الملوك ! سعد العنترى ظاهرة وليس حالة فردية .. إذا لم نقض عليها فستقضى علينا جميعا !

لم تسمع لواحظ كلمات صلاح الأخيرة إذ امتزجت بهزيم الرعد الذى لا يزال يقعقع فى الخارج ، والرياح التى لا تكف عن الزئير ، والأمطار التى تلطم زجاج النافذة فى عنف يكاد يفتحها على مصراعيها !

تمت

مؤلفات الدكتور نبيل راغب

تطلب من مكتبة مصر

الروايات

١ ـــ جبروت امرأة
٢ ـــ توابل الحب
٣ ـــ سور الأزبكية
٤ ـــ سوق الجوارى
٥ ـــ عصر الحريم
٦ ـــ الجيل الضائع
٧ ـــ غرام الأفاعى
٨ ـــ شق الثعبان
٩ ـــ قلعة الكبش
١٠ ـــ درب الشوك
١١ ـــ الكودية
١٢ ـــ بحر الظلمات
١٣ ـــ أبناء الرعد

الكتب والدراسات

١ ـــ المذاهب الأدبية من الكلاسيكية إلى العبثية
٢ ـــ موجز قواعد اللغة الإنجليزية
٣ ـــ النقد الفنى

رقم الإيداع ٣٥٢٠ / ١٩٩١
الترقيم الدولى ٢ ــ ٠٦٥٦ ــ ١١ ــ ٩٧٧